

www.kotobarabia.com

الغوايطة

رواية ٣

أبو نصير عثمان



www.kotobarabia.com



الغواية - ٣

رواية - ٣

أبو نصير عثمان

فهرس

مقدمة	- ٥ -
تنويه	- ٦ -
سيرة ذاتية	- ٧ -
الشخصيات	- ٩ -
مدينة ملعونة	- ١١ -
طفل جديد	- ١٤ -
الشارع	- ٢٠ -
المرحلة الابتدائية	- ٢٣ -
المرحلة الإعدادية	- ٢٦ -
المرحلة الثانوية	- ٣٠ -
المرحلة الجامعية	- ٣٩ -
المرحلة العسكرية	- ٥٨ -
أسوان	- ٨٧ -
القاهرة	- ١٠٩ -
مؤرخ رغم أنه	- ١١١ -



إهداء

إلى الكرام أولي الفضل.



مقدمة

الأبدي السرمدي المرمري بلون الورد والفل والياسمين، الحياة بدون طهارة تصبح جافة وإن كان لديك كنوز من عسجد.
اليوم سنبدأ مشوارنا مع الحياة. أيها الفجر الجديد إنتظرننا. الفجر قادم.. قادم.. قادم...

تنويه

تضم هذه الرواية أحداث حقيقية.. تم تمويهها: الأماكن، الأزمنة، الأسماء، علاقات الشخصيات،... بحيث لا يتعرف عليها أحد.. حرصاً على الكرامة الإنسانية.. والأخلاقيات العامة. ولنتذكر دائماً ما تعانيه الطبقة الوسطى من قهر واستلاب واستغلال.. في مقابل ما هي مُطالبه به من طُهر واستكباب واستحلال.

جرح الزمان:

لا ترجع إلى نقطة البداية واستفيد مما تحصل عليه.

محمود الثقفي

سيرة ذاتية

الاسم

: أبو نصير عثمان عبد الجيد فضل

تاريخ الميلاد

: ١٩٤٧/٦/٩ - نزلة عمارة - مصر

المهنة

: مهندس

دراسات حرة للأدب: العربي - الروسي - الفرنسي - الإنجليزي...

سفرات

: مصر - السعودية - قطر - البحرين - الكويت - الأردن - ألمانيا - فرنسا - بلجيكا

- لوكسمبورج.

لغات

: العربية - الإنجليزية - الفرنسية.

نُشرت له عدة إبداعات أدبية بـ: فلسطين - الأردن - سورية - العراق - مصر - السعودية - قطر - فرنسا.

المجال الأدبي

: قصة قصيرة - رواية.

الإنتاج الأدبي

: مجموعة قصة قصيرة.

- عضو اتحاد الكتاب - القاهرة.

- عضو منظمة الكتاب الإفريقيين والآسيويين - القاهرة.

- عضو نادي القصة - القاهرة.

- عضو نادي القصة - الإسكندرية.

أراء نقدية

- أبو نصير عثمان متميز بمداخلاته الثرية والصريحة والعفوية في ورش الأدب والمحاضرات والندوات والمؤتمرات وكافة الأنشطة الثقافية وكتابته تقليدية رومانسية ومغايرة لما هو موجود حالياً على الساحة الأدبية.. لكن كتابته مثل ألوان الطيف تخاطب كل ذائقة.. لأن في ذلك إثراء للمشاهد الأدبي.
- أ. زينب العسال - نادي القصة - القاهرة.
- يلجأ أبو نصير عثمان أحياناً إلى الحوار الذي يُعطي للسرد ميزة التفرد والعُمق والصدق والواقعية والجاذبية.. والحوار رائع سواء كُتب بالفصحى أو بالعامية.
- أ. منى حسين - نادي القصة - القاهرة.
- أبو نصير عثمان لديه إنتاج أدبي غزير مختزناً في صدره انتظاراً لفرصة التقديم لجمهور القراء لاحتوائه على التفرد السردي والتميز الحكائي والسمو الموضوعي والإنساني الذي ينمو إلى الواقعية الجمالية التي تبتعد عن القبح و تغلف السُم بالعتل.
- أ. د يسري العزب - دار الأدباء - القاهرة.
- أبو نصير عثمان أديب يعبر عن جوانب شتى من شخصية الإنسان المعاصر، والعلاقة بين الشخصية والراوي تحتم عليه توضيح ملامحها الحسية والنفسية حتى لا يلفها الغموض وهو يصف بدقة وبروعة، وحواره مُحقق للحبوبة.
- أ. د محمد عبد الحميد خليفة - كلية الآداب - جامعة الإسكندرية.
- أبو نصير عثمان لديه أسلوب جميل وخفيف الدم، يحقق السرور لكل من يتابع كتاباته ويجذبه لمتابعة الأحداث حتى النهاية، والتي يؤكد بها موهبته الأدبية الحقيقية والصادقة والمنفردة.
- أ. د حسام عقل - دار الأدباء - القاهرة.
- أبو نصير عثمان أديب مبدع متمكن من أدواته، لديه إمكانيات الكتابة عن اللحظة والموقف واللقطة والتجربة والتدقيق الإبداعي، وكتابته موحية وغنية بالدلالات والمحقة للبسمة فوق شفافها المزمومة وجوهر السرد يشمل البشر جميعاً في المجتمع الغربي والعربي على السواء.
- أ. فتحي الأبياري - نادي القصة - القاهرة.
- أبو نصير عثمان له رؤية أدبية جديدة ومتفردة تأخذنا في نزهة بين السطور بلماحية لنعيش براءة الحكى وبهجته من خلال شخوصه التي تحولت حوله في لحظة أزمة ارتبطت به وأدب أبو نصير عثمان يحيرنا ويدهشنا ولغة السرد موحية.
- أ. م. الشربيني المهندس - اتحاد الكتاب - الإسكندرية.

الشخصيات

رقم	الاسم	ملاحظات	رقم	الاسم	ملاحظات
١	محمد المصري	مساعد صيدلي	٢٧	محمود المصري	قائد طابور
٢	أسامة محمد المصري	مهندس	٢٨	محمود المصري	الحاضر الغائب
٣	د. لوقا	صيدلي	٢٩	محمود المصري	رئيس الجامعة
٤	أبو رأسين	بلطجي	٣٠	محمود المصري	أستاذ جامعي
٥	الداودي	بلطجي	٣١	محمود المصري	جنود - القاهرة
٦	سيحا	بقال	٣٢	محمود المصري	ضباط صف
٧	أنور	غلام متشرد	٣٣	محمود المصري	ضباط
٨	حمدان	بائع فول	٣٤	محمود المصري	مدنيون
٩	عوض	بائع عرقسوس	٣٥	محمود المصري	عسكريون
١٠	حسنين	بائع عصير قصب	٣٦	محمود المصري	فنيون
١١	حبشي	أبلة	٣٧	محمود المصري	ممرضون
١٢	صابر	سمكري	٣٨	محمود المصري	كتبة
١٣	وجدي	ترزي	٣٩	محمود المصري	حلاقون
١٤	محمود الجزار	قصاب	٤٠	كوكب	بائعة فواكه
١٥	أحمد المصري	طالب	٤١	حبشية	بلهاء
١٦	محمود المصري	طالب	٤٢	لواظ	غانية
١٧	محمود المصري	اللواء أ. ج	٤٣	نجية المصري	زوجة وربة منزل
١٨	إسعاد	حائكة ملابس	٤٤	مريم	شقيقة محاسن

رقم	الاسم	ملاحظات	رقم	الاسم	ملاحظات
١٩	شوقية	بلطجية	٤٥	فاتن	زوجة شقيق محاسن
٢٠	نرجس	نصابة	٤٦	فاطمة	جارية محاسن
٢١	فردوس	حائكة ملابس	٤٧	عائشة	حماة محاسن
٢٢	محاسن	محاسبة - أرملة - القاهرة	٤٨	أيمن	شقيق زوج محاسن
٢٣	وحيد	ابن محاسن - طفل	٤٩	عمرو	زميل أسامة
٢٤	نجاه	ابنة محاسن - طفلة	٥٠	رباب	طالبة بالمرحلة الثانوية
٢٥	محسن	شقيق محاسن	٥١	مجدي	مهندس وردية - أسوان
٢٦	نورا	صديقة محاسن	٥٢	محمود	مهندس وردية - أسوان



مدينة ملعونة

أطل العام واحدٌ وخمسون وتسعمائة وألف من التاريخ الميلادي (١٩٥١ م) .. على محطة السكك الحديدية لمدينة سبط - بجنوب مصر - ليجد ساعتها المثبتة على واجهتها الغربية، متوقفة على الساعة الحادية عشر وخمسين دقيقة.. منذ عدة سنوات مضت. لا يذكر أحد من أحياء المدينة - وربما من أمواتها - أنه رأى هذه الساعة تعمل، كما لا يذكر أحد على وجه التحديد متى بُنيت المحطة ذاتها، وأغلب الأراء تُرجح بناءها لمصلحة الجيش الإنجليزي.. الذي كان يجثم على صدر مصر المحروسة، خلال هذه الفترة المظلمة من عمر البلاد البائسة.

مدينة (سبط) لا تمثل أقدر مكان في مصر فقط، بل أيضاً في كافة بقاع الكرة الأرضية بجهاتها الأربع. فسكانها يهودون مضاجعة الغلمان والتبول على الجدران وعدم صرف نفودهم القليلة. انعكست هذه السلوكيات المنحطة على مبنى المحطة.. الذي يبدو ذو لون أصفر شاحب، مُغطى بطبقات من الأتربة العفنة برائحة البول الحيواني. ويعلم أقل القليل من السكان بوجود ساعة تتوسط مبناها الرئيسي.. رغم مرورهم شبه الدائم أمامها، إما للسفر عن طريق قطاراتها المتهاكة المزعجة، وإما للتنقل بين كافة أطراف المدينة التي تقع المحطة في مركزها تقريباً.

سُكان المدينة غير محرومين من النساء الحلائل والحرائر، لكنهم يتفنون في الاختلاء بالصبيان داخل الزوايا والأزقة والأركان المظلمة...!!!.. بعد إغوائهم بقليل النقود أو الأطعمة غير الطازجة. السكان يُربون الكلاب والقطط ويصطادون الفئران.. تمهيداً لأكلها يوماً ما، وخاصة في أيام الأعياد الدينية ومواسم الشعوذة...!!!.. يعلمون أقل القليل عما يدور خارج المدينة، ولا يهتمهم في قليل أو كثير كل ما يدور خارج حدود محافظة الجيزة الكبرى أو محافظة القاهرة الأكثر كبراً.. هم يحلمون بالتجول في أحياء القاهرة؛ ويستمرئون الحلم برؤية الإسكندرية.. ليس لسحر بحرها وبهاء شواطئها.. بل بسبب ما يسمعونه من جمال فتياتها - من جميع الأعمار - وغضاضة مؤخراتهم.. يسفحون الأيمانات المغلظة على أشد الأمور تفاهة وعفن.. أهلها كانوا عبيداً لسادة الإقطاع الزراعي، ومن حالفه بعض الحظ منهم أصبحوا عبيداً لكبار كوادِر الجيش والشرطة والوظائف الحكومية.. لا يعرف أي أحد فيهم جذور أسرته - ولا يهتم بمعرفة ذلك - ويعتقد أنهم من بقايا عبيد وخدم وشواذ وغانيات ومجرمي قوم لوط...!!!.

قلة من السكان تتظاهر بالذهاب إلى المعابد - يومياً أو أسبوعياً أو سنوياً - فيعتقدون خطأ بأن جزاءهم الجنة...!!!.. ويتجاهلون النار التي هي في انتظارهم على أحر من الجمر.. لتجاهلهم كل ما يحدث داخل المدينة من: افتراء وفُحش وغبن وغش وخداع وموبقات وزيف وبطلان وتعدي على شرائع الله ومحارم السماء والملكوت.. والذي يصل إلى حد سب الدين ذاته...!!!.. بحجة انشغالهم في عبادة الله.. وهو برئ منهم جميعاً.. مهما ركعوا وسجدوا أو أطلالوا اللحى وقصروا الثياب...

من ميدان المحطة تتفرع الشوارع الرئيسية، وتجري إلى الاتجاهات الجغرافية الرئيسية. فإلى جهة الشمال (بحري) يجري شارع "الصناعية" بحذاء خط السكك الحديدية المتجه إلى القاهرة، وأهم المباني فيه هي: المدرسة الثانوية الصناعية - محطة بنزين - قصر آل هلال - عمارة حديثة بها مقر مجلة "المصور" - عمارة حديثة يقع أسفلها محل حلويات مشهور - قصر آل توفيق - عدة عمارات حديثة.. وينتهي بأراضي زراعية. وإلى جهة الجنوب (قبلي) يجري شارع "الجوازات" بحذاء خط السكك الحديدية المتجه إلى أسوان، وأهم المباني فيه هي: مبنى استخراج جوازات السفر، استراحة لموظفي السكك الحديدية، موقف لحافلات وسيارات النقل إلى القرى المحيطة، مبنى لمحطة توليد الكهرباء، مدرسة إعدادية، مدرسة ابتدائية، عدة عمارات حديثة.. وينتهي بأراضي زراعية.

وإلى جهة الشرق يجري شارع "النهر" الذي يضم عدة عمارات حديثة يسكنها عليّة القوم، عدة مدارس للبنين والبنات، مبنى التفنيش على منشآت نهر النيل، قصر آل أبادير، قصر آل حبشي، قصر آل طنبوس، ورشة صيانة آلات زراعية وأخرى للسيارات.. وينتهي بمجرى نهر النيل الذي يوازي خط السكك الحديدية، في امتداده من الجنوب إلى الشمال. وعلى شاطئ النهر أقيمت عدة أرصفة ومقاعد ومظلات و (فراندات) للنزهة والفسحة والجلوس والحديث والتمتع بهواء الجو العليل المرافق لمياه نهر النيل.. فيما يعرف بـ "الكورنيش".

وإلى جهة الغرب يجري شارع "المحطة" وأهم المباني فيه هي: دار سينما الزان - قصر آل الزان - عمارة التأمين - ش. الذهب - عدة بنوك - دار سينما أدوارد - قصر آل أدوارد - ساحة شعبية - نادي الشباب الرياضي - حديقة النزهة - ميدان المجنون - عدد من الأزقة والحواري التي يفضي بعضها إلى بعض حتى تبدو للسائر فيها أنها لا نهاية لها وكذلك النواصي والمحلات القديمة والمنازل الأكثر قدماً.. وينتهي الشارع بمنطقة للمقابر، تجاور حوش لذبح الحيوانات "السلخانة"، ثم سلسلة جبال الغرب التي تمتد شمالاً وجنوباً إلى أن يشاء الله. ويعتبر الشارع الغربي أطول وأقدم الشوارع، كما أنه يخترق أقدم وأكثف منازل المدينة.. ويعرف محيطها بـ "غرب البلد".

بطبيعة الحال تنتشر دور العبادة ومحلات المعيشة اليومية مثل: دكاكين البقالة والحلاقة والسباكة والمقاهي والصيدلة وعيادات الأطباء.. وما شابه، هنا وهناك.. لكن معظمها يقع جهة غرب البلد، التي تضم أفراد الطبقة الوسطى والدنيا والمنحرفين في الأغلب الأعم. وبصفة عامة انقسمت المدينة إلى شرق وغرب وقبلي وبحري.. وتميز كل قسم بسكانه وعاداته وتقاليده ومستواه المادي والروحي ورجاله ونسائه وأطفاله واتجاهاته الفكرية والثقافية والدينية وأعياده ومناسباته الهامة واحتفالاته...

وإذا نظر راكب طائرة إلى المدينة أسفله.. لبدت له كمؤخرتين كبيرتين مُتعامدتين.. تحتضن إحداهما الأخرى بشبق شاذ.. ويتخلل سطحهما آلاف من الخطوط الدقيقة المتوازية والمتقاطعة والمتفرعة - في آن - تُمثل الحواري والأزقة الضيقة. وفي منطقة المُنتصف تقريباً.. يقع ميدان محطة السكك الحديدية.. مُستدير ومُعتم ومُتَشَج وعفن كُتُف فتحة الشرج. ويبدو نهر النيل كخط رمادي اللون، يُحد المدينة من جهة أقصى الشرق، ومتجهاً شمالاً وجنوباً. بينما يتجه بالمثل خط بُني اللون، من جهة أقصى الغرب، يُمثل سلاسل الجبل الغربية، بِسُك أكبر من الخط الرمادي. بينما تبدو مناطق أقصى الشمال والجنوب - على السواء - خضراء اللون، لاحتوائها على الزراعات المتنوعة. وينعكس كل ذلك على طقس المدينة.. والذي هو شديد البرودة شتاءً.. شديد الحرارة صيفاً.. مع قصر أيام الربيع والخريف.

طفل جديد

ضجّر الشاب محمد المصري من دراسته الدينية.. ومن قسوة مُعلميه ووالديه.. الذين تحالفوا جميعاً ضده.. لإجباره على التفوق في تحصيلها. ولم يُرق له كثيراً ما ينتظره في مستقبله غير المنظور، برُقّة الدراسة والمعلمين والوالدين والزملاء.. فهرب ذات صباح من قريته النائية إلى مدينة سط.. التي ملء سمعه ما فيها من بُهرج الحياة وزُخرفها، وهي في حدها الأدنى تفوق حياته.. المتبرم بظروفها غير المؤاتية. تجول الشاب الهارب في كافة الشوارع الطويلة والقصيرة، المُتسعة والضيقة.. بحثاً عن عمل يُقيم أوده. ومن فوق مقهى اشتهر بآيوائه للمتشردين والعاطلين.. أرسل إلى صيدلية - حديثة الإنشاء - تحتاج إلى عامل جيد القراءة والكتابة، لمساعدة مالكها في كافة الأعمال وصناديق وعلب وقنينات الأدوية.. إلى عملية البيع لعموم الجمهور. الشروط المطلوبة توفرت في الشاب الهارب وتركزت أساساً في إجادته للقراءة والكتابة وصحته البادية وعمره الغض ودمائه خلقه البادية في شكله العام وأصوله الريفية النقية والفطرية. وبعد تبادل بعض الأحاديث مع مالك الصيدلية الحديثة، اقتنع بملائمة الشاب الهارب للعمل معه، وكبدية كلفه فقط بكافة أعمال النظافة داخل وخارج الصيدلية، مع المبيت داخلها لحراستها ليلاً.. من لصوص منطقة (غرب البلد) غرب المدينة، والتي تقع الصيدلية على أطرافها.

نشط محمد المصري في عمليات النظافة، ومنها انتقل إلى عمليات رص الدواء وتنسيق قنيناته ومعلباته ومُستلزماته، بتوجيه من دكتور لوقا صاحب الصيدلية. واستطاع الشاب الهارب - يوماً في إثر يوم - من اكتساب ثقة وإعجاب الدكتور، بفضل أمانته وأخلاقه بصفة عامة، ومن إجادته للقراءة والكتابة بصفة خاصة.. ومن قيامه بالحراسة الليلية على أكمل وجه بصفة أكثر خصوصية. على يمين الصيدلية الحديثة يوجد محل حلويات وأستديو تصوير ومكتب مقاولات.. وعلى يسارها يوجد محل بقالة ومكتب سيارات نقل ومقهى.. وفي مواجهتها يوجد مطعم ومقهى ومحل نظارات وورشة إصلاح سيارات.. لما كانت المنطقة مُتربة والشوارع غير مسفلتة بالكامل، فإن الجميع يتنافس على رش المياه فوق الأرض.. فوق أكبر مساحة مُمكنة أمام كل محل، لتجنب دخول الغبار إلى داخل المحلات ذاتها واتقاء لحرارة الطقس. أما المقاهي فيتعتمد أصحابها رش أكبر مسطح من الأرض جلباً للزبائن واستحواداً على الأرض المرشوشة ذاتها.. برص مزيد من المقاعد والمناضد فوقها.

وقف أبو رأسين صاحب مقهى "الحدوة" يرش المياه كيفما أُنفق.. فإذا برداها يطرطش على من يجلسون في مواجهته على مقاعد مقهى "الأمانة".. أبدى بعض الجالسين ضيقهم وشعورهم بالاستياء.. فخرج المعلم الداودي من جوف مقهى الأمانة.. يسبُ ويلعن أبو رأسين وكل من يجلس حوله.. وتطور السباب إلى المشاحنات والتماسك بالأيدي ثم أشتبك مُعظم الزبائن في معركة حامية.. أستخدمت فيها المقاعد وزجاجات المياه الغازية والأكواب الزجاجية والعصي والطوب.. وكل ما تظاله الأيدي المُتشنجة.. بينما لاذ بعض الزبائن بالفرار. عندما تطايرت المقاعد وقذفت الزجاجات والأكواب من جهة إلى أخرى.. أحس محمد المصري بخطرهما على الواجهات الزجاجية و (فاترينات) عرض الأدوية بالصيدلية.. فسارع بغلق أبوابها



الخارجية.. بينما دكتور لوقا منشغلاً بشرح طرق استخدام بعض الأدوية ومواعيد استخدامها لزبائنه الآخذين في الانزعاج والتوتر.. مما يلحق أسماعهم المريضة من سباب وشقاق وارتطام.. لم يكتف محمد المصري بغلق أبواب الصيدلية بل وقف أمامها يدفع بذراعيه القويتين كل من يقترب منها، سواء كان تابع لمقهى الأمانة أو من زبائن مقهى الحدوة، فلا فرق لديه بينهم.. فالجميع يُهددون مكان أكل عيشه بالدمار والتخريب. اتصل دكتور لوقا بقسم الشرطة، الذي أرسل بعض أفراده بعد خراب "البصرة".. وهروب معظم المشاركين في خرابها. قبضت الشرطة على بعض ممن لم يستطع الهرب واقتادهم إلى الحجز.. بينما لجأ بعض المصابون إلى الصيدلية ودكتور لوقا ومحمد المصري وزبائنهم.. طلباً للإسعافات الأولية من: قطن وشاش وكحول ومراهم وميكروكروم...

اضطر دكتور لوقا إلى توجيه بعض البيانات الطبية إلى محمد المصري، والتي شملت كيفية علاج الجروح وتضميدها، ومتى وأين وكيف يستخدم الميكروكروم والمرهم والشاش وخطوات التطهير.. وكذلك كيفية تمييز الذراع المكسور والدم المحبوس، والفرق بين دم الوريد ودم الشريان والدماء الفائرة والدماء المتخثرة.. وما شابه. بعض ممن كانوا يتضاربون منذ دقائق، وقفوا جنباً إلى جنب لتلقي نفس الإسعافات الأولية، التثاماً لجراحهم ووفقاً لدمائهم المهدورة. وخلال ذلك كان لسان محمد المصري لا يكف عن توجيه النصائح والإرشاد، والحديث عن الأخوة الإنسانية والأخلاق الكريمة، وواجبات الجوار والاحترام المتبادل.. الذي نادى به القرآن والإنجيل والتوراة.. كما تلى على المتخاصمين بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، التي سبق له دراستها من قبل. أما أغرب ما سمعه محمد المصري عن أسباب النزاع.. فهو تأكيد بعض المصابين له بأن مياه الرش بريئة من إشعال فتيل المعركة.. التي أضرمت نيرانها بسبب تنافس أبو رأسين مع الداودي.. على اصطياذ الأطفال المفقودين والمتشردين.. لممارسة الفاحشة والشذوذ!!!..

فضل دكتور لوقا طمأنة زبائنه من الجنس الناعم، على كون حرم الصيدلية - من الداخل والخارج - هو محمية اجتماعية يخشاها الجميع، فلا يجروء أحد على خدشها، سواء في وجود محمد المصري أو في غيابه، وسواء أغلقت أبوابها أم تركت مفتوحة.. وعندما انصرفن أثنى دكتور لوقا على حسن تصرف محمد المصري.. بإغلاق أبواب الصيدلية كإجراء وقائي ضد المقذوفات المتطايرة بين المتنازعين. عقب كل معركة بين زبائن المقاهي وما يجاورها من محلات، كانت تحدث الإصابات السطحية والخدوش، فيلجأ الجميع إلى محمد المصري.. لتلقي العلاج السريع والضروري. فتسبح له كثير من الفرص لتبادل الأحاديث والتعرف على أشخاص المصابين وأهاليهم، ثم إقامة علاقات ودية مع الجميع. فمن ناحية.. يُعد محمد المصري غريباً عن المدينة، ومن ناحية أخرى ليس لديه أي مصلحة خاصة مع أي أحد.. سوى دكتور لوقا وعمله بالصيدلية الحديثة.

بمرور الوقت أغوى محمد المصري - ليس فقط - بالجلوس على مقاعد المقاهي لتدخين النرجيلة والسجائر.. بل أيضاً لتجربة كافة أنواع المخدرات ونكاح الأطفال.. والذي كان ينشط بعد منتصف الليل، عندما يغط في النوم رجال الفضيلة والدين والقانون.. فيصول ويجول كافة الخارجين على القانون.. دون رادع حقيقي من سلطة دنيوية أو سلطة سماوية.. بالفسق والفجور والابتذال المستفحل. داخل جوف الصيدلية كانت توجد غرفة المعمل الكيماوي.. ودخولها قاصر فقط على دكتور لوقا، الذي كان يحضر فيها بعض السموم والأدوية والعلاجات بطريقة" التركيب" من عناصرها الأساسية، المحفوظة داخل قنينات ومغلفات وعلب كرتونية وأكياس بلاستيكية.. فوق رفوف خاصة أو داخل أدراج (سحابات). احتوى المعمل أيضاً على وصلات للمياه والكهرباء وحوض للصرف وموقد ومقعد.. ومن داخل المعمل كانت توجد غرفة صغيرة مخصصة لراحة أو لنوم دكتور لوقا.. إذا ما أحس بالإرهاق خلال ساعات تواجده بالصيدلية. وتضم الغرفة الصغيرة سرير بكامل أغطيته ومقعد ومشجب ونافذة مستديرة الشكل (طاقة) تُفتح على منور المنزل، وللغرفة باب محكم الإغلاق كباب المعمل.. ومفاتيح البابين مع دكتور لوقا بصفة دائمة.

على يمين المعمل تقع غرفة نوم محمد المصري، وهي لا تقل صغراً عن غرفة راحة دكتور لوقا، وإن احتوت على سرير ومشجب ومقعد أقل رونقاً.

الثقة المتبادلة والعلاقات الإنسانية بين دكتور لوقا ومحمد المصري ازدادت توثقاً بمرور الأيام، التي أثبت فيها محمد المصري أمانته وشهامته وقيامه بواجباته على أكمل وجه - داخل وخارج الصيدلية - والمعتمدة في الأساس على إجادته القراءة والكتابة، مما مكنه من تصنيف كافة أنواع الأدوية والتفريق بينها، وقراءة الوصفات الطبية ومحظورات العلاج ونصائحه وإرشاداته ومواعيده.. ثم نقل كل ذلك إلى المرضى وذويهم - ومعظمهم من الجهلاء - مع تجنب مخاطر الخلط بين الأدوية أو الاستخدام الخاطئ لها. وبمرور الشهور استطاع محمد المصري حصر معظم أصناف الأدوية، وتحديد كميات المستهلك منها والمطلوب توفيره من شركاتها.. التي كانت ترسل مندوبيها إلى الصيدلية بصفة دورية، للاتفاق على طلبات الشراء أو استعادة ما لم يتم بيعه، وتسليم عينات الأدوية الجديدة للتتويه عنها وعرضها على جماهير المرضى والمعالجين. كان محمد المصري يتطور في عمله ويحرص على معرفة كافة تفاصيله، ويسعى لاستزادة معلوماته بكل دأب ونشاط.. حتى ارتاح دكتور لوقا إلى التخلي له عن معظم واجبات العمل داخل الصيدلية.. باستثناء ما يجب إنجازه داخل غرفة المعمل الكيماوي من تفاعلات تركيبية.. وما يجب إنجازه داخل غرفة الراحة من تفاعلات ترويحوية. خارج الصيدلية من الجهة اليمنى - وعلى بُعد ثلاث محلات - تقف عجوز في الخمسين من عمرها لبيع الفواكه فوق عربة يد خشبية، تدعى "كوكب".. وتدعي أنها سليلة أسرة كريمة من شمال البلاد، وتسب كل من يناديها باسمها المجرد.. دون أن يسبقه بلقب "معلمة" أو "السيدة" (الست)، وهي امرأة بدينة سليطة اللسان شرسة الطباع حادة النظرات.. وتخفي داخل طيات ملابسها سكيناً قصيراً.. لاستخدامه عند الضرورة.. أو لتهديد من يتناولون عليها.. أو من لا يرغبون في دفع ثمن ما يشترونه منها.. والذي عادة ما تقوم هي بتحديدده حسب هواها الشخصي.. وليس حسب الأسعار الموجودة في السوق، وعادة أيضاً ما تكون أعلى مما يبيع به غيرها من تجار الفواكه. وبسبب هذه المغالاة في الأثمان - ولسانها الطويل -

تشبتك يوماً مع من لا يعرفونها ويخطئون بالشراء منها.. أو حتى إلقاء السلام عليها. المعلمة كوكب زرعت الكراهية حولها بتفضيلها السب واللعن وتمزيق ثياب كل من لا يوافقها في البيع والشراء، أو تبدو عليه مظاهر السخرية والاستهزاء بها وبفواكهها.. التي تمكث فوق عربتها لفترات طويلة حتى يصيبها العطب.. فتصر المعلمة كوكب على عدم إلقاءها في القمامة.. والدوران حولها مطاردة لما يغطيها من ذباب ونظرات احتقار المارة.

عندما أدمن محمد المصري المخدرات.. عرف طريقه إلى عربة فواكه المعلمة كوكب.. التي تخفي لفائفها الصغيرة بجوار سكينها الحادة...!!

رجال الشرطة السريين كانوا على علم تام.. بخط سير المخدرات من تجار الجملة إلى التجزئة.. إلى كوكب ورفاقها على مقاهي آخر الليل وكلك نكاح الأطفال.. ولكنهم فضلوا المتعة على العذاب بمشاركتهم التامة والمجانية.. لكافة أنشطة المدمنين والمنحرفين والشواذ.

عصر أحد الأيام حضر طفل في العاشرة من عمره، مهلهل الثياب أبيض البشرة إلى دكتور لوقا.. فرافقه إلى جوف المعمل الذي أحكم إغلاق بابه. وبعد حوالي الساعة خرج الطفل من الصيدلية وهو يجري مُرتعباً.. ومن خلفه تعثر دكتور لوقا في خطواته وهو يحاول دون جدوى إيقافه والنداء عليه: "أنور.. أنور.. لا تبتعد...!!!"

لاحظ محمد المصري كل ما حدث مع أنور كما لاحظته بعض المتواجدين داخل وخارج الصيدلية.. ولجأ الجميع إلى الصمت المريب والتجاهل المعتاد...

أخرج محمد المصري خرطوم المياه إلى أمام الصيدلية وشرع في رش الأرض المتربة.. التي كانت تتلظى بحرارة الصيف. فبمجرد أن تلامس المياه الأرض.. تحدث هسياً.. مصحوباً بتصاعد الأبخرة الممتزجة بالغبار الناعم العفن.

حرك محمد المصري وجهة المياه يميناً ويساراً وإلى الأمام، ليغطي أكبر مساحة ممكنة في واجهة الصيدلية وعلى طرفيها، لتلطيفاً لحرارة الصيف وتغدياً لتناثر الغبار ووصوله إلى جوف الصيدلية ذاتها. وبينما محمد المصري مُنهماكاً في نشاطه المائي، اقتربت منه لوحظ.. وهي أرملة متوسطة العمر تعمل في خدمة ونظافة المنازل المجاورة. أبرزت لوحظ ورقة مكتوبة وناولتها إلى محمد المصري وقالت..:

- عندما تفرغ من رش المياه، جهز الأدوية المسجلة بالورقة وسأعود لأخذها بعد قليل.
- السمع والطاعة يا ست الحُسن والجمال.
- أنا ذاهبة لشراء الخبز وبعض الفواكه والخضراوات.. فلا تعطيني بكلامك هذا.. الهوانم ينتظرني.
- أنا أشفق عليك مما أنت فيه.
- أشفق على نفسك.. الحال من بعضه.

ابتعدت لوحظ إلى الأسواق، وفرغ محمد المصري من الرش بعد أن تبللت الأرض وتغير لونها عما يجاورها. نظف محمد ذراعيه وغسل وجهه ونسق شعره، وتهيأ لعمله الدوائي بتجهيز طلبات لوحظ وتلبية رغبات زبائنه الآخرين.

في نهاية الليل وبينما محمد ممدد على سريره - بين اليقظة والنم - ترددت عبارة "أشفق على نفسك" في خاطره وتحولت إلى سؤال: "كيف أشفق على نفسي...؟!". تقلب محمد في رقدته واعتراه القلق.

استعرض محمد مفردات حياته الحالية.. فوجدها موزعة بين: العمل داخل الصيدلية بكل همّة ونشاط، وعلاقاته الطيبة مع من حوله، وتضييع كل دخل المادي على الطعام والشراب.. ومقاهي آخر الليل التي تضم حلقات النرجيلة والمُحدرات والأطفال.. ثم جزع محمد من عدم وجود أموال مُدخرة معه لتقلبات الأيام. فماذا سيحدث له.. لو طُرد يوماً ما من عمله بالصيدلية؟. ستنهار حياته ويضطر للعودة إلى قريته.. فيعاير بفشله وخيبته في الحل والترحال. فقرّر في التو والحال.. تغيير نمط حياته.. والتوقف عما يرتكبه من موبقات.. وفي مقدمتها الأطفال، ليس فقط حفاظاً على نقوده القليلة.. بل أيضاً حفاظاً على صحته وسُمّعه.. تمهيداً للزواج والاستقرار.. في كنف من يُحب وفي أحضان من يعشق.

مرت لوحظ أمام الصيدلية فداعبها محمد، ولمح لها برغبته فيها. ولما تطرق الأمر إلى الزواج.. رفضته لوحظ...!!!.. لأن ما معه من نقود لا يحقق أحلامها. وكتعويض له اتفقت معه، أن تنبت في أحضانه مرة كل أسبوع مقابل بعض المال.

تحدث محمد إلى حمدون بائع الفول المدمس "في أمر زواجه، فأشار عليه بـ"حبشية" وهي فتاة معتوهة، تعيش مع أخيها "حبشي" في منزل خاص بهما، ولكنه عندما التقى بها لم ترق له، إذ بدت أقل ملاحه من لوحظ.

وعندما ناقش محمد المصري أمر زواجه مع المقدس سيحا - صاحب البقالة المجاورة - نصحه باختيار فتاة من قريته.. ليضمن إخلاصها ويرتاح عقله من ناحيتها.. لأن بنات المدينة غير مضمونات.. وقال له بصريح العبارة...!!.. "لن تستطيع سد أعينهن الفارغات...!!!!".

فضل محمد المصري العودة إلى قريته، ومصالحة أهله وأقاربه هناك، وطمأنهم على عمله وحياته الجديدة. ثم طلب من الجميع مساعدته في إتمام زواجه من ابنة عمه نجية المصري.. التي تلائمه عُمرًا وملاحه وأصاله - وعلى الأقل هو يعرف جذورها وماضيها الناصع - وعندما تحقق له ما أراد.. عاد بصُحبته وبأحماله المتواضعة إلى غرفته داخل جوف الصيدلية بصفة مؤقتة.. وبعد بحث استمر عدة أسابيع، استطاع استئجار سكن جديد، فوق سطح منزل قريب من الصيدلية. وكان السكن عبارة عن غرفتين وأمامهما باقي سطح المنزل، الذي خصصته نجية لنشر غسيل ملابسها وتربية الدجاج والأوز والبط وأفراخهم، بينما جعلت الغرفة المطلة على الطريق للنوم والطعام والمعيشة، بينما الغرفة الداخلية للنظافة والغسيل والاستحمام والطبخ وإعداد الطعام والخبز...

سعد محمد ونجية بزواجهما وحياتهما الجديدة.. التي أنثرت طفلاً جديداً أسمياه "أسامة".. قوى
أواصرهما العاطفية والإنسانية.. في مواجهة غربة المدينة التي أداقتهمما الشهد يوماً والمرارة أياماً.. حتى
غنى محمد لنفسه غدواً ورواحاً..:

كتاب حياتي يا عين ما شُفّش زِيَه كتاب
الفرح فيه سَطرين والباقي كلُّه عذاب
عذاب.. عذاب.. عذاب

تلقى محمد المصري الكثير من التهاني والتبريكات بزفافه الميمون من كل جيرانه ومعارفه. فنصحهُ
المقدس سيحاً بالبُعد عن المخدرات حفاظاً على صحته. بينما أغواه المعلم أبو رأسين بالإكثار منها صباحاً
ومساءً. وتلطف معه المعلم الداودي بتنظيم تناول المخدرات خلال الفترة السابقة لمضاجعة زوجته. دكتور
لوقا طلب صراحة من محمد المصري.. البعد عن الأطفال وعن كوكب ولواظظ - وأمثالهن - الغارقات في
الإثم والخطيئة والفعل الحرام.. بعد توفر الحلال له. أما المعلم حودة الجزار فوعده بتحضير بعض العظام
والشحوم الغنية بالبهريز والطاقة.. لمعاونته في واجباته الليلية. وكذلك فعل بائع العرقسوس وحسنين
بائع عصير القصب وحمدون بائع الفول المدمس.. الذين لم ييخلوا بم لديهم من: مواد غذائية ومنشطات
صحية ووصفات إرشادية.. لكل عريس جديد.

الشارع

كلما فرغت نجية المصري من شغل البيت، تحمل طفلها أسامة في حضنها، وتلجأ إلى النافذة المُطلّة على الشارع. فتُجلس أسامة على حافتها وهي خلفه، محيطة له بذراعيها وضاعطة بظهره على صدرها. تتحرك رأس الطفل في كل اتجاه، وراء كل ما يثير ومن شئ تراه. من يرفع بصره - من أسفل - إلى النافذة يرى أسامة جالساً، ورأس والدته على يمين أو يسار رأس أسامة.. لضيق النافذة.

في أيام الصيف كانت الأرض تفتح بحرارتها. إلا أن وجود النافذة في مستوى الطابق الثالث، جعلها مورداً طيباً للهواء الطري، الذي يستروحه أسامة ووالدته، كلما أحسا بالضيق من معيشتهم، أو أنتابهما الملل من طول البقاء فوق السطوح.

في بعض الأوقات كان أسامة يغرق في نوبات البكاء دون مبرر واضح، أو يغمره الانزعاج دون سبب معقول. فتلجأ والدته إلى حمله، والمرابضة به قرب النافذة، لساعة أو أكثر.. فيذهب عنه كل توتر.. ويكف عن كل تشنج. وبمرور الأيام تأكدت نجية.. أن النافذة هي الحل السحري.. كلما امتنع أسامة عن تناول طعامه، أو قاوم أوقات نومه، أو شرع في السُخْط والصراخ والعيول والعصبية.. وخاصة في أوقات الصباح، عندما يهْم والده بهبوط سُلّم السطوح ذاهباً إلى عمله. إذ ينخرط أسامة في البكاء الخالي من ا لدموع.. رغباً بشدة في مرافقة والده إلى الشارع.

لم تكن الحركة تهدأ حول بيت نجية. فمنذ الصباح الباكر، وقرب وقت آذان الفجر، الذي يُسمع بوضوح من عدة مآذن مجاورة.. يمر الباعة الجائلون ويرفعون عقيرتهم، للنداء على ما يحملونه. فيقول بائع اللبن وهو يطرق بكوزه على "سطله".." مُحدثاً صليلاً مُميزاً.." اللبن.. الحليب.. الطازج.. نهارنا أبيض" ويعيد ويزيد في ذلك، حتى يوقفه من يرغب في الشراء، سواء بصوت رجل أو امرأة، من أحد النوافذ أو الأبواب الغارقة في الظلام. وأحياناً يلتقي البائع بمن يتتبع صوته، بحثاً عن حليبه. وعندها يضاعف البائع الطرقات على " سطله".." فيما يشبه الإعلان عن فرحه وحبوره بقاء الأحبة الغائبين.. أو عن فوزه ونجاح مسعاه في اللف والدوران.. من ميدان إلى شارع إلى حارة إلى زقاق إلى درب إلى حائط سد.. فيستدير مُبتعداً عن طوبه وشقوقه، إلى مساره السابق، وسط الظلام مُهتدياً بالأضواء الخافتة المنبعثة من الأبواب والنوافذ المحيطة.. ومُتحمساً الأرض الرطبة أسفل قدميه.. أو مُركزاً أذنيه على أصوات المساجد، وما فيها من مفردات الآذان والركوع والسجود والصلوات والتلاوات والتكبيرات والأدعية...

ويحدث نفس الشئ مع بائع " الفول المدمس"، الذي يدفع بعربته اليدوية أمامه، أو يسحبها " جحش" وينادي.." الفول.. الزبدة.. البروتين.. الأسمنت المسلح.. القشدة.. الغذاء الطبيعي.. المدمس..." وفي بعض الصباحت كانت تأتي بائعات " الجبن القريش" من القرى المجاورة.. أو بائعي " البرسيم".." بحثاً عن أرزاقهم.. في هذه الفترة المبكرة من أول النهار.

مهما كان محمد المصري مُرهقاً، أو لم يشبع من نومه.. إلا أنه كان يحرص - أشد الحرص - على مغادرة فراشه في هذه الفترة المباركة.. لشراء كافة احتياجات أسرته من: اللبن والبول والجبن والبرسيم. حتى أن الباعة أنفسهم عرفوا موضع بابه، فكانوا يحرصون بالمقابل على التوقف أمامه، ثم الإكثار من الصياح والنداءات.. حتى يهبط إليهم. ما لم يكن قد سبق حضورهم، وبكر في انتظارهم، بمواعينه المغسولة وعيونه المتناومة وملابسه المضطربة وجسده المتهالوي وأذرعته المتهذلة وأذنيه المُنتحبتين وحدقتيه الزائغتين.. ونقوده القليلة في الأساس..!! هناك كثيرون أمثال محمد المصري يشاركونه كافة طقوس خلال هذه الفترة المبكرة من الصباح الذي يتخلص تدريجياً من ظلامه وألوانه الغامقة ليحل محلها الضياء الباهر ليوم جديد يباهي ما سبقه بما فيه من حركة ونشاط وحيوية.

ويبدأ النشاط بسيارات وخيول الشرطة، التي تمرق في الشوارع الرئيسية.. للاطمئنان على الأمن العام.. والسلامة الأكثر عمومية. ثم تبديل خدمة الليل بخدمة النهار، من الضباط والجنود. وكوادر البصاوين. ويلى ذلك - وربما يرافقه - حركة مركبات وكوادر الجيش، الذين يهرعون إلى ثكناتهم الصحراوية، أو إلى محطة السكك الحديدية.. للانتقال إلى أهدافهم السرية.. ومقاصدهم العلنية. ثم تبدأ المحلات في فتح أبوابها، وضبط ما فيها من أجهزة المذياع على القرآن الكريم، الذي يصدح خلال الأبواب والنوافذ بأصوات كبار المقرئين والمفسرين والدعاة.

وخلال بضعة دقائق أخرى، يمتلئ الشارع بسيارات وكوادر موظفي الحكومة وتلاميذ المدارس - من جميع الأعمار - والكل يسير في نشاط وثقة، بملابس أجيد غسلها وكواءها خلال الليلة السابقة. فتبان المدارس يتقاذون في سيرهم، مُفاجرين بفتوتهم وأعمارهم الغضة. وعلى الأجناب تسير الفتيات بكل جدية ورشاقة، متجاهلات كل ما يصدر عن الفتيان من هذر ومبالغات - في القول والفعل - بينما هن مُتباهيات بشعورهن اللامعة المضفرة بكل عناية، وساهمات في جمال أيامهن القادمة وسحر أوقاتها. وخلال ساعتين - على الأكثر - يشتد صهد الشمس.. وكيها لكل شبر تقع عليه من أرض وجدران وبشر. فيبدأ بعضهم في رش المياه أمام المحلات، كما تنتشط ناقلات خاصة للمياه في رش الشوارع والميادين، التي تغص بحركة المركبات وعربات " الحنطور " والعربات اليدوية التي تنقل البشر والخضروات والفواكه والأثاث.. بين كافة أرجاء المدينة.

عند انتصاف النهار يكون الشارع في أوج نشاطه. ويكاد يشبه شخص غادر نومه تدريجياً.. ثم انهمك في عمله ليبدع فيه بكل إمكانياته وطاقته. ويتنافس هذا النشاط ذاته مع اشتداد حرارة الشمس.. التي تغطي الوجوه بالعرق، والأجساد بالروائح النفاذة، وتجفف الملابس المغسولة، وتبخر مياه الرش، وتصد الأبواب والنوافذ وقضبان السكك الحديدية.. التي تتمدد بكل خضوع للحرارة الشمسية.. وتخنع لأذرعها الطائلة وقبضاتها المتمرسية. عند عصر كل يوم يبدأ الجميع رحلة العودة إلى منازلهم، لتناول وجبة الغداء، والاستعداد لواجبات فترة المساء، التي تعقبها أنشطة دور اللهو والسينما والمقاهي، وجولات الشراء في الأسواق، أو النزهة في الحدائق والأندية والشوارع...

قُرب منتصف الليل يهجع الجميع، بعد أن أرهقوا تماماً بتتاليات نهارهم.. الذي أمتص منهم كل قوة، ورغبة للوقوف فوق أقدامهم.. لتحل محلها رغبة أشد في النوم والراحة والاسترخاء.. استعداداً لنهار جديد.

سعت نجية - بكل طاقتها - لاستخدام سطح المنزل بما يعود على أسرتها بالخير العميم. فمدت حبال نشر غسيل الملابس من الشمال (بحري) إلى الجنوب (قبلي)، لتتيح للملابس أكبر وقت ممكن من التعرض لأشعة الشمس.. التي لا تقوم فقط بتجفيفها.. بل أيضاً بتطهيرها. فتسطع شمس النهار على كل قطعة مغسولة، من التاسعة صباحاً حتى الرابعة عصراً، فتغرب عنها وكل قطعة ملابس قد أخذت كفايتها التامة من الحرارة والتطهير الشمسي.. ضد كافة أنواع الميكروبات والجراثيم والطفيليات والحشرات.. إضافة إلى الروائح - بطبيعة الحال - والتي ساهمت فيها مخلفات أسامة بقدر كبير.

وضعت نجية في الجهة القبليّة (الجنوبية) مخابئ الأوز والدجاج (الأقفاص) والحمام (البنيات) وتحويطات (حوزات) الكتاكيت والأفراخ.. لكافة أنواع الطيور المنزلية. المنطقة الشرقية من السطح، خصّصت لإنضاج الخبز المعجون تحت تأثير أشعة الشمس والحرارة القائظة (العيش الشمسي).. تمهيداً لإكمال نضجه داخل فرن بلدي أُقيم في الغرفة الشرقية، والتي ضمت أيضاً موقد بلدي من الطوب (كانون) وموقد كيروسين (بابور جاز) وخصص الركن الشمالي الغربي لغسيل المواعين والملابس والأوجه والأجساد (الاستحمام) داخل وعاء معدني كبير (طِشت) تجاوره أطباق قطع الصابون المختلفة الألوان والأحجام...

حرصت نجية على نظافة وحُسن ترتيب وتنسيق كل محتويات الغرفة الغربية، والتي خصّصت لتناول الطعام والشراب والجلوس والنوم.. واستقبال الزوار، والترحيب بالضيوف والجيران والأقارب.. من كل حدث وصوب.

المرحلة الابتدائية

تتحدث المناهج المدرسية عن تكون الجسم البشري من عظام ولحم وسوائل.. لكن السيدة "نجية" تؤكد على تكونه من " الفول المدمس" ومشتقاته ومفرداته وكل ما يتعلق به من مواد صلبة وسائلة. ما أن تعرفت نجية على أطباق الفول الخام من حمدان.. حتى جعلته الطعام الرئيسي لأسرتها ولضيوفها. وبمرور الأيام تفننت نجية في التعامل مع حبات الفول، فتارة تقدمه بعد إضافة بعض الملح - فقط - وتارة تضيف الزيت أو السمن أو الدهون. وفي مناسبة ثانية تضيف إليه قطع الطماطم أو عصيرها. وفي مناسبة ثالثة تضيف إليه قطع البصل الخام أو المقلي في الزيت وربما السمن. وفي مناسبة رابعة تعصر عليه الليمون أو تخلطه بعجينة البطاطس المحمرة أو المسلوقة. وفي مناسبة خامسة تضيف إلى حبات الفول " شوربة" العظام، أو قطع اللحم أو الدجاج، أو الخبز الطري أو الجاف أو المبلل بالمياه.

وفي مناسبة سادسة تخلط الفول بالعدس، أو بالمكرونه المطهية أو المسلوقة أو المعجونة، أو الجبن أو الزبادي، أو البيض المسلوق أو المقلي...

وبذا لم يمر يوم على نجية وأسررتها دون فول. كما لم يخلو منزلها من رائحته يومياً.. وطوال الأربع والعشرين ساعة من كل يوم.. بما في ذلك أيام: المواسم والأعياد والصيام والحزن والفرح والصيف والشتاء والربيع والخريف والضيافة والزيارة والحمل والولادة والرضاعة والبطام والسراء والضراء...

لم يكن التوحد المصيري بين أسرة نجية والفول المدمس اختيارياً أو طارئاً.. بل كان قسرياً وأبدياً بسبب ما تغرق فيه من فقر وبؤس وضآلة.. إذ كان البديل الآخر لمفارقة الفول هو التسول أو الموت جوعاً. فازدادت حميمية العلاقة الحياتية بين أسرة نجية وكافة مفردات الفول ومشتقاته وتصنيفاته. على ألوان الفول المتعددة.. نما أسامة المصري وشب عن الطوق، ولوحظ عليه النشاط الجم وكثرة الحركة وقلة البكاء، ولما اشتد عوده وانتصبت قامته وأكمل عامه الخامس.. صمم والده على إلحاقه بمدرسة ابتدائية، على مسيرة رُبع الساعة من منزله، لتلقي العلوم الأساسية ودفعه في كامل طريق ومراحل التعليم.. مهما كلف ذلك من تضحيات وصعوبات ومشقات.

رحب أسامة بأيامه الدراسية الأولى، وسعد بملابسه الجديدة وحذائه، وبتواجده وسط أقرانه وقضاء معظم الوقت في: اللعب وترديد الأناشيد والكلمات والأرقام...

بدت على أسامة دلالات مبكرة للاستيعاب التعليمي والتحصيل المدرسي. كما ظهر بوضوح اهتمامه بمواظبة الذهاب المبكر إلى الفصل، والانكباب على فروضه وواجباته عقب عودته إلى منزله. ساهمت نجية ومحمد المصري - قدر الطاقة - في مساعدة أسامة وتبسيط المعلومات له بما لديهما من خبرات ومعلومات بسيطة.. إلا أن أسامة قام بالمجهود الأكبر في: الإنصات لمعلميه ومداومة المذاكرة والانكباب على كتبه، يوماً بعد يوم، وعاماً بعد عام.. حتى أنهى مرحلته الابتدائية بتفوق واضح.. مكنه من الانتقال إلى المرحلة الإعدادية، بتشجيع من والديه وباقي أسرته في القرية، التي وصلت لها الأنباء السارة عن انتظام أسامة في

المدرسة وبراعته في تحصيل علومها. استطاعت نجية بحسن تدبيرها.. تقليل هم طعام أسرته الصغيرة بتربية الدجاج والأوز والبط والأرانب والكتاكيت، فوق سطح منزلها. وغذاءها الرئيسي من بواقي الأطعمة والقمامة والخضراوات الفاسدة أو غير الناضجة.. التي كانت نجية تفاجئ بوجودها وسط ما تشتريه من الباعة والأسواق. فضلت نجية بيع معظم دواجنها إلى الجيران أو زبائن الأسواق.. للاستفادة بثمنها في شراء لوازمها الأخرى وفي مقدمتها الملابس.. التي مثلت الهم الثاني لها بعد هم الطعام. وجود أسرة محمد بين جنبات مدينة يحتم عليه أن يبدو - ظاهرياً - كمعظم سكانها، أو على الأقل يرتدي ما يرتديه أقرانه وجيرانه ومن يضطر للتعامل معهم، وكذلك الحال لنجية وأسامة.. الذين امتثلوا - بلا وعي - للمثل القائل.. "كل ما يُعجبك.. وألبس ما يُعجب الناس..". تغذي بما تحب.. وارتدى من الثياب ما يُعجب الآخرين، لذا حرصت أسرة محمد المصري على اقتناء الملابس الجديدة البراقة، مع دوام غسلها وكيها دورياً، لاكتساب إعجاب واحترام الآخرين.. الذين لا يعرفون مصادر دخل الأسرة ولا ماذا يأكلون.. ولا بماذا يضحون في سبيل المحافظة على مظهرهم المقبول ورونقهم البسيط. كانت الملابس تبلى وتتمزق وتهترئ.. فتواصل نجية عمليات الإصلاح والرتق والإخفاء بكل دأب ونشاط.. فتطوي مدد ارتداء الملابس والتصاقها حول الأجساد المرهقة والمتبرمة في آن.

في اليوم السابق لبداية شهر رمضان المُعظم، خرجت أسرة محمد المصري إلى شوارع المدينة لمشاهدة مرور موكب "الرؤية".. وسط الزينات والمصابيح الملونة والأعلام المُزركشة والرايات المُرفرفة، تحيطها أسراب الحمام الأبيض والهتافات والأنشيد والأهازيج وغناء الكبار والصغار. تتقدم الموكب قوة منظمة من خيول الشرطة، تتبعها جماعة الموسيقيين الذين ينفخون في آلاتهم ويدقون على طبولهم ودفوفهم. يلي ذلك جماعات راقصة ومصفقة من طوائف الحرفيين والمهنيين مثل: الحدادين والنجارين والنحاسين والحلاقين والقصابين والعقادين والبوابين والخياطين والبنائين والفلاحين والتجار من كل صنف ولون...

يصطف الأهالي على جانبي مسيرة الموكب وتخرج النساء والفتيات في الشرفات والنوافذ وفوق أسطح المنازل.. يصفقن ويهتفن وينافسن الرجال والشباب في التهليل والتكبير والتسبيح والحمد لله والأدعية. أما الأطفال، فهم يتتقلون من جانب إلى آخر ويتخفون وسط كل طوائف الموكب، ومقلدين لهم في ترنحهم وتطوحهم وحدائهم.. وكثيراً ما يتعرضون للزجر والنهر.. والتوهان عن أهاليهم وذويهم.

ما أن ينتهي موكب الرؤية - الذي كان يتم عادة بين صلاتي العصر والمغرب - حتى يشرع الجميع في تبادل تهاني وتبريكات الشهر الفضيل. ثم يشرعون في تجهيز كل ما يلزمهم، وشراء كل ما يحتاجونه من طعام وشراب طوال أيام الصيام، مع النية الصادقة في التقوى والعبادة، والبُعد عن السفاهات والتفاهات والضلالات.

خلال ساعات نهار أيام الجُمع والأجازات والأعياد، كان أسامة ينضم إلى أقرانه لتمضية أوقات فراغهم في التباهي بما يعلمون والتظاهر بما لا يعلمون. وعندما يتشبعون من الجدل العقيم يلجأون إلى منافسات لعب الكرات الزجاجية (البلي) وكرة القدم والجري والنط فوق رقعات "الحجلة" أو القفز لأطول مسافة، وإبراز القوة بمصارعة الساعدين وتناطح الجسدين لإسقاط أحدهما أرضاً أو دفعه إلى خلف خط محدد مسبقاً.

عندما يتاح الوقت كانت صُحبة الأطفال تتوجه إلى منتزة قريب، للجري فوق حشائشه والاختباء خلف جذوع أشجاره أو تسلقها والاختباء بين أغصانها ووسط أوراقها العريضة. ثم تفتق ذهن الصُحبة إلى جمع أوراق الأشجار وتجميعها معاً.. لصنع تيجان وأحزمة وسط ودلايات متأرجحة حول أجسادهم النحيلة، ثم يقطعون فروع الأشجار النحيلة ويحولونها إلى حراب وسيوف للقتال بها.. بعد أن ينقسموا إلى مجموعتين مُتعاديتين تطاحنا للفوز بكنز وهمي خلف شجرة ضخمة أو أسفل أحد مقاعد المُنتزة.

نتيجة هذه الصراعات والمنافسات الطفولية.. كانت تحدث بعض الخدوش في الوجوه الغضة والأذرع والسيقان البضة.. فيتفنن الأطفال في البحث عن مبررات واهية يقدمونها لذويهم.. الذين يجزعون لمراى الدماء النازفة مهما كانت قليلة أو مُتخثرة. وينتهي الأمر بالنهر والزجر وشدة التنبيه بعدم العودة إلى ألعاب المنتزة أو المنافسات الخشنة. أما إذا ترافقت خدوش الجسم بخدوش في الملابس - وهو ما كان يتحقق عادة - فتصدح صفعات الغضب على الأصداغ المتوترة.. إطفاءً لنار الحسرة على ثمن الملابس ولهب الحيرة في تدبير غيرها.. ولأطفال يفكرون فقط في اللهو.. دون نظر لما يترتب عليه من خسائر مادية، لا تطوف بخيالهم الشجي والعاث في آن. وبمرور الأيام أدرك أسامة - غريزياً - ارتباط سيل السباب والصيحات - فوق رأسه - بعدد ما يحمله من خدوش، ليس فقط في وجهه، بل أيضاً في ذراعيه وفخذه وما يغطيهم من أقمشة صيفية أو شتوية.

أما في ليالي الأعياد والأجازات كان أسامة ورفاقه يفضلون التجمع في حلقات - وقوفاً أو جلوساً - لتبادل السمر والحكايات والفوازير والنكات.. وإذا كان الجو صحواً يسير الأطفال - فرادي وجماعات - في الشوارع الكبرى للمدينة، التي تضيئ أركانها بواجهات محلات: الذهب والفضة والأقمشة والعصائر والصيدليات والمكتبات وعيادات الأطباء والفاكهة والخضراوات.. وعاماً بعد عام كان أسامة ورفاقه يصلون إلى مسافات أكثر بُعداً عن منازلهم وأكثر التفافاً وتداخلاً.. فضولاً منهم للتعرف على كل ما يجهلونه من أماكن وبشر وميادين وشوارع وغوامض...

ومما صادفهم في ترحالهم المُنتلح: دور للسينما - صيفية وشتوية - وحدائق للنزهة ونوادي رياضية وساحات دينية، تبث فيها الخطب والمواعظ والإرشادات، وساحات أخرى للاستماع إلى القرآن الكريم وتفسير آياته وشرح الأحاديث النبوية، ثم ساحات لإقامة حلقات الذكر والزار وصدح الدفوف والصاجات. وفي بعض الأماكن كان يتيسر الأمر للأطفال للفرجة والمشاهدة وفي بعضها الآخر كانوا يطردون ويطاردون بالعصي والسباب واللعنات. بُهت الأطفال لما لاحظوه من انقسام المدينة إلى شرق وغرب بصورة فجأة. فالقسم الغربي - الذي يسكنونه - به كثير من المنازل القديمة والشوارع الضيقة القذرة. ورجاله يفضلون الملابس البدئية والشعبية، وكذلك النساء والأطفال. ويغلب على الجميع البؤس والعوز واعتلال الصحة وتجهم الوجه.. وعلى عكس كل ذلك يتميز القسم الشرقي من المدينة - إضافة إلى ما في جنباته من حدائق غناء - بميادين فسيحة وملاعب للكبار والصغار، وقاعات خاصة بالأفراح والليالي الملاح، وقوارب للنزهة واستراحات وأندية رياضية.. أُقيمت بكل عناية على ضفاف النيل.. وأكثر ما أدهش جميع الأطفال هو اكتشافهم وجود نادي لتربية وسباقات الخيول.. من كل سن وحجم ولون...

المرحلة الإعدادية

إنتصب عود أسامة محمد المصري وهو يسير بكل ثقة إلى مدرسته الإعدادية، متباهياً بدرجاته المرتفعة التي حصل عليها في العام الدراسي المنصرم، والتي مكنته من الالتحاق بأقرب مدرسة إلى مسكنه. الذي الجديد للمدرسة وحذاؤه الأسود اللامع، غمراه بمشاعر العزة والبهجة والتميز عن أقرانه الآخرين.. الذين أجبرتهم ظروفهم - غير السارة - على ممارسة الأعمال المهنية.. لإعالة أنفسهم وذويهم وهجر المدارس.

أسامة رأى بعضاً ممن كانوا يشاركونه اللعب والتجول والمزاح - خلال أشهر العطلة الأخيرة - يعملون كصبية في جوف: المقاهي ومحلات السباكة والحدادة والنجارة.. أسامة قارن - لا شعورياً - بين مظهرهم الرث ومظهره الأنيق والمهندم والنظيف.. فأرجع ذلك إلى إمكانياته الذهنية واستعداداته التعليمية التي مكنته من التفوق الدراسي.. وشجعت والديه على إلحاقه بالمرحلة الإعدادية. أسامة عاهد نفسه على شدة الانتباه داخل الفصل المدرسي، وعلى دوام المذاكرة اليومية والجادة.. حتى يحافظ على مظهره المحترم.. ولا يجد أي من أهله حجة لحرمانه من السير في طريق التعليم حتى نهايته المأمولة.. التي قد يصبح عندها: ضابط أو طبيب أو صيدلي أو محامي أو مهندس أو قاضي...

اتخذ أسامة مكانه البارز في طابور الصباح المدرسي ثم أنشد بكل حماسة: " مصر.. مصر.. أمنا.. وروحنا.. وعزنا.. وفخرنا.. ومجدنا.. نيلها الحياة.. غرة الإله.. شعبها القوي.. وجيشها الفداء.. مصر.. مصر.. أمنا.. وروحنا.. وعزنا..."

أحس أسامة بالقوة والعنفوان، وسرت داخله أرواح الآباء والأجداد من عهود الفراعنة العظام وحتى يومه هذا. أحس أسامة بمسؤوليات جسام تلقى على كاهله للنهوض - ليس فقط - بمعيشة ذاته وأسرته.. بل بعموم مصر المحروسة.. التي أشبعها مدحاً وفخاراً هذا الصباح، حول بيرق علمها المرفرف بحيوية فوق جميع الرؤوس.. فوق العلم أطلت السماء، ذات اللون الأزرق الفاتح والنقي كسريرة رضيع. تشبع أسامة بالمشهد المهييب الذي ضم سماء مصر وعلمها وأبناءها - فوق أرضها الطاهرة - يتحفزون لتلقي العلوم المختلفة، ويتشوقون إلى تطويعها لخدمة مصر والعالم أجمع.. كما كان عهد المصريين منذ عدة قرون.

إزاء ما أظهره أسامة من انكباب على الكتب والدفاتر والدروس المدرسية، أحست نجية بأن عليها بعض الواجبات تجاهه، فعمدت إلى عدم تكليف أسامة بأي عمل أو طلبات خارج أو داخل مسكنها. كما حرصت على توفير كل هدوء حوله، بالصمت التام في حضوره.. أو تركه وحيداً في غرفتهما الغربية. فتذهب نجية لإنهاء أعمالها المنزلية، في أرجاء السطح أو في جوف الغرفة الشرقية، مع الحرص التام على تجنب أي ضجيج أو صوت.. قد يصل إلى سمع أسامة، فيعيقه عن المذاكرة والتحصيل والفهم. السيدة نجية كانت تلجأ أيضاً للجلوس في صمت، أو النوم في أحد أركان الغرفة الشرقية عندما تفرغ من: الغسيل والطبخ والدجاج والأوز...

أما محمد المصري فقد نافس زوجته في توفير جو صحي هادئ لأسامة، بعدم إثارة أية مناقشات أو جدال في وجوده.. لدرجة تجنب تبادل الحديث مع زوجته ولو كان همساً. أما الغذاء والملابس فقد قدمت بكل سخاء إلى أسامة.. الذي صارحه والده بالقول..:

- مظهرك هو مظهرنا جميعاً.. وصحتك هي صحتنا جميعاً.. إلبس وتغذي جيداً.. ولا تشغل نفسك بأي شئ سوى مذاكرتك.. نجاحك الباهر في نهاية العام هو سترنا وغطاؤنا.. بعد ستر الله. أما السيدة نجية فقد أضافت..:
- ما دمت يا أسامة بخير.. فنحن أيضاً بخير. تفوقك هو ما يحمي أجسادنا - صيفاً وشتاءً - وليس الملابس. نجاحك من عام إلى آخر.. يشبعنا إلى حد التُخمة.. وليس كثرة الطعام من خبز وفول...
جفل أسامة من قدر التضحيات التي تقدم حوله.. مقابل جلوسه فوق مقعد مُتهالك والبهلقة في الكتب والدفاتر ليلاً ونهاراً.. فقرر التمتع في البهلقة لأطول عدد من الساعات.. حتى ولو انتهى الأمر بفقد لعينيه وذوبان جسده وتبخر رأسه.. ثم تحول كامل كينونته إلى أشعة ضوئية.. فهذا هو الثمن الذي سيقدمه لوالديه مقابل تضحياتهما.. التي توجتا أقصى طاقتهما واحتوتا كافة ما لديهما من: وقت ومال وجهد وإمكانات واستعدادات ورغبات وتمنيات...

داخل منزل أسامة المصري لم تكن توجد ساعة أو منبه، لمتابعة تغيرات الوقت دقيقة بعد أخرى. وكان والدي أسامة يكتفون بتحديد.. اعتماداً على سماع أذان الصلوات الخمس. وعندما يضطرا إلى الاتفاق على موعد ما يقولوا: "قبل صلاة الظهر.. أو بعد صلاة العصر.. أو عقب إنتهاء صلاة العشاء..". لكن هذه التفانين لم تُجدِ فتيلاً مع الذهاب اليومي لأسامة صباح كل يوم. فلجأ محمد المصري إلى التنصت على البرامج الإذاعية، التي تضج بها مقاهي الشارع خلال الفترة الصباحية.

يوم بعد يوم، وصباح في إثر الآخر.. استطاع محمد المصري تحديد أن قرآن الفترة الصباحية، يبثه المذيع من الساعة السادسة صباحاً حتى السادسة والربع، لتبدأ فترة تفسير الآيات القرآنية المذاعة، حتى الساعة السادسة والنصف. يلي ذلك فترة لإذاعة الأغاني الخفيفة، تستمر حتى الساعة السابعة. فيتم إيقاظ أسامة عند هذه اللحظة، فور توقف الغناء. وينشط أسامة في الذهاب للحمام وغسل وجهه وارتداء ملابس المدرسة، ثم تناول الشاي وبعض الطعام، ومراجعة حقيبة الكتب والدفاتر والأقلام.

وخلال ذلك تكون أذان الجميع مُكرسة كأطباق الرادار.. لالتقاط كافة مفردات الأصوات المذاعة في الشارع، لبرامج الفترة التي تبدأ في الساعة السابعة، بنشرة إخبارية مُختصرة، لتحركات كافة كبار الدولة..:

- ".. السيد رئيس الجمهورية سيُلقي خطاباً هاماً مساء الغد، السيد رئيس الجمهورية اتصل تليفونياً بأخيه ملك دولة س الشقيقة، السيد رئيس الوزراء يتفقد مخازن القمح، السيد وزير الصحة يطمئن على وجود الأمصال المضادة للأمراض الشائعة، السيد وزير التعليم يفاجئ مدرسة ص بالزيارة، السيد رئيس نقابة التمثيل يطالب ببناء دور جديدة للمسرح والسينما، السيد وزير الري يبشر البلاد بفيضان مبارك لمياه النيل، السيد سفير المملكة الأردنية الهاشمية يتجول في حدائق الجيزة برفقة زوجته وأولاده..."

وتستمر أخبار السادة، قصيرة وسريعة وعديدة الضرورة وفاقة لكل اهتمام حقيقي، حتى الساعة السابعة والنصف. وعند هذه اللحظة الحاسمة يغادر أسامة منزله.. بعد أن يوقف كل نشاطه داخله ويقطع صلته به.. فيعطيه ظهره متوجهاً إلى مدرسته بكل همة ونشاط، مُعتمداً على الله ثم إمكانياته ونواياه الطيبة. بكثرة الإنصات وتوجيه الأذان نحو مذياعات المقاهي.. تمكنت أسرة المصري من تحديد أوقاتها - بكل دقة - خلال الفترة الصباحية، أما خلال باقي ساعات النهار والليل، فهناك المآذن التي تعلن بصورة منتظمة ومؤكدة قدوم: الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر. وبالتالي تحدد شروق الشمس وانتصاف النهار ثم غروب الشمس وتمتع الليل والظلام حتى صباح اليوم التالي. وبين الشروق والغروب والصباح يكد ويكدح الجميع. في مواجهة انكباب أسامة على كتبه ودفاتره.. انكب والده محمد المصري على صحفه ومجلاته.

إذ أحس محمد المصري برغبة جارفة، في متابعة كل ما تعرضه الصحافة من أنشطة: سياسية واجتماعية واقتصادية وفنية ورياضية.. ولم يكتف بصحيفة أو مجلة واحدة.. بل عشق قراءة أكبر عدد منها. وإزاء قلة دخله المادي، اتفق محمد مع باعة الصحف والمجلات على تأجيرها منهم بنصف ثمنها.. مقابل بقائها في حوزته لأقل من يوم.

في حوالي العاشرة من صباح كل يوم، كان باعة الصحف يأتون إلى محمد المصري، لينتقي من حمولتهم ما يشاء من صحف: الأهرام، الأخبار، الجمهورية،...

ومجلات: المصور آخر ساعة، الجيل، الكواكب، الهلال،...

ويتقاضون منه نصف أسعار بيعها. ثم يعودون لأخذها منه قبل آذان المغرب. وخلال هذه الفترة يكون محمد المصري قد اطلع على أهم محتوياتها وحملق في أجمل صورها. وعندما كان أسامة يمل من دروسه، كان يطلع على بعض هذه الدوريات.. والتي وجدها أكثر جذباً وأشد تشويقاً من الكتب المدرسية. وشبه ما يقرأه على صفحاتها بمواضيع الإنشاء.. التي برع في كتابتها حتى أشاد به مدرسه.. وطلبوا منه قراءتها على زملائه بالفصل.. ليحذوا حذوه في النظام والنثر واللفظ والمعاني...

وشهراً بعد آخر أدرك أسامة، أن ما تحتويه الصحف والمجلات والكتب الخارجية.. لا يقل أهمية ولا قيمة عن محتويات المناهج المدرسية.. إن لم يُفقهها في الأغلب الأعم، حتى وصل إلى مرحلة المساواة في الاهتمام والنهم.. في تحصيل ما تعرضه الصحف والمجلات.. بما تقدمه الكتب المدرسية ذاتها. فأصبح أسامة يطلب من أبيه أن يأتي له: بجريدة "أهرام يوم الجمعة"، أو مجلة "المختار أو الهلال" لشدة انجذابه وعمق اهتمامه.. بما تحتويه من موضوعات حيوية ومعاني رفيعة ومعارف راقية.. تُشبع ذاته وتسمو بكيونته.. فيزداد ثقافته انفتاحاً على الحياة. التفوق الدراسي بدا واضحاً على أسامة، جنباً إلى جنب مع التفوق الثقافي وكثرة المعلومات العامة.. فأختير من قبل مدرسيه لعمل: مجلات الحائط ولوحات النصائح والإرشادات وقواعد السلوك القويم.. وكافة ما يخص الصحافة والإعلام والتثقيف المدرسي.. إضافة إلى الزيارات المنتظمة لمكتبة المدرسة.. والتي وجد أسامة داخلها عالمه المبتغي من الكتب العلمية والأدبية والثقافية والعامة. وإذا كان أباه يدفع نصف ثمن ما يقرأه من صحف ومجلات.. فإن أسامة يستطيع أن يقرأ أضعاف أضعاف - ما يقرأه أباه

- داخل جدران المكتبة مجاناً.. حتى تمنى أسامة لو يستطيع إدخال أبيه إلى قاع المكتبة - مُتخفياً - لينهل من محتوياتها ويوفر نقوده القليلة.. ويشترى بها طعاماً وملابساً له ولأخويه أحمد ومحمود الذين وصلوا.. بوصوله إلى نهاية المرحلة الإعدادية، ليشاركه أبوته وأموته ونعيمه المرتقب وعزه المُقيم. وجود غرفة شرقية ونوم أسامة - كالقتيل - عند كل منتصف ليل.. مكنا محمد ونجية من إنجاب شقيقين لأسامة، الذي كان - فيما يبدو - رغم نبوغه وتفوقه.. غير مُقنع تماماً لوالديه.. باستمرار ذكرهما وخلودهما الحياتي ودوام نسلهما الحيوي.

بينما تهبط السيدة نجية سلم منزلها وتصعد فوقه، وفي روحها وغدوها داخل الحارات القريبة، تعرفت على جاراتها وتبادلت معهن كثيراً من المعلومات عن تربية الأطفال وحياة القرية والمدينة، مع قدر لا بأس به من المعارف حول وجبات الطعام، وأفضل الطرق لإعدادها بأرخص التكاليف.. مما مكن نجية من تجنب وجبات الفول (الدمس) في بعض الأيام.. واستبدلتها بوجبات البطاطس التي نجحت في تقديم أطباقها إلى أسرتها في صورة.. بطاطس خام مُقطعة إلى شرائح أو أهرامات أو مكعبات صغيرة - وعليها بعض الملح - لتؤكل مع الخبز. أو بطاطس مسلوقة - عليها بعض الملح - ومقسمة إلى ثلاثة أو أربعة أجزاء. أو بطاطس مسلوقة جداً (مهريّة) وتنزع منها قشورها ثم تُقدم كشبه عجين في طبق - وعليها بعض الملح - لتؤكل بالخبز أو بالملقة. أو بطاطس مقلية في الزيت، بعد تقطيعها إلى أشكال طولية أو دائرية، في سُمك القلم الرصاص، وتؤكل مع الخبز بعد رش بعض الملح عليها. أو بطاطس مطهية في عصيدة الطماطم - أو قِطعها - مع الزيت وبعض الملح. وعندما تسمح الظروف المادية كانت نجية تستبدل الزيت بالسمن أو شحوم أو عظام البقر والأغنام. أما إذا تيسر الأمر ببيع المال كانت السيدة نجية تتمكن من طهي البطاطس باللحم أو الطيور.. ويكون هذا يوم عيد بالنسبة لأسرتها.. التي تنسى طعم اللحوم من شهر إلى آخر. إضافة إلى التنويعات البطاطسية، تعلمت نجية كيف تطهي الأرز باللبن وتقدمه كحلو (للتحلية) ساخن في صباحات الشتاء القارس أو لياليه الباردة، وتقدمه بارد خلال باقي فصول السنة، أما إذا أضافت إليه بعض السكر الناعم أو الخشن.. فإنه يحوز إعجاب كل من يتذوقه واستحسانه مع مدحه لشطارة نجية ومهارتها المطبخية. طريقة إعداد أقراص "الطعمية - الفلفل" خبرتها أيضاً نجية.. لكنها فضلت شراءها من محلاتها...

بالمقابل شرحت نجية لجاراتها طريقة إعداد.. الفطائر والخبز الفلاحي (القروي) والجبن الشرش والقديم

والمش...

المرحلة الثانوية

خلال شهور الصيف تعرف محمد المصري على محلات بيع الأحذية والملابس القديمة، وفي المقابل تعرف أسامة على محلات بيع الكتب القديمة.. إضافة إلى مكتبة البلدية ومكتبة مركز الثقافة.. جنباً إلى جنب مكتبات ومراكز بيع الكتب الجديدة - بطبيعة الحال - والتي تجنب التعامل معها تماماً.. واكتفى بمراقبة ما تعرضه من كتب ثقافية.. مع تأمل رونق أغلفتها وبهاء عناوينها.. ومتابعة شكلية لآخر إصدارات كبار الكتاب المصريين والأجانب. تمنى أسامة لو أن لديه أموالاً طائلة.. تمكنه من شراء كل ما يصدر من كتب في مجالات الشعر والقصة والرواية. ولكنه حاور نفسه.. بأنه حتى لو استطاع شراء كل ما يحبه من الكتب.. فأين سيضعها؟!.. إذا كان مسكنه المكون من غرفتين وسطح - مفتوح على السماء - يضيق بما فيه من بشر ومستلزمات وضروريات معيشتهم البائسة.

نهايةً حمد أسامة ربه على اهتدائه إلى كنوز المعرفة الثقافية في أرجاء المدينة. ولم يتبق له سوى أن ينظم وقته وحياته ويوائم بين ساعات المذاكرة المدرسية، ومواعيد فتح وغلق المكتبات، مع تخصيص يوم الجمعة لراحته الأسبوعية.. ولتفقد محتويات محلات الكتب المستعملة، عندما يتوفر لديه أثمانها.. من مصروف جيبه اليومي أو من نفحات الأهل والأقارب والجيران.. خلال أيام الأعياد والمناسبات المبهجة والكرم الحاتمي.

توقع أسامة غضب والديه.. في حالة معرفتهم باهتماماته الثقافية المتنوعة والمتراكمة.. فحرص على إخفاء أمره سراً بينه وبين نفسه وأقرب زملائه الذين يشاركونه نفس الاهتمامات المعرفية.. والذين اتفقوا على تبادل الكتب فيما بينهم، ثم التناقص في محتوياتها وفيما يحصلون عليه من صفحات الجرائد والمجلات الدورية. استطاع أسامة خلال هذه الفترة التعرف على كتب رواد الأدب المصري مثل: عباس محمود العقاد - طه حسين - على محمود طه - على أحمد باكثير - محمود تيمور - محمد فريد أبو حديد - يوسف السباعي - إحسان عبد القدوس - محمد عبد الحليم عبد الله -... وكذلك مشاهير الأدب العالمي مثل:

فيكتور هوجو - فولتير - يودلير - جان بول سارتر - ألبر كامي - وليم شكسبير - سومرست موم - تشارلز ديكنز - أنطوان تشيخوف - بيرل بيك - سيرفانتيس -... وغيرهم كثيرين.

وعن طريق القراءة والتأمل، ثم إعادة القراءة وكتابة الملخصات والهوامش والتعليقات، ثم الاندماج في النقاش والحوار مع باقي الزملاء فيما تمت قراءته.. استطاع أسامة تكوين ثروة معرفية ثمينة.. ساعدته كثيراً في التفوق المدرسي، كما عاونته بفعالية في فهم ذاته ومن حوله.. ثم البحث في مسببات ما يعانيه - ومن على شاكلته - من فقر وبؤس وحرمان وشقاء.. وسط مجتمع بعضه ثري. ما أن انتظم أسامة في دراسته بالمرحلة الثانوية حتى طالبه والديه برعاية شقيقه.. اللذين انتظما في دراستيهما بالمرحلة الابتدائية. فاضطر أسامة لتخصيص جزء من وقته وجهده وأوراقه ودفاتره وكتبه وأدواته المدرسية لشقيقه.. تشجيعاً لهما وتوفيراً لمال أبيهم.. الذي يكفي فقط لإطعامهم فول وفلافل (وطعمية). رغم الاعتماد الكامل لجميع أفراد الأسرة على تناول الخبز والملح كطعام رئيسي، والملابس القديمة والأحذية المستعملة.. التي تعتمد تسريب الطين والبلل إلى أقدامهم.. المفتقدة للجوارب السليمة أو حتى المرتقة.

لاحظ أسامة على شقيقه افتقارهم لنفس فهمه للقراءة وللكتب، مع ميلهما للاعتماد عليه في تفسير كل شئ.. فأحزنه ذلك.. إذ كان يأمل أن يكونا نسخة منه في البحث والتحصيل والفهم والاستعادة والاستذكار والاهتمام.. ما دام ثلاثتهم قد نشأوا في نفس الظروف المعيشية.. لكنها حكمة الله التي تخلق العابد والفاقد والطويل والقصير والأبيض والأسود والغني والفقير والذكي والغبي والصالح والطالح... وأخيراً أسامة وشقيقه.

أحس أسامة مبكراً بالمسئوليات الجسام الملقاة على كاهله. فهناك مستقبله التعليمي ومستقبل شقيقه، والمكتبات ومحلات بيع الكتب المستعملة والجديدة، وزملاء الدراسة وأسرته التي تزرع في الفقر والبؤس، ومجتمع متطاحن وتحديات غير سوية، وأيام قاسية وتقلبات حادة ومستقبل غامض لنفس طموحة خائضة في أحوال الفقر والجهل والمرض.

تهديدات الأعداء من الشرق والغرب.. غطت سماء مصر بالفزع والتوتر. أكثر من عدو لمصر المحروسة.. يهدد بغزوها واستعباد أهلها. منزل محمد المصري أصبح معرض للقصف، من طائرات الأعداء وصواريخهم وأسلحتهم الأخرى. غرفتا سطح أسامة.. توشكان أن تزولا من الوجود.. وجبات الفول والبطاطس لن تُقدما لأسامة وشقيقه.. كما لن يستطيعوا الاستمرار في مدارسهم لوقت طويل.. بسبب نُذر الحرب المُعلنة بصورة يومية في كل مكان. الذئاب الشرسة تهدد علانية بتجويع أسامة وصحبه.. قبل إرسالهم إلى العالم الآخر.. دون أسباب واضحة سوى حقد الغرب على الشرق واستمراء استعباده وامتصاص خيراته مجاناً.. كما فعل أجدادهم وكما سيفعل أحفادهم.

طُوب أسامة وزملاءه بالدفاع عن مصر المحروسة.. ضد الهجوم المتوقع غدراً من الأعداء.. الذين لن يفرقوا بين فقراء المصريين وأغنياءهم.. ولن يميزوا بين سكان سطوح المنازل وما أسفلها من طوابق.. وصولاً إلى الطابق الأرضي، الذي لن يكون أكثر أماناً من سطح المنزل. فصاروخ الأعداء - وكذلك قنابلهم - ستسقط من أعلى إلى أسفل.. لتتسف كامل المنزل وبعضاً مما يجاوره. كما أن الحرائق المصاحبة ستلتهم أطباق الفول والبطاطس.. بنفس شراهة التهامها لأطباق اللحوم والدجاج. أما إصابات طلقات الرصاص وشظايا القنابل.. فستخترق أجساد من يرتدون الملابس المستعملة.. بنفس شدة اختراقها لمن يرتدون الملابس الجديدة أو الفارهة.

مصر المحروسة تطالب جميع أبناءها - من جميع الطبقات - بالدفاع عنها.. عن حريتها.. عن كرامتها.. عن كينونتها.. عن وجودها ذاته. مصر المحروسة احتضنت جميع أبناءها دون تفرقة. مصر المحروسة لا ذنب لها فيما أرتكبه بعض الحمقى - من أبنائها - بتقليص عدد الأثرياء.. على حساب زيادة عدد الفقراء.. مع حرمانهم من اللحوم.. وإجبارهم على ابتلاع حبات الفول والبطاطس.. والتغطي بالأثمال.. دون بصيص ضوء في غد أفضل. دُعي أسامة وزملاءه للتدريب العسكري، تأهيلاً لهم لواجباتهم تجاه مصر. وزعت الملابس العسكرية الخاصة بطلاب المدارس، وهي ذات لون رمادي غامق (رصاص) وكذلك الأحذية العسكرية ذات الرقبة. حُددت ساعة يومية للتدريب على كل ما يخص الحرب من: دفاع وهجوم وأسلحة ومعلومات وخنادق ومتاريس وأسلحة بيضاء ورصاص وقنابل وخوذات ودروع وتقدم وتأخر وسير: بالثلاثيات والجماعات والفصائل والسرايا والكتائب والألوية والفرق والجيش والطائرات والبوارج والغواصات...

شمل التدريب أيضاً الاستخدام الفعلي وإطلاق الرصاص الحي من... البندقية" لي - أنفيلد" والرشاش القصير" بور سعيد" والرشاش الطويل" فاو" .. من الوضع واقفاً ثم مرتكزاً ثم - وهو الأهم هنا - إطلاق الرصاص من الوضع راقدًا، مع شرح واستيفاء ظروف ومزايا وعيوب كل وضع.. إلا أن أسامة وصحبه ارتاحوا كثيراً للوضع راقدًا.. لما يحققه من استرخاء للجسم وتمدد لكافة أطرافه - في الجهات الأربع - ثم قدرة فائقة للشهيق والزفير العفي.. وتركيز متميز للجهاز العصبي في اتجاه الهدف المعادي.. مع قفل العين اليسرى وكنم التنفس (النفس) لحظة الضغط على الزناد.

شمل تدريب أسامة أيضاً قواعد السلوك المنضبط في: القول والفعل والتفكير والتخطيط وأساسيات الضبط والربط في الجوهر والشكل.. الذي شمل المظهر الخارجي والملابس العسكرية. وبينما تمكن أسامة من الحصول على حذاء عسكري ملائم لقدميه، بعد عدة مبادلات مع زملائه.. لم يتمكن تحقيق نفس النجاح مع بنطاله وقميصه العسكريين. فطلب من والدته محاولة ضبطهما على جسمه، بالقص والحياسة (الخيطة) اليدوية، كما تفعل مع باقي ملابس الأسرة، لكن أدواتها البسيطة والصدئة.. لم تتمكن من إنجاز العمل المطلوب.. لأن نجية وجدت أن مقصها الصدئ عجز عن التعامل مع القماش العسكري السميك.. والذي بدا متحدياً لكل محاولات نجية الفاشلة.. في قطعه أو قصه أو غرز أي أبرة في نسيجه المتين.

وضح لنجية الحائكة الهاوية.. اضطرارها للاستعانة بجهود جارتها فردوس الحائكة المحترفة، والتي تسكن في إحدى غرف الطابق الأرضي بنفس منزلها. طلبت الأم من أسامة أن يهبط بملابسه العسكرية إلى السيدة فردوس، لضبطها على جسمه النحيل، مستخدمة ما لديها من مقصات وأبر كبيرة وآلة الحياكة (ماكينة الخياطة).. إضافة إلى خبراتها الحياتية في التخييط.

ذات مساء دافئ ذهب أسامة بصحبة ملابسه، إلى باب غرفة السيدة فردوس في الطابق الأرضي، المكون من عدة غرف جميعها مؤجرة لأسر غير ميسورة الحال. روائح الأطعمة الرخيصة تفوح من خلف النوافذ والأبواب المغلقة، وسط ضوء شاحب. المهمات الغامضة تخرج بين الحين والآخر من خلال الحافات المهترئة أو بعض الثقوب المنتشرة في كامل جدران الغرف، ذات الطلاء المصفر والمبقع في كل اتجاه.. كجلد مصاب بتشكيلات البهاق العشوائية.. أو كلوحة تشكيلية أنجزها رسام فاشل ومخمور. الرسائل المتبادلة بين فئران الشقوق وأكوام القمامة - عند الأركان - كانت تصل متقطعة إلى أذني أسامة.. الذي طرق باب السيدة فردوس متزهداً وقلقاً من مطالباتها له بثمن ما سوف تتجزه من قص وحياسة (وخياطة) بآلتها وأصابعها وخبراتها. فتح الباب ببطاء متعمد لمسافة قبضة يد، ولمح أسامة خلفه سيدة متوسطة العمر - تنظر متوجسة - وهي في ملابس منزلية خفيفة وقصيرة وحافية القدمين. اطمأنت فردوس إلى وجه أسامة - المؤلف لديها - فتبادلت معه تحية المساء، ثم زادت من فتحة الباب ورحبت بدخوله إلى حرمها.. ورحبت أكثر بلفة الملابس التي يتأبطها بكل عناية. شرح أسامة - بتلعثم - كل التصليحات والتنظيحات التي يريدها لبنطاله وقميصه العسكريين، واختتم ملاحظاته بالقول..:

- لا أريد ملابس ضيقة (محبكة) عليّ ولكن أريدها أن تستوعب طبقة أخرى من الملابس داخلها.. حتى أتمكن من استعمالها صيفاً وشتاءً..!!

تفهمت فردوس كل ما هو مطلوب، ثم أخذت بعض المقاسات من صدر وظهر وخصر وعجيزة وفخذي وقامة أسامة، وقارنتها بمثيلتها في الملابس العسكرية. وشرعت على الفور في تتابعات تضبيبها: قصاً وقطعاً وخياطة وحياقة...

وخلال ذلك الوقت جلس أسامة يراقبها حيناً، ويراقب محتويات غرفتها الوحيدة حيناً آخر، والتي ضمت في ثلث مساحتها سريراً عريضاً، وفي باقي المساحة توزعت - كيفما أُنْفَقَ - مواعين ومفردات طبخ بدائية، مشجبين أو ثلاثة لتعليق الملابس، صناديق حفظ الملابس، مقعدين، آلة الحياكة وملحقاتها، عدة رفوف خشبية ومرآة كبيرة على الجدار المواجه للسرير...

أسامة يعلم أن فردوس متروجة ولها طفلين، لكن ثلاثتهم كانوا غائبين خارج المنزل.

خلال نصف ساعة أنهت فردوس التعديلات الرئيسة، على ملابس أسامة العسكرية، فطلبت منه تجربتها فوق ملابسه العادية.. فوجدها لائقة. وبدأت مشاعر الرضا على وجهه الغض.. الذي استطابت فردوس مسحه براحتيها بين الحين والآخر، كما استطابت تلامسها مع جسد أسامة. وما لبثت أنفاسهما أن اختلطت وتلاحقت.. بعد أن ضمت فردوس أسامة في أحضانها الدافئة.. وأشبعته تقبيلًا...!!.. يوغت أسامة بما حدث، لكنه استمرراً الاستسلام لذراعيه وتديي فردوس.. اللذين احتواياه بكل رقة وعطف وحنان. ثم غاباً معاً في قبلة فمية طويلة.. أحس خلالها أسامة بالجدران والأثاث تدور من حولهما.. بتباطئ.. ثم بتسارع صعد بهما إلى خمائل خضراء، تحف بأنهار صافية المياه، وتحيطها طيور ملونة، بعضها صغير وبعضها كبير، بعضها يغني وبعضها يُطلق أنغام موسيقية حاملة.. وبعد لحظات انتبها مما هما فيه من وجد وهيام فهمست فردوس..:

- تذوقت طعم السكر في فمك.
- وأنا استحلبت العسل من تقبيلك.
- لا تُخبر أحد بما حدث بيننا.
- أبدأ.
- سأكمل حياكة ملابسك مساء غداً.
- كم تطلبين من نقود...؟!
- لا شئ.. الناس لبعضها.

صعد أسامة إلى غرفته حائراً وقلقاً مما حدث، وهىء له أن كل العيون القابعة خلف جميع الأبواب والنوافذ والغرف الأخرى - التي تتظاهر بأنها مغلقة - قد شاهدت قبلاته وأحضانته ومداعباته، وأن خبر ذلك سينشر منذ الصباح الباكر في كافة أرجاء المدينة، ثم يصل سماعاً إلى قريته البعيدة، وخلال يومين - أو أكثر قليلاً - سيقراً ذلك في الصحف الجديدة والقديمة على السواء. جلس أسامة إلى كتبه ودفاتره، ولكنه لم يستطع التركيز في شئ ولم يستوعب ما يطالعه.. فشرع في الفرجة السريعة على ما تحتويه كتبه من: صور وخرائط وفهارس ورسوم بيانية وأشكال توضيحية.. حتى لا يلفت نظر والديه لحالته المستجدة. عندما انتصف الليل

سارع أسامة إلى مخدعه وراح في نوم عميق، تتبادلته عدة ألوان مبهجة وينتشي سماعه بأنغام فرحة. صباح اليوم التالي بدا الأمر لأسامة كحلم لذيذ، يبعث في كينونته بمشاعر السرور، ويرسم على وجهه ملامح السعادة المكتومة والفرح المُخبئ.. فقضى نهاره بمدرسته قانعاً بنفسه، وراضياً عن دنياه التي منّت عليه ببعض المتعة الطائفة وتمنى النهل منها لوقت أطول.

عاد أسامة من مدرسته، وما أن وطأت قدماه غرفته حتى شرع في استعجال قدوم الليل.. ليعود إلى فردوس مرة أخرى. وخشي أن تسبقه والدته إليها - لأي سبب - فتبطل حجته في الذهاب بنفسه إلى الطابق الأرضي. حرص أسامة على عدم ذكر أي شيء عن ملابسه.. التي تنعم بلامسة أصابع فردوس وربما بعضاً من فخذيهما وصدرها.. وتمنى لو أنه موجود داخل هذه الملابس ذاتها.. بينما فردوس مُنهمكة تماماً في تضبيبها وحياتها.. فلا تنتبه لمتعة ملاستها اللذيذة.

تحركت الشمس نحو المغرب ببطء كريحه، ذهب ضوء النهار وغمر الكون الظلام.. فسارع أسامة بتذكير والدته عن وجود ملابسه بالطابق الأرضي.. وبحاجته لها في صباح الغد، فوافقت على نزوله لإحضارها. لم تنس نجية أن تذكر ابنها بعدم تضبيب الوقت في نزول وصعود السلم والمكوث عند فردوس كما حدث بالأمس.

عم الظلام الفسحة الموجودة بالطابق الأرضي، لاحتراق لمبة الإنارة الوحيدة بها. وعلى الضوء المتسرب من خصائص النوافذ والأبواب المغلقة.. اهتدى أسامة إلى باب غرفة فردوس.. الذي فتحته على اتساعه بمجرد سماعها لأول طرقة على خشبة المُهترئ غمر ضوء الغرفة كامل جسد أسامة فبدا مُبهراً وجذاباً.. وما أن خطا إلى الداخل حتى فغمت أنفه الروائح الشهية للأرز المطبوخ باللبن.. والذي لمح داخل وعاء كبير فوق منضدة مجاورة لسرير فردوس، التي أحكمت إغلاق بابها بالترباس.. ثم سارعت باحتضان أسامة وتقبيله - كيفما أنفق - وداعية له لمشاركتها الطعام الدافئ.. بعد أن أخبرته بتأخره في الحضور إليها. جلست فردوس بجوار أسامة على حافة سريرها يتناولان الأرز باللبن. ولما أتيا على آخر ملعقة منه أطفأت فردوس نور غرفتها.. احتضنت أسامة ثم طرحته فوق سريرها.. نضت عنهما كل ما يرتديان.. اعتصرته عارياً بكل جموحها.. تقلبت أعلاه وأسفله وعلى جانبيها.. حتى قضت منه وطراً.. فهدأت وعمتها السكينة.

خلال كل هذه التتابعات الوطرية.. كان أسامة مبهوراً بما يحدث كما كان ليس فقط مُستمتعاً به.. بل أيضاً راعباً في استمراره لأطول وقت ممكن. لذا ما أن سارعت فردوس بارتداء ثيابها ومغادرة السرير وإضاءة نور غرفتها.. حتى تباطئ أسامة في تقليدها. أحضرت فردوس ثياب أسامة العسكرية مُخبرة إياه.. بأنها كانت جاهزة منذ الليلة السابقة. ثم شددت عليه بعدم الحديث عما دار بينهما - لأي أحد - كما طلبت منه العودة لزيارتها كلما انشغلت نجية في أعمال البيت من: غسيل وطبخ وخبيز ونظافة.. وذهاب للتسوق.

وعدت فردوس فتاها أسامة.. بأنه إذا ما سارت الأمور على ما يرام - ولم يسمع أحد - فإنهما سيأكلان معاً الكثير من الأرز باللبن.

تعثرت خطوات أسامة وهو يصعد سلم منزله. عند أول درجة من السلم كان وجهه فردوس وفحيح أنفاسها وأحضانها تملأ كينونته وتدغدغ مشاعره وتشجي أحاسيسه.. إلا أن كل هذه المفردات المُنتَشِية أخذت تتلاشى تدريجياً.. بصعوده درجات السلم والتي أفضت به إلى السطوح.. ليجد في مواجهته وجه والدته المنزعج والمقطب الجبين.. والتي سألته..:

- ما الذي أخرجك كل هذا الوقت..؟!.. هل كانت فردوس تخترع الملابس أم تضبطها..!؟!

استيقظ أسامة من حلمه الجميل وخرج من فردوسه المعطر بروائح اللبن.. على ذكر والدته للملابس، والتي كان يحملها بكلتا يديه أمام صدره كطفل رضيع مُستغرق في نوم عميق دون حراك. زاد أسامة من رفع ملابسه العسكرية مقرباً إياها من عنق والدته.. قائلاً بتلعثم..:

- السيدة فردوس أصرت على كواء الملابس قبل أن تسلمها لي.

نظرت السيدة نجية إلى حُسن منظر وجمال وترتيب ورونق الملابس العسكرية، التي بدت لامعة ومشدودة ومتماسكة.. وكأنها من (البلاستيك) اللدائن السمكية. قل غضب نجية - بل زال تماماً - عندما تذكرت فجأة أنها لم تدفع أي شيء، مقابل عمل فردوس ومجهودها مع أسامة وملابسه الليلتين مُتتاليتين. تفحصت نجية ملابس ابنها وسألته..:

- ألم تذكر لك فردوس كم تريد من نقود..!؟!

- كلا.. لم تطلب نقوداً.

- صباح الغد سأعطيها إحدى دجاجاتي السمينات.

بعد تناول عشاءك اهتم بواجباتك المدرسية ولا تنام قبل إنهاؤها.

علق أسامة ملابسه العسكرية على المشجب، ثم غاص في صفحات كتبه ودفائره.. والتي كانت تعرض له وبكل وضوح وجه فردوس ومفاتها - بين صفحة وأخرى - متضافرة مع مخيلته وذاكرته التي كانت تسمعه أيضاً - بين الفينة والفينة - غنج فردوس وفحيحها السريري.

صباح اليوم التالي نهض أسامة من نومه مُتثاقلاً، اغتسل وارتدى ملابسه العسكرية في عجل، فبدا مظهره أكثر رونقاً وقامته أكثر اعتدالاً، وهو يدب بحذائه العسكري فوق أسفلت الطريق، متوجهاً إلى مدرسته. وعندما وصل إليها وجد كثيراً من زملائه يرتدون نفس زيه وبنفس هيئته.. فغمرت أسامة مشاعر الألفة والغوص والامتزاج في المجموع العام والأعم لزملائه.

بتوالي الأيام ازداد عدد الطلاب الذين يحضرون إلى المدرسة بالزي العسكري.. رغم عدم وجود حاجة يومية فعلية له.. حتى اضطرت جميع المدارس الثانوية بالمدينة إلى فرضه كزي رسمي لدخولها.. بعد أن لجأ جميع طلاب الطبقة الوسطى إلى ارتدائه الدائم، سواء في وجود تدريب عسكري أو في وجود تدريب رياضي.. باستثناء بعض أبناء الأثرياء الذين كانوا يتأففون من ملامسة الملابس العسكرية الخشنة لأجسادهم الرقيقة.. وكان أكثر ما يثير انزعاجهم هو الحذاء العسكري الثقيل الوزن وذو الرقبة الطويلة والخانقة لأقدامهم الناعمة. ولما كان معظم مديري المدارس ومعلميها من الطبقات الوسطى والدنيا.. فقد أتفق الجميع على منع الطلاب الذين لا يرتدون الزي العسكري الكامل - من الرأس إلى القدم - من دخول المدارس أو التواجد داخل أسوارها لأي سبب.

اختفى جميع الطلاب داخل الزي العسكري.. فاختفى التمايز الطبقي بينهم.. وأصبح التفرد الوحيد المقبول هو.. العلم والمعرفة والتحصيل الجاد والأخلاق الكريمة والسلوك المنضبط.. تحت راية مصر المحروسة التي تخفق فوق الجميع بكل حيوية، وتطالبهم ببذل الغالي والنفيس في سبيل.. مجدها وعزها وكرامتها وحياتها ودوامها وخلودها.. كما كان الحال دائماً منذ بدء الخليقة، وكما يجب أن يكون في حاضرها المشرق.. وسيكون في مستقبلها المأمول على أيدي المخلصين من أبنائها وحلفائها وأصدقائها.

طابور الصباح المدرسي لم يعد خليطاً من الألوان المزركشة كثياب مهرجي السيرك وطرايرهم المرتخية.. بل ساد الطابور الحزم والجدية والضبط والربط أسفل اللون الرمادي الغامق (الرصاصي) بلون الرصاص. وعندما ازداد نباح الأعداء وأصبحت الحرب متوقعة في كل لحظة.. ارتدى مدير المدرسة ومعلموها وجميع العاملين - داخل أسوارها - الملابس العسكرية، كما كثفت التدريبات ووزعت واجبات.. الحراسة والتفتيش والفحص والتدقيق والدفاع المسلح على الجميع.. الذين كثفوا هدير أصواتهم في الهتاف كل صباح قرب الساعة الثامنة..:

- عاشت مصر حرة.. عاشت مصر حرة - تحيا مصر.. تحيا مصر.. عاشت مصر حرة.. عاشت مصر حرة...

ثم يتوزع طابور الصباح إلى فصول وصفوف المرحلة الثانوية، والطلبة يسرون بكل نشاط وينشدون..:

- الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر فوق كيد المعتدي.. الله للمظلوم خير مؤيد.. بلدي ونور الحق يسطع في يدي.. قولوا معي.. قولوا معي.. الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر...

- الله.. الوطن.. بالأمر.

ويغلف كل هذه الأناشيد الحماسية، الموسيقى العسكرية النحاسية، المتناغمة مع قرع طبول الحرب ودفوف القتال. خلال الأجازه الصيفية التي أعقبت نهاية الصف الأول الثانوي، انضم أسامة إلى فرق الخدمة العامة المكونة من الطلاب المتطوعين - أمثاله - وبعض المدرسين. وتكلف هذه الفرق بتقديم خدمات مجانية للأهالي مثل..: محو أمية الكبار، مساعدة الصغار في التعليم وفقاً لصفوفهم المدرسية، تعليم الشباب بعض الحرف اليدوية، التوعية الصحية، شغل أوقات فراغ الشباب فيما يفيدهم، تعليم اللغات الأجنبية وتقويتها للراغبين فيها، إقامة مسابقات رياضية وفنية وثقافية بين الشباب، نظافة البيئة المحيطة، تعميق العلاقات الاجتماعية وحل مشاكل الأهالي، توعية السكان بحقوقهم وواجباتهم نحو الدولة..

أختيرت مدرسة ابتدائية كمركز لممارسة أنشطة الخدمة العامة في الريف القريب. أخلت الفصول من مناضد ومقاعد الدراسة، وحل محلها سراير حديدية ذات طابقين، ثم جهزت بالمفروشات والأغطية الملثمة لمعيشة المتطوعين داخلها. أخذ مكتب مدير المدرسة لإدارة جميع أنشطة الخدمة العامة. جهزت إحدى الغرف كمطبخ وأخرى كمخزن للمواد الغذائية واحتياجات المتطوعين، وكان الطباخون منهم أنفسهم بطريقة تناوبية.

قرب الساعة صباحاً يدق جرس المدرسة للاستيقاظ وممارسة الرياضة الصباحية ثم تناول وجبة الإفطار حتى الثامنة.. فيصطف الجميع في طابور " التمام" وبعده توزع المهام والأنشطة على المتطوعين.. لممارستها بكل حيوية ونشاط حتى الساعة الثانية بعد الظهر.. فيعود المتطوعون لتناول وجبة الغداء. ثم فترة راحة حتى الساعة السادسة مساءً فتمارس الأنشطة الترويحية والترفيهية حتى الساعة العاشرة ليلاً موعد نوم الجميع، بعد أن استنفذوا كل طاقتهم في كل ما يُفقد.

سعد أسامة بفعل المشاركة مع أقرانه.. في تقليل مشاكل الريفيين، وفي التحاور معهم ومعرفة ما يعانونه.. من فقر وجهل ومرض.. تمهيداً لتخفيف آلامهم وتضميد جراحهم النفسية وجبر كسورهم الاجتماعية.. مع إقناعهم بأن من يعيشون في المدينة يحرسون على التواصل.. مع من يعيشون في الريف قلباً وقالباً.. يهدف التعاون والتعاقد على رفعة مصر الخالدة. وفي نهاية الصف الثاني الثانوي، اشترك أسامة في معسكر "للفتوة" تحت إشراف قيادة عسكرية.. وذلك لحسن ضبطه وربطه طوال العامين الماضيين، وكذلك لتفوقه في (ضرب النار) بالأسلحة القتالية المعتمدة لجيش مصر الباسل. الحياة داخل المعسكر كانت أكثر انضباطاً وشدة من فرق الخدمة العامة، التي زاد عليها تكليف أسامة بنوبات حراسات ليلية" شنجي - برنجي - كنجي".. والتي تشمل كل منها أربع ساعات من فترة الليل.. التي تبدأ في الساعة السادسة وتنتهي صباح اليوم التالي في الساعة السادسة.. مع حمل البندقية الـ" لي أنفيلد". أما ساعات النهار فقد كانت تُقضي في التدريبات العسكرية النظرية والعملية والبيانية. وفي نهاية المعسكر تم اختيار الطلاب الممتازين والمنضبطين عسكرياً وإدارياً.. لتحسين خبراتهم التي اكتسبوها خارج مدينتهم، في معسكرات أخرى أكبر حجماً وأكثر تأهيلاً في المدن المختلفة مثل:.. القاهرة - الإسكندرية - مرسى مطروح - بور سعيد - السويس - الأقصر - أسوان -...

ارتاح أسامة كثيراً لحياة المعسكرات، سواء كانت لأهداف الخدمة العامة أو العسكرية.. أو أية أهداف أخرى مُخبأة. فبين جنباتها ينشط جسد وعقل أسامة للحياة المُتحدية والحيوية.. التي أثمرت جسده الرياضي وقوامه المُعتدل ومظهره المقبول.. إضافة إلى كم لا بأس به من:.. المعلومات - المعارف - المهارات - الخبرات الثقافية والحياتية - التنظيم والإدارة - الضبط والربط - الأخلاقيات -...

وأخيراً - وليس آخر - الغذاء الجيد. فعندما قارن أسامة ما يأكله ويشربه داخل المعسكر - مع حساب ثمنه - وجده أضعاف أضعاف ما هو متوفر له في منزله. أما المزايا الأخرى من:.. أعطية ومفروشات وجدران ومياه نقية وأدوات المائدة وهواء نقي وأرض صلبة وسلالم غير مهترئة ونظافة عامة وظروف صحية ومواعيد منضبطة والتزامات محددة وأوقات ثمينة.. فهي حتماً مُنفردة. ومن هنا أصبح أسامة هو "الحاضر - الغائب" في جميع المعسكرات.. فقلما يتخلف عن أحدها.

في منتصف العام بالصف الثالث الثانوي، نظمت المدرسة رحلة زيارات عامة لمدن: القاهرة - الإسكندرية - الأقصر - أسوان.. رفض محمد المصري دفع نفود الرحلة وقال أنها مكلفة ومضيعة للوقت.. الذي يجب على أسامة استغلال كل دقيقة فيه للمذاكرة وليس للسياحة الفايري (مشتقة من الفقر). ثم نبه على أسامة بتجنب مطالبتة بأي نفود.. لأن ظروفه غير متيسرة، ويكفيه أن يجد طعامه وشرابه ومأواه.. مقابل انكبابه على الكتب والدفاتر ليل ونهار.. حتى تتحسن ظروفه فيسيح في البلاد على حسابه الخاص وليس على أكتاف غيره. قلب أسامة أمر الرحلة السياحية على كل وجه، نظر إليها من كل اتجاه.. وفي النهاية وجد أن أباه على حق.. فما هي هذه الرفاهية التي ستحول أسامة - بين يوم وليلة - من ابن بار لمعسكرات الخدمة العامة والتدريب العسكري إلى سائح أجنبي..؟!

وزمجر محمد المصري في وجه أسامة..:

- لا ينقصنا إلا أن تطالبني بشراء آلة تصوير (كاميرا)!!!.. من أجل ذكرياتك السياحية.. ألا ترى ما نحن فيه من عوز وضنك..؟!

المرحلة الجامعية

واصل أسامة المصري جهوده التعليمية في التحصيل والاستيعاب والمذاكرة، ومرافقة كُتبه ودفائره لساعات طويلة، في منزله أو في طريق الكورنيش أو في المتنزهات.. وبعض الأحيان في أركان المساجد. وبنهاية العام نجح أسامة بتفوق مكنه من الالتحاق بكلية الهندسة.. التي تبعد عن منزله بمسيرة ربع الساعة فقط. اليوم الجامعي الأول هو يوم التعرف بين العريس أسامة محمد المصري وعروسه كلية الهندسة، مُجسدة في عدة مباني أَسْمَنِيَّةٍ من ذات الطوايق الأربع - مُغلقة بالطوب البني اللامع ومسطحات الزجاج على الأبواب والنوافذ. تضم المباني.. قاعات الدراسة - مُدرجات المحاضرات الخاصة بالدكاترة والأساتذة - فصول الدراسة (السكاشن) الخاصة بالمعدين - المعامل - الورش - عُرف الحراسات الأمنية - مكاتب السادة من حملة درجة الدكتوراة وشهادات التفوق العلمي - مكاتب الجهاز الإشرافي والإداري - قاعات رسم اللوحات الهندسية - قاعة القراءة والإطلاع - المكتبات الضخمة.. ورفوفها تحمل أطنان من المراجع العلمية والهندسية من دول الشرق والغرب.. "جراجات" مواقف السيارات والدراجات من كل شكل ولون. يفصل المباني طرق وممرات أُجيد تعبيدها، وتحفها على الجانبين أشجار "الجازورينا والكافور" والنباتات المزهرة ذات الألوان المُبهجة...

بدا كل شيء مُنظماً ومُرتباً ومُعبراً عن وجود عقول جبارة متوارية.. تخطط وتنظم وتدبر وتدقق وتنفذ وتُجز وتدرس وترجع وتمنح وتُعطي وتبذل وتبتكر وتتفرد وتتميز وتُبدع وتسهر وتناقش وتأخذ بوجهات النظر وتتبادل الآراء وتتفق وتختلف وتتفص وتجتمع وتمعن وتتأمل ثم تمعن في الإمعان لتتقد ولتطور ثم تتقد النقد لتسمو وترتفع.. وفي كلمة واحدة "تهندس" مُستهدفة وجه الله وخير الوطن.

عقب الجولات الأولى داخل الأقسام والإدارات، تجمع الطلاب من جميع الكليات داخل بهو الاحتفال سرادق ضخم للاستماع إلى كلمة السيد الأستاذ الدكتور رئيس الجامعة الذي قال..:

- أبنائي الطلاب.. بناتي الطالبات.. أرحب بكم في جامعتكم العريقة التي أنجبت "س" في مجال العلوم الطبية و"ص" في مجال العلوم الكيميائية و"ع" في مجال العلوم الرياضية.. وغيرهم كثيرين. فأرجو أن تقننوا بهم وبهن لتفوقهم ولتفوقهن قلباً وقالباً، خُلقاً وعلماً. مصر في حاجة إليكم لتنهض ولتخلد ولتتميز وسط قريناتها. جهود ضخمة بُذلت لفائدتكم ولدراستكم ولراحتكم. لا نطالبكم بالمستحيل.. نطالبكم فقط ببذل أقصى جهودكم في التحصيل والدراسة بكل جدية، والمحافظة على كل ما تلمسه أيديكم.. ليبقى لمن بعدكم ولمن بعدنا. مكتبي مفتوح لكم.. وأنا والدكم جميعاً قبل أن أكون رئيساً للجامعة. مشاكلكم ستُحل تدريجياً بالاتحاد والنظام والعمل المُضني. جامعتكم مفتوحة على المجتمع، نؤثر فيه ويؤثر فينا. لن ننزل عن أهلنا هناك خارج حدود الجامعة، لن ندير لهم ظهورنا بحجة البحث والتركيز في الأبحاث. يوم انغلاقنا على أنفسنا هو يوم موتنا المشؤم. تعاونوا معاً وضعوا أيديكم في أيدينا لرفعة مصرنا الغالية... والله الموفق.

أنصت أسامة بكل اهتمام لكل كلمة تصل إلى أذنيه المشرعتين في اتجاه مكبرات الصوت التي بثت في الجهات الأربع للبهو. كانت العبارات تصل كأصوات كهنوتية مقدسة.. لا تقل جلالة عما كان يسمعه داخل المساجد الكبرى.

كانت الكلمات لا تقل مهابة عن دعوات وابتهالات كبار رجال الدين في المواسم والأعياد، أو خطب القادة العظام والملوك الأكثر عظمة.. والتي أشجت كينونة أسامة فيما يشاهده من أفلام سينمائية عالمية أو يقرؤه من كتب أدبية.. عالمية أيضاً.

تلقت أسامة حوله فشاهد آلاف من الطلبة والطالبات في حالة الخشوع الغامرة للجميع، فتحسس عظم المسؤولية الملقاة عليه في تحصيل العلوم الهندسية.. تمهيداً لتحويله من طالب حاصل على شهادة الثانوية العامة بتفوق.. إلى مهندس سيحصل على " بكالوريوس هندسة القوى الميكانيكية" بتفوق أيضاً - باعتبار ما سوف يكون - خلال بضع سنوات. وإذا كانت رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة - كما يقول المثل الصيني - فإن رحلة " بكالوريوس الهندسة" قد بدأت بالفعل بخطاب السيد الأستاذ الدكتور رئيس الجامعة الموقر والوالد المُبجل - في نفس الوقت - كما أشار سيادته بذلك في ثانيا عباراته الرقيقة وكلماته المُنتقاة.. ليست فقط بكل عناية.. بل أيضاً بكل حميمية.

إذا كان الحزم هو ما طبعته الأيام على نفس أسامة، وإذا كانت الجدية هي ما بصمته الليالي على طباعه، وإذا كانت الأيام والليالي هي التي أجلست أسامة في مواجهة السيد أ.د رئيس الجامعة - اليوم - لا كرئيس يخاطب طالباً.. بل كمسئول حاضر يكلف مسئول مستقبل بمهمة مُحددة ومقدسة - في آن - أو كمسئول كبير يخاطب مسئولاً صغيراً وجهاً لوجه.. فإن أسامة هو الأجدر لتلقي هذه المهمة الوطنية.. وهو الأنسب لتنفيذها على خير وجه.. بمشاركة باقي زملائه من الطلبة والطالبات.. الذين يتمللون الآن من طول جلوسهم فوق المقاعد الخشبية الخشنة، التي اعتاد أسامة على الالتصاق بها لعدة ساعات.. داخل معسكرات الخدمة العامة والتدريب العسكري.. بينما بعض ممن حوله - اليوم - يتأففون من ملامستها لمؤخراتهم الغضة ولمؤاخرتهم البضة. حقاً جهود الخدمة العامة والتدريب العسكري لم تذهب سدى.. فاليوم تتألق ثمارها على وجه أسامة محمد المصري.. وأمثاله كثيرين.

كلمة "الهندسة" أخذت تتردد كثيراً على أسماع السيدة نجية، فأسامة ينزل في الصباح الباكر ليذهب إلى كلية "الهندسة". وفي الليل يعود أسامة من كلية "الهندسة". وطوال الليل يذاكر أسامة في مواد وكتب "الهندسة". كما طلب أسامة من والده تدبير بعض المال لشراء أدوات "كلية الهندسة" ودفاترها ولوحاتها الخشبية والورقية والمثلثات البلاستيكية وعدد لا بأس به من أقلام وسنن الرصاص والتحبير وبالطو أبيض لمعمل الكيمياء وأفرول غامق اللون لورش كلية "الهندسة".. فتشجعت نجية وأخبرت كل أقاربها ومعارفها وجيرانها بأن ابنها أسامة قد أصبح "مهندساً" - بين يوم وليلة - وكذلك فعل محمد المصري...!!.. وكان السؤال الذي غمر كينونة الجميع هو..:

- كم سيقبض أسامة من كلية "الهندسة" في نهاية كل شهر..؟!

ووجمت الوجوه التي صعب عليها الفهم.. بأن أسامة ما زال طالباً...!!! وأن كلية الهندسة لن تُعطيه راتباً شهرياً.. بل هو وأهله الذين سيتولون الصرف المادي على كلية الهندسة لبضع سنوات حتى ينال شهادته التي ستُمكنه بعد ذلك من رؤية الجنيهاً الحمراء والخضراء.. وفقاً لمجهوده ونصيبه.. وما كتب له من رزق في أعالي السماوات.

ضمت كلية الهندسة قلة من الطالبات، حظين باهتمام الأكثرية الغالبة، ليس فقط من الطلاب.. بل أيضاً من معظم كوادر الدراسة والإدارة والإشراف، بل أن بعض المعيدين شرعوا في خطوبة الجميلات منهن في سنواتهن الدراسية المبكرة، وهو ما لم يستطيعه زملاؤهن من الطلاب.. مهما تزلفوا وعشقوا وأحبوا. فانصرف الطلاب إلى التحصيل والدراسة والتفوق العلمي على الطالبات.. الذي يمكن بعضهم من التعيين داخل الكلية معيدين.. فيعيدون الكرة في الارتباط مع طالبات الدفعات الجديدة.. التي تضم أيضاً طلاباً طموحين إلى الحب والعشق والارتباط.. فيتحولون إلى طريق التفوق الدراسي.. لضيق ذات يدهم - في الأغلب الأعم - وللهرب من المسؤوليات المبكرة. كل صباح يذهب أسامة متأبطاً كُتبه ودفاتره، وحاضناً أدواته الهندسية لتلقي المحاضرات في "مدرج" صفه، والذي هو عبارة عن قاعة فسيحة وفخمة - مضاءة ليلاً ونهاراً - وتضم صفوفاً خشبية بُنية اللون متوازية ومتدرجة العلو، يجلس عليها الطلبة والطالبات، وفي مواجهتهم مكتب الأستاذ المُحاضر.. الذي يشرح علمه الهندسي على سبورة مزدوجة وعريضة، تصعد وتهبط بمساعدة شداد جانبي. السبورة ليست سوداء اللون - كما هو معتاد - بل ذات لون أخضر غامق، قريب من لون أوراق شجر "الكافور".. الذي يبدو عالياً وكثيفاً من خلال النوافذ الزجاجية لقاعة الدراسة، التي يطلق عليها لفظ "المدرج" تجاوزاً.

جدول الدراسة يحتوي عادة على محاضرتين بكل مدرج، من الساعة الثامنة حتى العاشرة صباحاً ثم من العاشرة حتى الثانية عشرة ظهراً، ويعقب ذلك الدراسة داخل الفصول (السكاشن) وصلات رسم اللوحات الهندسية والتدريب داخل الورش الهندسية ومعامل الكيمياء.. ويستمر ذلك عادة حتى الخامسة مساءً.

الدراسة الهندسية تبدو براقة لمن لم يُخبرها، كما يتضاعف بريقها على شاشات السينما والتلفاز.. لكنها في واقع الحال وداخل جدران المباني الأنيفة لكليات الهندسة.. لا تقل جُهداً وعنفواناً عن المعارك الحربية. فطوال الوقت يُطالب الجميع بالتركيز الذهني وإعمال العقل وبذلك الجُهد الفائق.. لحل المعادلات الرياضية والكيميائية وتضبيب الأرقام والنتائج والتأكد من صحتها وملائمتها لما هو موجود في واقع الحياة من ضغوط وحرارة وأطوال وارتفاعات وأوزان وقوى رطلية وكيلو جرامية.. مع تحويل كل ذلك إلى تكلفة مالية.. يتحملها كل مُخطئ أو متهاون في المقام الأول.

فضل أسامة التخصص في دراسة هندسة القوى الميكانيكية، لأنها ستؤول نهاية إلى تعامله مع آلاتها مثل..: السيارات والقطارات والأوناش والمصاعد.. وما شابه. ولأن المجتمع في المنظور القريب والبعيد لن يستغني عنها.. مهما تطور أو تقدم أو تعقدت علاقاته التنموية والحياتية.. والتي ستنجح له خبرات عملية لا نهاية لها.. تُمكنه من إثبات ذاته وإظهار مهارته اعتماداً على جهده وإمكانياته.

عاد الأعداء إلى النباح.. فاصطف الطلبة والطالبات في طوابير التدريب العسكري وغنى الجميع..:

مطلوب من كل وطني.. من كل وطنية

مطلوب من كل مصري.. من كل مصرية

من كل أب من كل أم.. من كل أخ من كل أخت

ما نقولش إيه إديتنا مصر

ونقول ها ندي إيه لمصر.. يا حبايب مصر

مصر.. مصر.. مصر.. يا حبايب مصر.. حبايبنا

* * *

مصر الحياة.. مصر الأمل.. مصر الشهامة والعمل

على صدرها نمنا.. على حسها قمنا.. وبشمسها الحلوة

صورنا أيامنا.. وفي حضنها جينا.. وفي ظلها مشينا

* * *

مصر النجاة.. مصر السفينة.. أغلى أمانة في إيديين أمينة

مصر.. مصر.. مصر

يا حبايب مصر.. حبايبنا.. مصر.. مصر..

يا مصر.

انتظم الطلاب في التدريب العسكري على..: قتال الأعداء وتطهير الخنادق ومُهاجمة الثكنات وإخلاء

المصابين والجرحى إلى الخطوط الخلفية.. لتعتني بهم الطالبات المتدربات على..:

الإسعاف الأولي وتضميد الجروح وتجبير الكسور.. وتدريب الجميع على السير المنتظم والانتقال المنضبط

والجري والقفز والزحف والتسلق والسباحة.. وضرب النار بالذخيرة الحية الخاصة بالبندقية والرشاش

القصير.

الحزم الأشد والأوامر الصارمة باتباع النظام كانت في صفوف الطلبة والطالبات المشاركين في العرض

العسكري مع رؤسائهم، فكانت العبارات الجافة والكلمات الحادة تسمع بوضوح في صورة أوامر خالية من

أية عواطف أو رجاءات. تقدم قائد طابور العرض العسكري بخطوات "الأوزة الاستعراضية" النشيطة، والتي

تدفع بالساق خلف الساق ككتلة واحدة - غير مثنية - من أسفل الجزع البشري حتى نهاية طرف الحذاء

العسكري ذو الرقبة الطويلة (بيادق طويل الرقبة). اقترب قائد الطابور إلى بقعة محددة، أسفل مقصورة

قائد المنطقة العسكرية، مؤدياً له التحية العسكرية المُعتمدة للجيش المنتصرة.. وصاح بأعلى ما يستطيعه

من صوت قائلاً..:

- تمام يا أفندم.. طابور العرض العسكري جاهز للتحرك.. في انتظار أوامر سيادتكم للتحرك الفوري.



فأجابه سيادة اللواء الركن (أركان الحرب) بحماس أقل ضجيجاً.. وبكلمة واحدة فقط...:

- تقدم.

بسرعة متزايدة النشاط...

أنزل قائد الطابور العسكري ذراع التحية، واستدار للخلف متوجهاً إلى مقدمة الطابور من الطلبة المتأهبين - منذ دقائق - لتلقي الأوامر والتي صدحت بكل قوة حيوية..:

- طابور العرض العسكري.. إلى الأمام تحرك.

تقدم قارعوا الطبول والدفوف وعازفوا الموسيقى العسكرية، وجميعهم من الكوادر العاملة بالقوات المسلحة المصرية، يليهم حملة الأعلام من طلبة الكليات المختلفة، فرفرت فوق رؤوسهم أعلام مصر والمحافظات والجامعة وباقي الكليات، بألوانها الناصعة والمتراقصة في مهب الريح. وتتبعهم جماعات من الطلبة يحملون الرشاشات، ثم جماعات من الطلبة يحملون البنادق، ثم جماعات من الطلبة لا يحملون أي شيء. ثم جماعات من الطالبات يحملن الرشاشات أو البنادق أو خاليات من السلاح، ثم جماعات من الطالبات يضعن على أذرعهن اليمنى علامات الصليب الأحمر أو الهلال الأحمر، أو علامات الصليب الأحمر القابع داخل الهلال الأحمر - في الأغلب الأعم، ثم جماعات من الطالبات لا يحملن أي شيء ويسيرن بخطوات الأوزة النشيطة. كل من شارك في طابور العرض العسكري كان يرتدي نفس الزي (اليونيفورم) العسكري، المكون من غطاء للرأس (وسترة) وقميص وبنطال وحذاء طويل الرقبة أسود اللون، بينما (اليونيفورم) ذو لون أخضر غامق. واجهة الطابور ضمت ثلاثة أفراد تتبعها باقي الصفوف. كلما اقترب (حازي) قادة الجماعات من مقصورة كبار القادة والأركان.. يؤدون لهم التحية العسكرية، ثم يخفضون أيديهم عقب الابتعاد عنها وعنهم، ويواصلون السير بنشاط أكثر وبحماس أكبر وبعزيمة لا تفل وإرادة لا تكل، مسددين أبصارهم بكل استقامة إلى أهداف بعيدة غير مرئية، ومتجاهلين تماماً لكل ما يصدر حولهم من... تصفيق وتكبير وتهليل وزغاريد وصيحات طفولية ومعابثات صبيانية وردود متطايرة وزهور ملقاة وبالونات هائلة.. وسط فرح الأهل وتأثرهم البالغ برؤية أحبائهم وسط صفوف العرض، وكان بعض هؤلاء الأحباء يسمعون أسماءهم بكل وضوح من أفواه أقاربهم وأصدقائهم - الجالسين وسط الجموع الهادرة - فيتجاهلون ما يسمعون حفاظاً على " الضبط والربط" والمسيرة العسكرية الاستعراضية، والتي تم التشديد على اتباع أوامرها في الصباح الباكر، ثم أعيد التأكيد عليها قبل تحرك الطابور. بعد أن مرت الجماعات كلها وحيث المقصورة، كون الطابور الاستعراضى تشكيل عسكري على هيئة مربع ناقص الضلع الأمامي، والذي كان مفتوحاً أمام المقصورة، والضلع المواجه مكون من جماعات الطالبات، بينما وقف باقي الطلبة في ضلعين متعامدين على جانبي ضلع الطالبات، وتقدم الجميع - وفي المنتصف تماماً - أفراد الموسيقى العسكرية، ثم حملة الأعلام الخافقة، ثم قائد الطابور الاستعراضى العسكري.. الذي وقف كعمود نور في مواجهة قائد المنطقة العسكرية.. فتالقت أعينهما وإنسان العين في إنسان العين (النني في النني).. فغمر الاضطراب باطن قائد الطابور خشية حدوث ما يخل بقواعد الضبط والربط - خلف ظهره - في صفوف الطلبة والطالبات

والذين لا يستطيع مراقبتهم في وقفته هذه دون حراك، ودون متابعة لبعض المشاغبين والمشاغبات الذين يعرفهم بالاسم.. ويتوقع عدم تفويتهم لفرصة ابتعاد عينيهم عنهم وعجزهما عن ملاحظتهم، لذا تمنى ألا تطول هذه الوقفة غير المريحة والمُنبئة بأن كل دقيقة ستمر عليه.. ستمنح أكثر من فرصة لبعض غير المنضبطين وغير المنضبطات للتقليل من شأنه.. وتسفيه جهوده العسكرية المُلتزمة، والتي ينظر إليها البعض باستخفاف.. سواء في الأوساط الطلابية أو في الأوساط المدنية والاجتماعية، خارج حدود الجامعة وكامل إدارتها ومسئوليتها.

وقف قائد المنطقة العسكرية ليلقي كلمته قائلاً..:

- الطلبة والطالبات.. أنتم لمصر ومصر لكم، مصر لم تقصر في شيء.. منحتكم الحياة والطعام والشراب والفرص التعليمية النادرة. مصر في حاجة إلى جهودكم المخلصة. نحن اليوم وأنتم الغد، نحن الحاضر وأنتم المستقبل. من لمصر غيركم..؟! كونوا دائماً على أهبة الاستعداد للدفاع عن مصر. كونوا دائماً في منتهى الضبط والربط لتلبية نداء مصر فور طلبكم.. لا تتركوا للراحة.. لا تستسلموا للدعة والسكون.. لا تقلدوا الأجنبي. نحن في حاجة إليكم.. مصر تدخركم لوقت الشدة.. فجهزوا أنفسكم بالعلم والمعرفة والتدريب والانضباط...
الله.. الوطن.. بالأمر.

ثم وقف أقدم أساتذة الجامعة ليلقي كلمته قائلاً..:

- أبنائي وبناتي.. الحضور الكرام. ما رأيناه اليوم هو بعض جهود الجامعة في تربية طلابها وطالباتها. بذلنا الكثير من العمل وما زال هناك الأكثر الذي يتحتم بذله. لن نتأخر عن منفعة المجتمع من حولنا. لا يوجد ما يفصلنا عن أهلنا خارج الجامعة. وجودكم اليوم بيننا يؤكد ذلك ويدعمه. أبناء مصر أمانة في أعناقنا، وما نزرعه فيهم اليوم سنحصد ثمراته في الغد. ضعوا أيديكم في أيدينا لننهض ونواصل التقدم من أجل مستقبل مصر.. والذي هو مستقبلنا جميعاً. فلن ينفع مصر سوى أبنائها البررة والأوفياء.. فسيروا على بركة الله وهو الموفق من قبل ومن بعد.

بينما يُنهي الأستاذ الدكتور خطابه الوثائقي.. غمر العرق وجهه وجسد قائد الطابور العسكري.. الذي اخترقت أذنيه همهمات تتلوها ضحكات مكتومة - تأتي من خلفه - وهو ما كان يتوقع حدوثه بين لحظة وأخرى، منذ أعطى ظهره للطلبة المشاغبين والمنضبطين على السواء. وفي البداية ظن أن الأمر بسيط وسينتهي سريعاً بأن (يختشي المشاغبون على دمهم) يخجل المشاغبون من تفاهاتهم.. ويلزموا النظام ويقدرُوا المسؤولية.. لكن الأمر ازداد سوءاً عندما أحس قائد الطابور العسكري ببعض الهواء الرطب.. يُداعب لحم مؤخرته وشحمها...!!! فأدرك على الفور أن بنطاله قد شق طويلاً في هذا الموضع الحساس...!!! وتوقع بروز قماش سرواله الأبيض الناصع من بين ثنايا شق البنطال الأخضر الغامق.. مما دفع بعض العابثين من الطلبة والطالبات إلى تبادل النظرات الساخرة.. فالهمهمات المريرة فالضحكات المكتومة والمتزايدة.. والمُنذرة بالويل والثبور وعظائم الأمور.. من انهيار الضبط والربط في ساحة

الوغي. لكن القدر الرحيم أنقذ الموقف المتفجر، فبعد خطاب الأستاذ الدكتور بدأ النداء على المتفوقين والمتفوقات، لمنحهم الجوائز وشهادات التقدير على جهودهم التدريبية وانضباطهم العسكري.. فشغلت الأسماع والعيون والأيدي والأفواه.. بأنواع الجوائز وأسعارها وأشكالها وما طُبِعَ عليها من كلمات وعبارات تُرى بصعوبة. حافظ قائد الطابور العسكري على وقفته المتسمرة والمتصلبة والمتشنجة - في آن - حتى انتهت تسليم الجوائز وعاد كل طالب وطالبة إلى موضعه السابق، فهدأت ساحة العرض العسكري. ثم انتصب قائد المنطقة العسكرية مُحيياً قائد الطابور الاستعراضى العسكري، ومُطلقاً كلمة واحدة.. خرجت مُختنقة من بين شفثيه المزمومتين في غيظ..

- انصرف.

سارع قائد المنطقة العسكرية بالانصراف.. مُحاطاً برهطه من باقي العسكريين وكوادر حراسته المُشددة. ثم تبعه في مُغادرة ساحة العرض كوادر التدريس الجامعي والضيوف والزوار. وتباطئ في الانصراف الأهالي والأسر الذين لهم مشاركون في طابور العرض العسكري من الطلبة والطالبات.. الذين انفرط عَقدُهم عقب انصراف كبار المسؤولين واختفائهم عن الأنظار، فاستدار قائد طابور العرض العسكري.. إليهم ليعمد حالتهم المُتخلخلة والسائبة - في آن - بكلمة..

- انصراف.

وفور صدورها نزل الأطفال والآباء والأمهات والأخوة والأخوات والأصدقاء والزملاء.. وهم يتسابقون للوصول إلى ذويهم المُتفرقين في ساحة العرض مُطلقين ما في أيديهم من: بالونات ملونة وزهور مشكلة وأوراق زينة وشرائط أفراح. احتضنت كل أسرة ابنها أو ابنتها مُهنئين بنجاح العرض العسكري ومبتهجين بما نالوا من جوائز وشهادات التقدير.

وقف أسامة - في ساحة العرض - وحيداً وبين الحين والآخر يتلفت إلى ما حوله من أحضان وقبلات، ثم يقلب بصره بين الأهالي والزوار وبين شهادته التي قرأ فيها..

- أسامة محمد المصري.. تقدير ممتاز وقدوة حسنة. حضر فترة تدريب عسكري في المُدة من: ١٩٦٨/٨/١م إلى ١٩٦٨/٩/١م. نتمنى له دوام التوفيق،

قائد المنطقة العسكرية

السيد اللواء أركان الحرب

اسم /

توقيع /

ختم / القوات المسلحة المصرية

وزارة الدفاع

تمنى أسامة لو أن بعض من أهله قد حضر الآن.. لتهنئته أو لتقبيله أو لاحتضانه، كما يحدث مع باقي زملائه وزميلاته. لكن الجميع كانوا مشغولين بشئ ما، وغير مقدرين أو فاهمين بصورة أو بأخرى.. لما يحدث داخل الساحة الجامعية. ويستحضر أسامة كلمات أبيه الذي قال له..:

- ليس من المعقول أن تعتمد المعركة العسكرية عليك.. الأفضل أن تبقى بالمنزل لرعاية أخوتك ومساعدة والدتك. أما والدته فقد لمحت قائلة..:
- ليس لدي ملابس تليق بالجلوس بجوار أمهات زملائك المرفهات والثريات.. البركة فيك وربنا معاك.

عند عودة أسامة إلى منزله فرح الجميع بما يحمله من جوائز وشهادة التقدير العسكري.. التي طلب منه أبوه أن يحفظها في إطار زجاجي ثم يعلقها على الحائط للذكرى الخالدة. وعلى ذكر الملابس لمحت نجية إلى أسامة بأنه هو أيضاً لا يرتدي ملابس لائقة، فهي أما ضيقة أو واسعة عليه، ونصحته بأن يلم كل ملابسه المفضضة، ثم يذهب بها إلى السيدة فردوس لتضبطها على قياسه.. حتى يصبح شكله لائقاً مثل باقي زملائه.. ولا يصبح منظره "عرة" وسطهم.. فهو ابن ناس أيضاً، ولكن الظروف لها أحكامها و"ربنا ما يحكم على حد..". فرح أسامة بلقاء فردوس التي أكثرت من التحسيس على جسمه وجس كافة أعضائه بأصابعها الشبقتين وقالت له بلهجة معاتبة..:

- ما هذه الكلية التي تبعدك عنا كل هذه الأيام. ذاكر أحياناً ثم أرح جسمك، لا تنهك نفسك بهذه الطريقة. يوجد من يشتاق إليك ويسعد برؤياك. عندما أرى نجية سأقبلها على أرسالك إلي.. كما أنني سأخفض لها ثمن عملي في ملابسك إكراماً لك، وأعطيتها كل الفرص لتدفع لي وقتما يناسبها ذلك.
- أعادت فردوس أخذ مقاسات أسامة من فوق جسمه.. وتعمدت ملاسته واحتضانه وتقبيله. ثم طلبت منه أن يعود إليها في الليلة التالية - بعد غياب الشمس - ليأكل معاً أطباق الأرز باللبن.
- نظر أسامة إلى نفسه في المرأة.. فلاحظ نحافته البادية وشحوبه وغور عينيه.. كما خجل من ملابسه المضمدة في بعض المواضع ثم سأل نفسه..:

- متى ينتهي كل ذلك.. وكيف..؟! هل المذاكرة اليومية هي الحل..؟! هل انتظامه في الدراسة الجامعية. لعدة سنوات أخرى هو الحل..؟! ألا يوجد طريق أقصر وأسرع..؟!.

لم يحر أسامة أي إجابة جديدة، ولم تسعفه ذاكرته بأية حلول عبقرية.. تنقله مما هو فيه إلى حال أفضل. فواصل الانكباب فوق كتبه ودفاتره وأوراقه وأقلامه.. حتى أرهقه السهر والفكر المضني السابح في غياهب المجهول.. والمكبل بظروفه القاهرة.. فعزى نفسه قائلاً..:

- إذا ركزت كل طاقتي في الدراسة سأنجح وأتفوق وأعين معيداً بكلية الهندسة. ثم أرسل للدراسة بالخارج على حساب الدولة.. فأحصل على شهادة الدكتوراة، التي تمكنني عند العودة لمصر من العمل بالتدريس بنفس كليتي.. وأقبض راتباً كبيراً يمكنني من العيش في رفاهية.. وأستمتع بالحياة كما يفعل غيري.. وأسكن في مكان فخم وأرتدي ملابس جديدة. ثم أشتري سيارة وأتزوج من زميلة لي وأنجب منها أطفالاً أربيهم في ظروف صحية أفضل وأحسن من ظروفى الحالية و...

وعلى ذكر الظروف الصحية قرر أسامة تناول الأرز باللبن مع فردوس لمرة واحدة كل أسبوع.. حفاظاً على وقته وصحته. حتى ولو أغرته باللحم المطبوخ.. فمستقبله أهم بالرعاية. ذلك المستقبل المأمول.. كان يضطر أسامة للبقاء في الكلية لساعات طويلة. وعصر أحد هذه الأيام سمع أسامة أن رئيس البلاد سيزور الكلية وبعد أن يتفقد أقسامها ومبانيها وإدارتها.. سيتوجه إلى أرض الملاعب الكبرى (الإستاد) لإلقاء خطاب هام، فسبقه إلى هناك لرؤيته عن قُرب.. للإصناعات التي شملت..:

- أيها الأخوة المواطنون.. عملنا معاً لسنوات طويلة. مرت علينا أياماً صعبة.. تحالف علينا الأعداء من الشرق والغرب. استكثر علينا الاستعمار أن نحكم بلادنا وأن ننعم بالحرية. الاستعمار لا يريد الخير لنا.. بل يريد أن يستعبدنا.. الألمان يعطون السلاح والعتاد العسكري والأموال الطائلة إلى الأعداء.. الألمان يعايرونني بأنهم أنقذوا معبد " كلابشة" من الغرق.. أنا مُستعد أعطيهم معبد " كلابشة".. فهل سيتوقف الاستعمار عن مساعدة أعدائنا؟!.. هم يلهوننا بكل شئ تافه.. ثم يسلحون عدونا ليقوى علينا ويتحكم في المنطقة.. أنا لن أتيح لهم أية فرصة للمهادنة والمساومة. حريتنا وكرامتنا أعلى من كل شئ.. أيها الأخوة المواطنون حريتنا لا تقدر بثمن.. كرامتنا أعلى من المساعدات وأعلى من المعابد.. سنقاتل.. سنقاتل.. سنقاتل.. ولن نستسلم أبداً..

صفق أسامة بكل شدة مشاركاً الآلاف غيره.. الذين اندمجوا جميعاً في الهتاف باسم وحياة الرئيس وسقوط الخونة والعملاء.. تحت أقدام الاستعمار المُستبد الطاغي.. وأُختتم الهتاف بـ: - بالروح.. بالدم.. نفديك يا رئيس.. بالروح.. بالدم...

- تحيا مصر.. تحيا مصر.. عاشت مصر حرة مستقلة..

- سنقاتل.. سنقاتل.. سنقاتل.. تحيا مصر.. تحيا مصر...

وبينما مصر تتنادينا لنفتديها بالروح والدم.. كان بعض زملاء أسامة وزميلاته يلبون نداء الغريزة.. بالعشق والحب والغرام والهيام والقبلات والأحضان الشبقة.. في الخفاء غير الشرعي.

ففي عصر يوم دراسي وجد أسامة نفسه خالياً من الدراسة لمدة ساعتين داخل مباني الكلية، فتوجه إلى ظهر أحد المباني المُتطرفة.. بحثاً عن الهدوء والاسترخاء على حافة منطقة بها أشجار كثيفة كغابة. وعندما اقترب منها وجد شرطياً للحراسة يتشاجر مع طالب وطالبة.. ويصر على اصطحابهما إلى المخفر القريب. وفهم أسامة من الشرطي أنه ضبطهما يتعانقان بحرارة خلف جذع شجرة ضخمة...!! انتاب القلق نفس أسامة، فرفض فكرة تدخل الشرطة في الأمر، وانتحى جانباً بالشرطي وأقنعه بأن سلوكه - وإن كان قانونياً - سينتهي بفصل العشيقين من الكلية مع ضياع مستقبلهما معاً، كما أن عليه أن يعالج المشكلة بروح أخوية. ثم انتحى جانباً بالعاشقين المتوترين وأقنعهما بدفع بعض المال للشرطي.. حتى يتغاضى عن الأمر ويهربان بجلدهما. ورغبة من الفتاة العاشقة في سرعة إنهاء المشكلة.. نزعت من حول رقبتها سلسلتها الذهبية وناولتها للشرطي المبهوت.. والذي انشغل في فحص السلسلة.. لتحديد هل هي ذهبية أم لا...!! فلاذ العاشقان بالفرار من منطقة الأشجار. ولما أفاق الشرطي من ذهوله.. لم يجد سوى أسامة يجلس في أحد الأركان الهادئة الظليلة يفكر في: أمور الحياة وتقلبات الأقدار والأطياف اللازوردية والكون اللامتناهي وحياة البرزخ والفناء والخلود والزمن...

ومساء يوم دراسي أنهى أسامة جميع التزاماته تجاه الكلية وهم بمغادرتها مُتأبطاً كُتبه وأدواته - الطويلة والقصيرة في آن - فاعترض طريقه أربعة من الضباط بزي القوات المسلحة مباغتين إياه بالسؤال عن دكتور التصميمات الهندسية الميكانيكية.. الذي ذهب إلى ألمانيا الغربية في مهمة علمية ولم يُعد منها...!!... رغم مرور ثلاثة شهور على انتهاء مدة المهمة. ودَهِش أسامة مما يسمعه من أسئلة مثل...:

- هل الدكتور الهارب كان سئ الأخلاق...؟!.. وكثير الاحتكاك مع الطالبات. هل كان ينفرد ببعضهن أحياناً في مكتبه...؟!.. ألم تلاحظ عليه بعض التصرفات الغريبة والمُلفتة للأنظار...؟!.. هل الدكتور الهارب كان يحيط نفسه بنفر معين من الطلبة أو زملائه الآخرين...؟!.. هل يوجد دكاترة آخريين يقلدونه في سلوكه.. وقلة وطنيته وضعف انتمائه لمصر...؟!..

هل يوجد بعض الخونة بين الطلبة والدكاترة.. يحرضون ضد مصالح البلاد.. أو يسيئون إلى الحكام بأي شكل من الأشكال...؟!.. ما رأيك في الدكتور الهارب...؟!..

تلغثم أسامة في الإجابة وخاصة أن الدكتور الهارب كان مثالاً للتفوق العلمي والأخلاق الكريمة. فوجد أسامة كثيراً من الصعوبة في التحدث بأدنى سوء عن الدكتور الهارب.. فصُدِم السادة ضباط التحقيق بكلمات أسامة.. والتي حرص على إيجازها هرباً من الموقف برُمته.. وتجنباً للتورط في هذه المسائل الشائكة. فماذا يستطيع ابن محمد المصري ونجية المصري - أيضاً - أن يفعله أو يقدمه.. لتعميق الوفاء لمصر في نفوس بعض مواطنيها المتذبذبي الولاء.. والذين يتعرضون لإغراءات عاتية فور وصولهم إلى الأراضي الأوروبية أو الأمريكية - سواء بسواء - وكان رأي أسامة هو..:

- الدكتور الهارب من خيرة أبناء مصر البررة.. وأكثرهم تفوقاً وكفاءةً ويعد - بصورة أو بأخرى - قدوة حسنة لكل طموح.. وأعتقد أنه سوف يعود لمصر في الوقت المناسب.. فقد لاحظت عليه شدة ارتباطه بكل ما هو مصري.. من..: بشر وطين وتراب وسماء وأنهار وبحار وتاريخ وذاكرات وتراث وشواطئ وجبال وتلال ومناجم...

أخلى السادة الضباط طريق أسامة.. فأسرع الخُطى إلى أهله وهو يضرب أخماساً في أسداس، ولا يصدق أنه خرج معافى من هذه الورطة المفاجئة. وبلغ من اضطرابه فقدانه التام للسيطرة على نفسه. فلم يستطع التركيز في مذاكرة كُتبه أو أداء واجباته وفروضه - رغم كثرتها وتنوعها - فلجأ إلى النوم المضطرب.. هارباً من كل ما يدور حوله.. ومن تشعث أفكاره في المقام الأول. وبين الحين والآخر كان يسأل نفسه:

- هل حقاً أنا وسط أهلي...؟!.. هل حقاً أنا بعيداً عن أيدي السادة ضباط التحقيق...؟!.. ألا ما أعجب صرُوف الدهر وتقلباته...!!..

خلال شهر أغسطس دعت القوات المسلحة المصرية إلى إقامة معسكر صيفي لطلبة الجامعات المختلفة بمدينة الإسكندرية، لإعدادهم لتحمل مسئولياتهم تجاه الوطن. اشترك أسامة في وفد جامعيته، وتحدد يوم السفر الذي تجمع فيه المسافرون من السادة الضباط وضباط الصف والطلبة من جميع الصفوف والسنوات الجامعية والأعمار والكليات والانتماءات...

وقف الطلبة - مساءً - داخل وخارج قطار السفر الذي خُصص لهم فقط على رصيف سفر يقع في أقصى شرق محطة السكك الحديدية.. في منطقة شبه مظلمة.

بعض الطلبة العابثين ظنوا - خطأً - أنهم على وشك القيام برحلة ترفيهية.. فانهمكوا في المزاح الثقيل بالأيدي المتوترة والألفاظ البذيئة. جرى بعضهم خلف البعض الآخر، تجاذبوا الشد والدفع للملابس والأجساد، تبادلوا اللكمات وتدافعوا فوق أجساد وحقائب زملائهم المُلتزمين.. هاج كل شئ في ممرات القطار الضيقة. فالأشياء تُلقى بين جنباته وكذلك الألفاظ غير الظريفة.. ثم تعصب بعض الجادين وأوشكوا على الدخول في صراعات حادة مع المُتهتكين.. الذين برز لهم بعض ضباط الصف وأشبعوهم ركلاً وسباباً.. أمرين إياهم بالالتزام جادة الصواب.. وقواعد" الضبط والربط" العسكري المُلزم بالسلوك القويم. وصاح ضابط الصف بصوت غليظ كعواء فُفمة (كلب البحر)..:

- نحن في وحدة عسكرية وليس في حاراتكم العفنة. من يتهتك سيُقدم إلى " محاكمة عسكرية".. التي قد تتسبب في فصله من الدراسة الجامعية أو إيداعه السجن.

اضطرب بعض " المُتَحِلين" من الطلبة غير المنضبطين.. ولجأ معظمهم إلى مُغادرة منطقة القطار المسافرين.. تسلاً إلى منازلهم، بعد أن سُب أبائهم ولغنت أمهاتهم.. الذين لم يُحسنوا تربيتهم على الجد والصرامة.. أساس كل " ضبط".. وجوهر كل " ربط".. عسكري أو مدني. من تبقى داخل القطار من الطلبة لزم الهدوء وركن إلى السكون. وأخذ الجميع يراجعون حوائجهم ويطمنون على مُمتلكاتهم القليلة من.. ملابس عسكرية وحقائب وفوط وجه وأدوات حلقة وجوارب وملابس داخلية ومِراة وجه صغيرة وقطعة صابون واحدة ومناديل وملعقة وشوكة وسكين وطبق وكوب وأوراق وقلم ودفتري واحد.. وأقل القليل من النقود. في زحمة المزاح الثقيل والهيجان.. فقد البعض أغطية رؤوسهم من " الطواقي" العسكرية ودفاترهم وساعاتهم وأقلامهم. كما اختلطت الحقائب وتداخلت أرفقها.. فأصبح من الصعب تمييز خصوصيات كل طالب. عندما وصلت تفاصيل المشاكل إلى السادة الضباط المرافقين للفقج.. أمروا الجميع بالالتزام الهدوء واحترام قواعد" الضبط والربط" العسكريين وقال كبيرهم..:

- عندما نصل إلى الإسكندرية سنفرز كل شئ وسيحصل كل طالب على ما يخصه.. إلزموا الهدوء. نحن من الآن داخل وحدة عسكرية.. تنطبق عليها كافة الأوامر والقوانين العسكرية المُلزمة داخل وخارج قطارات السكك الحديدية. من لم يربيه أهله سنربيهِ عسكرياً.. هذا واجبنا العسكري تجاه مصر. ومن سيخالف الأوامر العسكرية وقواعد" الضبط والربط" العسكري.. سيُفصل من الجامعة أو يدخل السجن الحربي أو كلاهما.. ولن ينفعه أحد وكل واحد ذنبه على جنبه.. والسيئة تعم.

شرع ضباط الصف في تعيين قائد من الطلبة لكل عربة قطار .. يتولى السيطرة على طلبتها ومسئول عسكرياً عن كل ما يحدث داخلها. وفي الأساس يتولى الطالب القائد مراقبة وتحديد المشاغبين تمهيداً لمُعاقبتهم وتحجيم سلوكياتهم العابثة. خشع الطلبة بعد أن أُرهِقوا بتتابعات ترك أسرهم، والانتظار داخل وخارج القطار، والردالات والأوامر العسكرية والضبط والربط.. ثم تحرك القطار ليلاً في اتجاه الإسكندرية المُستهدفة طلابياً. أحس الطلاب بغياب الرقابة العسكرية عنهم.. على بعد عربتين أو ثلاث من عربات القطار، فعادوا إلى الأغاني الخفيفة والمزاح الأكثر خفة. كما لجأ بعض الطلبة إلى التطلع من خلال نوافذ القطار.. التي كانت تعرض صور سريعة ومتداخلة لما يوجد خارجها من.. نخيل وأشجار ومنازل وترعرع ومزروعات وأعمدة نور وأعمدة تليفون وتلغراف وأسلاك الكهرباء وسيارات صغيرة وكبيرة وسماوات بعيدة وفلاحين وفلاحات وحيوانات حية وأخرى نافقة... ملفوفة بالظلام. كلما أوغل الليل اشتدت حلكته وهدأ ضجيج الطلبة تدريجياً. ثم لجأ الجميع إلى النوم المنقطع فوق المقاعد والحقائب وفوق بعضهم بعضاً.

سار القطار دون توقف في محطات الطريق، لأنه لم يكن يضم سوى فوج الطلبة ومتعلقاتهم والسادة الضباط وضباط الصف ومهماتهم العسكرية والإدارية. وقُرب الرابعة صباحاً وصل القطار إلى محطة السكك الحديدية الخاصة بعاصمة البلاد "القاهرة" .. فتوقف فيها - لساعتين تقريباً - للتزود بالمياه والوقود والفحص والمراجعة والتفتيش الفني.. وخلال هذه المدة تجول بعض الطلبة فوق أرصفة المحطة، وتزودوا بما يحتاجونه من.. صحف ومجلات وحلوى وخبز ونقائق. كما تريض البعض الآخر دون شراء شيء، وحرص البعض على تنفس هواء العاصمة.. والتعرف على بعض ملامحها المتاحة من.. منازل، ميادين، شوارع، علامات المرور، سيارات خاصة، سيارات الأجرة (التاكسي) بلونيهما الأبيض والأسود المميزين، أضواء باهرة، لافتات إعلانية جذابة، زينات، نظام مُنضبط، بشر يسير بتعجل، ناقلات شرطة، ناقلات جيش، شرطة مرور... -

مُعظم الطلبة كانوا يلمسون أرض العاصمة للمرة الأولى... لذا يُهروا بكل ما شاهدوه وحرصوا على رؤية كل شيء وأي شيء.. فكان بعضهم يقرأ كل ما يقع أمام عينيه من كلمات مثل..: ملاكي القاهرة ٣٦٢٥٢ - ملاكي الجيزة ٥٣٨١٤ - أجرة القاهرة ٤٨٩٢ - أجرة الجيزة ٥٧٢٦ - القاهرة مدينة نظيفة فحافظ عليها - مرحباً بكم في القاهرة - احترام قواعد المرور يحفظ سلامتك - سكك حديد مصر - المقصف (البوفيه) جهة اليمين، شباك قطع التذاكر جهة الغرب، المسجد جهة الشرق، القبلة إلى اليمين قليلاً، موقف سيارات الأجرة، موقف الحافلة...

أطلق ضابط الصف صافرته المزعجة فتجمع الطلبة المتجولون وعادوا هرولةً إلى أماكنهم داخل القطار، الذي اتخذ مساره إلى الإسكندرية، مستقبلاً بصدرة شمس الصباح المشرقة بكل أمل وحيوية. وتحت أشعتها الدافئة وضحت معالم الحياة خارج نوافذ القطار، وشغف معظم الطلبة بما يرونه من مناظر جديدة عليهم ومختلفة كثيراً عما عهده في مُدنهم وقرآهم الجنوبية.. التي تعيش في ماضٍ غائر بعدة سنوات عن مثيلاتها في شمال مصر. فالأراضي الزراعية - أيضاً - أكثر تنظيماً وجمالاً وممراتها أكثر تنسيقاً. أما ترعها فأقل مياهاً وأكثر أشجاراً على جانبيها. أما طرق مرور السيارات فأكثر عرضاً وأكثر تنظيماً وأقل ضجيجاً.

واصل القطار طريقه شمالاً حتى بدت مباني الإسكندرية ومنازلها بألوانها المبهجة والفاتحة، تظللها سماء زرقاء صافية وتحدها رمال الصحراء الصفراء، وبعض مُسطحات الملاحات من جهة الجنوب، وزُرقة البحر من جهة الشمال. سار القطار إلى جهة غرب الإسكندرية، وخلال تقدمه كان يتجه قليلاً.. قليلاً صوب الشمال، حتى وصل إلى منطقة "المكس" العسكرية على حافة البحر الأبيض المتوسط. والتي هي عبارة عن منطقة كبيرة تمتد شرقاً وغرباً على شاطئ البحر، ومحاطة بالأسلاك الشائكة الغليظة، وداخلها تتبعثر عدة مباني للشئون الإدارية والقيادة والمخازن والسكن والإعاشة والمطعم...

توقف القطار عند النهاية الشرقية للمعسكر، وهبط منه جميع ركابه من الطلبة والضباط وضباط الصف مع منقولاتهم الثقيلة والخفيفة.. وكان في استقبالهم بعض الجنود الذين سبقوهم في الحضور إلى أرض المعسكر البحري. شرع الحضور في الوقوف منتظمين في طوابير عسكرية.. كل عشرة أفراد يكونون جماعة لها "قائد جماعة"، وكل ثلاث جماعات تكون فصيلة لها "قائد فصيلة"، وكل ثلاث فصائل تكون سرية لها "قائد سرية"، وكل ثلاث فصائل تكون كتيبة لها "قائد كتيبة"، وكل ثلاث كتائب تكون لواء لها "قائد لواء"...

إنهمك الجنود وضباط الصف والضباط في حصر عدد وأسماء جميع الطلبة، ثم مقارنتها بما في حوزتهم من كشوف واستمارات مع تحديد من حضر ومن تخلف.. وتصنيف من التزم ومن شاغب.. وتمييز من احترم الضبط والربط ومن عاث فيه فساداً.. فأصبح خالياً - خلو اللحم من العظم - ليس فقط من الضبط بل أيضاً من الربط العسكري.. والحسنة تخص.. لكن السيئة تعم.. واللي دفع حاجة.. ياخذها.. واللي بيحترم بيحترم نفسه.. واللي موش محترم.. هيجيب اللعن لأهله.. وإحنا ميري.. وليس ملكي..

استمر رص طابور التمام لساعتين - تقريباً - ووصل الأمر إلى أن يقول قائد الجماعة "تمام يا أفندم" إلى قائد الفصيلة.. الذي يقولها بدوره إلى قائد السرية.. ومنه إلى قائد الكتيبة.. فقائد اللواء أركان الحرب.. الذي يستلم الـ "تمام يا أفندم" بكل حزم وعبوس غير مبرر.

خطب سيادة اللواء قائلاً..:

- أبنائي الطلبة.. أرحب بكم" وأرجو منكم التزام كافة قواعد الضبط والربط.. انسوا تماماً حياتكم المدنية.. القانون العسكري يحكمنا جميعاً وسيطبق بكل شدة. تفاصيل التدريب اليومي والزيارات والترفيه والفُسح والأجازات جنباً إلى جنب مع نوبات الخدمة والحراسة.. ستُحترم وتنفذ بكل دقة... الله.. الوطن.. بالأمر.

نظر أسامة حوله فرأى وجوهاً كثيرة متعددة الأشكال والألوان.. متنوعة الملامح والأطوال.. مُتباينة الرقة والخشونة، فعرف أن المعسكر يضم أفواجاً كثيرة من كافة أنحاء مصر المحروسة. فهام بنيتها - من الشمال والجنوب والشرق والغرب - يتجمعون دون سابق ميعاد، وبلا تدبير مُسبق - تهيئوا للحياة العسكرية ترحيباً باستيعاب مَحَدَدَاتِها وفروضها، وتهيئاً باحترام موانعها ومحظوراتها. هاهم بنو مصر البررة يتجمعون.. حُباً لبرها وعشقاً لبحرها وهياماً بسماؤها.

عجب أسامة لتلون بشرة الجسم المصري من الأسمر الغامق.. إلى الأبيض الأشهب وما بينهما من درجات - لا حصر لها ولا عد - فأرجع ذلك إلى كثرة اختلاط المصريين مع الشعوب الأخرى.. مع تعدد جذورهم ومنابتهم العضوية. فكافة شعوب الأرض التي وصلت إلى مصر - سلماً أو حرباً - تزوجت وأنجبت وتركت بصماتها الوراثية على ما حوله من زُملاء وقادة.. ثم تمتم أسامة لنفسه..:

- حب مصر هو ما يوحد الجميع.. الذين يتنافسون في الولاء لها والذوبان في نسيجها الأخضر الدافئ.

شملت الأنشطة العسكرية اليومية.. الوقوف والتحرك بانتظام، الرياضة البدنية، التدريب النظري على استخدام السلاح، المحاضرات النظرية في الأنظمة (التكتيكات) العسكرية، المساحة (الطبوغرافيا) العسكرية، حرب العصابات، مقاومة التجسس، الضبط والربط العسكريين، المجتمع العربي،...

ويوماً بعد آخر ازداد التزام الجميع بالانخراط في الحياة العسكرية التي تتميز بالجد والخشونة والصرامة.

سعد أسامة بتوفر الطعام والشراب داخل المعسكر، والذي وجده ضعف ما هو متوفر في منزله.. مع ضمان وجوده في مواعيد محددة.. تسير بنفس دقة " تحية العلم" كل صباح. فطابور تناول الطعام له نفس أهمية طابور " التمام" أو طابور " الرماية".. وإن كان أكثر لذة وأشمل مُتعة.. وأجمل نكهة بالروائح الشهية لل... اللحوم والأسماك والأرز والمكرونات والخضراوات والسلطات والفواكه والحلويات والشاي والحليب...

ورغم الضبط والربط المكتسب في كل شيء.. إلا أن بعض طلبة شمال مصر كانوا يعاودون الوقوف في طابور الطعام.. لاستلام وجبتين كاملتين. بينما بعض طلبة جنوب مصر يفعلون نفس الشيء في طابور أكواب الشاي.. ليتجرعوا أكثر مما هو مُقرر للجميع. ويتكرر الوقوف مرتين في طوابير الطعام إنتبه بعض ضباط الصف لما يحدث.. فأوقعوا عقوبات على كل من يُضبط.. بتكليفه بنوبات " حراسة" مُضاعفة أو حرمانه من أجازة يوم الجمعة الإسبوعية.

خلال نوبات الحراسة كانت تحدث بعض المهازل، فبعض الطلبة كان يضبط نائماً أو جالساً أو مُتخلياً عن سلاحه ومُتراخياً خلال ساعات الخدمة.. حول مخزن الذخيرة أو مخزن المهمات (الملابس، الخيام، الأسرة - المفروشات، الأحذية -...) أو مبنى القيادة.. فكانوا يعاقبون بمزيد من نوبات الحراسة.. بعد أن يُشبعوا سباً ولعناً" ومسخرة". كما كان يفضحون " يجرسون" خلال ساعات النهار التالي.. ثم يصفون بعدم الرجولة وعدم الالتزام بالواجبات وتقدير المسؤولية مع ميلهم للطفولية العابثة. وفي أحد الأيام حُمل أسامة مع بعض زملائه فوق سيارة نقل (زيل) عسكرية، متوجهين من غرب الإسكندرية إلى شرقها.. لإحضار بعض المهام. جلس الطلبة في صندوق السيارة يتأملون ألوان السماء المتماوجة بالزُرقة (بالأزرق) ثم مياه البحر ثم أعالي المنازل والعمارات.. وأصابهم بعض الملل فشرعوا في الغناء والأناشيد مُنتقلين إلى الهاتفات الهزلية مثل..:

- يعيش السمك في الماء.. يعيش.. يعيش...

- يسقط المطر في الشتاء.. يسقط.. يسقط...

فأوقفت السيارة في شارع جانبي.. وخرج من صندوقها ضابط الصف - في شدة الانزعاج - ليصرخ
فيمن يهتف وفيمن لجأ إلى الصمت.. على السواء..:

- يا (أولاد) .. نحن في وسط البلد.. نحن محاطون بكوادر أمن الدولة والشرطة العسكرية.. هذه
سيارة عسكرية في مهمة حربية.. إذا واصلتم هذا الانحلال.. سنرمى جميعاً في السجن الحربي..
وستفصلون من كلياتكم.. ولن تروا أهلکم مرة أخرى.. احترموا قواعد الضبط والربط.. وعندما
نعود للمعسكر ستعاقبون جميعاً!!!.. واصلت السيارة طريقها المُحدد تحت ظلال الصمت المُهين..
وأخذ من هتف بكل ضعف يعاتب من هتف بكل قوة. ثم تبادل جميع الطلبة الاتهامات ودعوات
الغواية.. بالانحراف والتهتك الحريمي.

من أجمل الطوابير العسكرية التي أخلص لها أسامة - بعد طوابير الطعام - هو طابور البحر، والذي كان
يوجه فيه الطلبة بكل انتظام إلى شاطئ البحر، ثم يطلقون هناك بكل حرية.. ليعانقوا الأمواج وبيتلعوا
زبدھا.. ويصعدوا ويهبطوا ويغوصوا في المياه الرطبة المالحة.. التي "تُدغدغ" أجسامهم وتذلك أعضاءهم
وتزيل عنها كل توتر.. فيستمرئون البقاء في جوف البحر لأطول فترة مُمكنة، كما يخرجون منه بكل صعوبة
وإلحاح.. فيغادرونه مغادرة أم لطفها.. ويحدوهم الأمل في عودة قريبة.. كما تغمرهم الرغبة في معاودة
الاحتضان والعناق. في يوم جُمعة غادر معظم الطلبة المعسكر، بعد تناول وجبة "الغداء" وذهبوا للفسحة في
أرجاء مدينة الإسكندرية، وحرصاً على عدم ضياع وجبة "العشاء" منهم.. تركوا "بوناتها" الخاصة بصرفها
مع زملائهم المُعاقبين والمحرومين - من "الترويح" مثلهم - والذين عندما ذهبوا لصرف هذه الوجبات
الكثيرة.. تلوثت ملابسهم ببقع.. المربة والجبن والزبادي و... وخلال عودتهم من المطعم حاملين الطعام في
اضطراب بين لكثرتة.. التقى بهم مصادفة "ضابط نوبتي" فأشبعهم تقريعاً ولوماً على.. جوعهم وفجعتهم
وهبالتهم ومناظرهم غير السارة.. وقال لهم ساخطاً..:

- ألم تروا طعاماً من قبل..؟!.. هل أنتم بشر أم كلاب جائعة..؟!

لم ينبس أحد بحرف واحد وواصل الطلبة خطواتهم المُتعثرة.. وهم يقبلون أبصارهم بين ما في أحضانهم
من طعام شهي.. وبين ما في السماء من مشاهد قاتمة.. بينما يحثون السير في اتجاه خيامهم ومبيتهم. خلال
أيام العطلات الأسبوعية تجول أسامة في كافة أرجاء النهر السكندري.. بما تسمح به نقوده القليلة وأوقاته
الأقل، وأعجب أيما إعجاب بهندسة ونظام ونظافة المدينة.. التي يبدو شمالها كمدينة أوروبية - مقارنة بما
كان يراه من مدن في أفلام السينما - بينما جنوب المدينة أقل رونقاً وبهاء. وأكثر ما جذب اهتمام أسامة
كانت هي الشواطئ البحرية والمناطق الملاصقة لها، والتي اكتسبت سحرها وجاذبيتها من مجاورتها.. لمياه
البحر الأبيض المتوسط ولموجه ولرماله ولهوائه الندي.

قرب انتهاء المُدة المقررة للمعسكر - بالمكس - والتي كانت في حدود الشهر، تقرر إقامة يوم للتخرج..
يكون احتفالاً بنهاية التدريب العسكري.. واستعداداً لتوديع الفوج الحالي - وعودته إلى مواطنه - وتمهيداً
لاستقبال الفوج التالي.

وفي اليوم المحدد للاحتفال.. حدث ما لا تُحمد عقباه. ففي الصباح الباكر - وقرب الساعة السادسة - تضارب اثنان من ضباط الصف.. أثناء تنازعهما على أسبقية تسليم عُهدتهم إلى مخازن.. الأسرة والأغطية والخيام والسلاح والذخيرة وأدوات المطبخ...

واضطرب بعض الطلبة للتدخل بينهما.. لفض العراك وإيقاف سيل الألفاظ النابية المتبادلة.. والتي لا تهدر إلا في أزقة المنحرفين والمنحرفات.

وفي حوالي الساعة الثامنة صباحاً، شرع الطلبة في الاصطفاف داخل أرض " طابور التمام" .. فإذا ببعض الطلبة يدخلون إلى الأرض المقدسة.. وهم يتراقصون ويغنون.. ابتهاجاً بيوم الرحيل...!!!.. فغضب الطلبة الملتزمون بالنظام.. والمحترمون لقواعد الضبط والربط.. ثم اشتبك الطرفان بألفاظ السباب والتهديدات وفاحش القول.. ولاحظ ذلك كبير ضباط الصف...!!!.. فضرب كفاً على كف وهو يقول..:

- بعد كل هذه التدريبات - وفي آخر يوم - تتخلون عن قواعد الضبط والربط العسكريين.. وتتهتكون داخل أرض التمام.. ماذا كنا نفعل معكم طوال الشهر الماضي...؟!.. هل كنا ندربكم ونعودكم على.. الحياة الجادة والسلوك المنضبط.. أم على رقص الغوازي...!!!.. ألا لعنة الله عليكم.. دنيا وآخره...!!.

تعالت ألفاظ السباب واللعنات هنا وهناك.. تجهم البعض وتظاهر البعض الآخر بالانضباط.. حضر السادة الضباط إلى أرض " التمام" واتخذوا مواقعهم أمام طلبتهم. وفي حوالي الساعة صباحاً حضرت كتيبة من الطالبات كانت تعسكر في حي مجاور، وكذلك حضرت سرية من طلبة " الضفادع البشرية" بملابس الغوص وأجهزة التنفس تحت الماء على ظهورهم، وكانوا يعسكرون في وحدة مجاورة أيضاً. اتخذت جميع الوحدات الطلابية أماكنها المحددة، وشرع السادة ضباط الصف والضباط في إجراءات " التمام" النهائي، بحصر الطلاب وتحديد الموجود " الحاضر" والغائب والمريض والمتخلف.. ثم صُعد " التمام" من المستوى الأدنى إلى الأعلى.. حتى وصل إلى: سيادة اللواء أركان الحرب - قائد المنطقة العسكرية - والذي خطب في الحاضرين قائلاً..:

- أبنائي الطلبة والطالبات.. شرفت بالتواجد بينكم.. أنتم لمصر ومصر لكم.. نحن نعتمد عليكم في بناء مصر الحديثة والقوية.. لا تنسوا ما تعلمتوه طوال مدة التدريب العسكري.. الحياة العسكرية هي حياة الشرف والبطولة والتضحية.. التزموا في حياتكم وجميع تصرفاتكم.. بكافة قواعد الضبط والربط العسكريين.. اليوم نودعكم وغداً نستقبل فوجاً جديداً من زُملائكم.. عاشت مصر حرة.. الله.. الوطن.. بالأمر.. عاشت مصر حرة.. عاشت مصر حرة.

تعانق الطلاب ثم توجهوا إلى قطارات العودة بالسكك الحديدية، والتي ستقلهم إلى مواطنهم الأصلية، فرافق أسامة المصري الفوج العائد إلى جنوب مصر...

خلال النصف الأول من العام الجامعي التالي.. فوجئ أسامة باختفاء بعض أساتذته من السادة الدكاترة والمعيديين مع كثير من زملائه المتميزين...!!!.. وأحزنه كثيراً عدم استمرارهم في الحضور إلى الكلية لأسباب

مجهولة. أحس أسامة أيضاً بالوحشة والشوق لرؤية هؤلاء المُختفين - دون أسباب واضحة - ولما استفسر أسامة عن بعض التفاصيل بشأنهم.. نصحه من حوله بغلق فمه...!!! والانكفاء على شئونه الخاصة.. تجنباً للحاق بهم في ظروف مُريبة...!!!. كان المختفون من أكفأ الكوادر الجامعية علماً وأخلاقاً وبذلاً، كانوا يحضرون مبكراً ويغادرون الكلية بعد آخر أوقات المعتمدة في (جداول) قوائم مواعيد التدريس. وفيما بعد انطلقت حولهم الشائعات البذيئة.. عن نواياهم الإجرامية في الاستيلاء على نظام الحكم المتمركز في القاهرة. وعجب أسامة من معرفته المتأخرة لطموح بعض زملائه - خارج دراستهم الهندسية وأنشطتهم الجامعية - كما دهش أكثر من قدراتهم الفائقة على التوفيق بين تفوقهم العلمي وطموحهم غير العلمي.

لم يهتد أسامة إلى أي بيانات مُحددة عن المختفين.. الذين أنهكوه بتتبع أخبارهم القليلة وأخطارهم الشحيحة. وأسبوع بعد آخر شحبت وجوههم، وبهتت ملامحهم.. فندر ذكرهم في أوساط الطلاب الذين ألتهتهم دراساتهم الشاقة وفروضها المضنية.. فشغلوا بها - ليس فقط - عن ذكر المُختفين بل أيضاً عن أنفسهم وذواتهم...!!!. في جوف الظروف المجتمعية والملابسات الحياتية - الآنية والمستقبلية - ومعظمها خارج عن السيطرة الذاتية لطلاب محدودي القدرة والإمكانات. وخلال شهور الصيف انضم أسامة إلى معسكر " للخدمة العامة" بمنطقة وادي" النطرون" جنوب غرب محافظة الإسكندرية. أنشطة الخدمة العامة تُنسق بالتعاون بين وزارة التعليم العالي ووزارة الشباب، بهدف زيادة ارتباط الطلاب الجامعيين بالبيئة المصرية وملاستها عن قُرب للتعرف على... طبيعتها وكنوزها وتنوعاتها ومشاكلها وتاريخها والعادات والتقاليد والطقس والبشر والأرض والعمران والجهود الحكومية ووفود الجامعات الأخرى وفي بعض الأحيان وفود الدول الأخرى المشاركة في الأنشطة المماثلة والقيادات المحلية...

وتشمل أنشطة الخدمة العامة كل ما يفيد البيئة من أرض وبشر وظروف معيشية، كما تضم أنشطة محو الأمية والتوعية الصحية ومقاومة الآفات وكافة أنواع الأضرار والملوثات الصناعية...

وفي منطقة وادي النطرون كان المستهدف الرئيسي هو مقاومة الآفات الضارة بزراعات العنب الموجودة بها، إضافة إلى المساهمة في " عزق" أراضيها، وتمهيداً للتسميد والري، بعد تنظيفها من الحشائش الضارة. لذا انقسمت فرق العمل الطلابية إلى مجموعات نظافة عامة ومجموعات مقاومة آفات العنب ومجموعات عزق للأرض ومجموعات متابعة وإشراف وقيادة...

سافر طلاب الجنوب بالقطار إلى القاهرة، ومنها بالحافلات إلى منطقة "معسكر الخدمة العامة" .. يقرب زراعات العنب بوادي " النطرون". كان المعسكر عبارة عن أرض صحراوية مهيأة أُقيمت على أطرافها الخارجية عدة مباني خشبية تضم مبنى لنوم الشباب ومطبخ وقاعة طعام وقاعة ترفيه ومبنى للمكاتب الإدارية والإشراف وقاعة الترفيه احتوت على تلفاز ومذياع ومنضدة للعبة " البنج - بونج" وعدة مناضد صغيرة لألعاب الدومينو والطاولة والكوتشينة والشطرنج والسلم والثعبان و(السيجة) و...". وركن للمكتبة والصحف والمجلات، وركن شبه دائري للمناقشات والمحاضرات. ضم فوج الشباب ممثلين من عدة دول مثل: (مصر - السودان - سورية - ليبيا - الأردن - المغرب - الهند - الباكستان - السويد - سويسرا - أسبانيا -...) كانت الأعمار مُتقاربة والمشارب مُتشابهة والاهتمامات مُتماثلة. فرح كل شاب بالتعرف على شباب الدول الأخرى، وتبادلوا الابتسامات فالتحيات بالكلمات القليلة (باللغة الإنجليزية) فالإشارات (الخاصة بمتحدي الإعاقة من الصم والبكم والعميان) فالخرائط الدولية فالمعلومات الجغرافية فالعناوين المنزلية.. والتي لم تستخدم (فيما بعد) لمرة واحدة.. لسقوطها في جُوب عدم الاهتمام - العميق الغور - عقب انتهاء مُدة المعسكر.. وفور الخروج من أبوابه المؤقتة.. والتي تقود الشباب يومياً إلى مزارع العنب المصطف في خطوط متوازية، شجرة في إثر الأخرى، ليكون ما يشبه السياج المتوسط الارتفاع.. أو خطوط الجنود من الأقزام المُكنتزة التي يصعب تمييز رؤوسها من أقدامها المُفلطحة. في المناطق الفاصلة بين خطوط الأشجار وحولها شارك أسامة الآخرين في " عزق" الأرض.. لتَهْوِيَتِها وتقلب تربتها وتعريضها للشمس والهواء.. فتزداد حيوية وتصبح " عفية" وصالحة للتسميد.. تمهيداً لإنتاج عناقيد العنب المتميز بالوفرة والبريق والحلاوة وتضخم حباته، العنب الصحراوي يتميز بألوانه الصفراء والخضراء الفاتحة، إضافة إلى عنفوان حباته ونعومة ملمسها وكثرة عصيره. كان الشباب الموفورو الصحة يتنافسون على " عزق" أطول مسافة مُمكنة.. ويتباهون بتقدمهم على أقرانهم تحت وهج الشمس والصهد المتصاعد من الأرض ذاتها. رغم صعوبة العمل الفلاحي إلا أن الشباب الدولي نظر إليه.. كنوع من الرياضة البدنية العنيفة، التي لا تقل فائدة عن رياضة " كمال الأجسام" و" رفع الأثقال" و" الجمباز". وقت العمل وسط حقول العنب كان يبدأ في العاشرة صباحاً وينتهي في الثالثة عصراً. وبعدها تبدأ فترة تناول وجبة الغداء والراحة. ثم فترة الترفيه والترويح والتسلية والرياضة الحقيقية.. والمستمرة حتى الساعة العاشرة ليلاً، فينام الجميع استعداداً لبداية يوم جديد صباح الغد المشرق والمأمول.

مضت أيام المعسكر على أسامة في يسر وسهولة، تعلم فيها كيف يتحدث ويتفاهم مع الأجانب، وكيف يتعامل مع أقرانه من العرب العاربة والمُستعربة.. وأخيراً وليس آخراً كيف يلتهم عناقيد العنب الطازج.. في الخفاء وخلال دقائق ليست فقط معدودة بل أيضاً فائقة التناقص والاضمحلال.. بعد طول التمرن على الطحن والجرش والضغط والعصر والابتلاع. في نهاية مدة المعسكر تعانق ا لجميع وتواعدوا على دوام المراسلة البريدية - مهما بعدت الشُقة - مع أحضان الود والقبلات الحميمية وتلويحات الوداع الأسف.

مرت الأيام وكرت الأسابيع وتتابعَت الشهور والسنوات.. ليصل أسامة محمد المصري إلى نهاية عام تخرجه الجامعي كمهندس قوى ميكانيكية. تلفت أسامة خلفه فرأى أيام الشتاء تسابق أيام الصيف والخريف والربيع.. التي عطش فيها وارتوى.. جاع فيها وشبع.. أكل فيها لحوم المعسكرات وخضراوات منزله وأطباق الأرز باللبن مع فردوس.. التي لم تُعيقه عن الدراسة الجادة رغم عشقها لأسامة وإغوائه بالبقاء الدائم في أحضانها المُعتصرة لكينونته.. والتي لم يجد فيها ما يُمتعه سوى عنقها العاجي المُرتفع - بكل أنفة وكبرياء - وبكل انحناء لين وغض في منطقة اتصاله بكتفيها الرقيقين.. وفي عمق هذه الطراوة الدافئة والعذبة - في آن - كان أسامة يجد نشوته المُتسارعة بالتقبيل واللثم والعض المُرهف. أسامة لم يندم على شيء.. لا على الوقت الذي قضاه في ملكوت فردوس.. ولا على الوقت الذي قضاه في ملكوت الله.. ولا على الوقت الذي قضاه في ملكوت القوات المسلحة والخدمة العامة.. ولا على الوقت الذي قضاه في ملكوت الجامعة الجنوبية.. رغم تفرد ملكوت فردوس بالمتعة والعذاب في آن.

المرحلة العسكرية

في الصباح الباكر ودع أسامة أسرته قائلاً..

- لا تنتظروني على الغذاء!!..

فأدركت السيدة نجية أن غياب ابنها سيطول، وابتسم محمد المصري للدعابة.. إذ لم يسبق لهم انتظار أسامة - أو غيره - على الغذاء أو على أي وجبة أخرى. اكتفى أسامة بتناول كوب من الشاي ورفض تناول أي طعام، فأصرت والدته على لف بعضه في ورقة جريدة ودفعته إلى يدي أسامة.. الذي سافر في عدة طرقات رئيسية وفرعية لمدة تقارب الساعة.. حتى وصل إلى منطقة التجنيد العسكري والتي كانت عبارة عن سور ضخ من الأحجار الكالحة ترتفع لقراءة المترين ويعلوه حاجز من السلك المعدني الشائك لمسافة متر آخر داخل السور تبدو بعض المباني القليلة العدد والارتفاع، فوق البوابة الحديدية للسور علقت لافتة ضخمة كتب عليها بحروق منمقة..

- وزارة الدفاع - المنطقة العسكرية الجنوبية - منطقة تجنيد محافظة... سط... الله الوطن. ومن المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه" -... لم تكن البوابة الحديدية ولا السور الحجري يكشف أي شيء مما يقع داخلها.

تزايد وصول المتقدمين للتجنيد وعلا ضجيجهم.. بل إن بعضهم تجرأ وطرق على الباب الحديدي أو الصاج.. "افتحوا البوابة.. الشمس تأكلنا.. المكان مزدحم.. لكن أحداً لم يستجب لأي من هذه المنغصات.. وحافظ السور وبوابته الحديدية على صمتها وما يخبأه خلفهما..

في تمام الساعة الثامنة فتحت البوابة الحديدية الصدئة فأصدرت أصواتاً منفردة، وتدافع المنتظرون في جوفها المترامي الأطراف. لمح الجميع مظلة كبيرة من أسقف الصاج المحمول على مواسير حديدية.. فتسابقوا للتقيؤ بظلمتها.. وعندما انتبهوا من تدافعهم وجدوا أنفسهم محاصرين بثلة من الجنود المدججين بالسلاح. تقدم قائد الجند وكان طويل القامة ضخم الجسم منتفخ البطن متجهم الوجه معروق الجبهة واليدين وصرخ متعصباً.

- اصمتوا يا أبناء العاهرات!!..

نزل الأمر كالصاعقة فوق رعوس خريجي الجامعات والمعاهد العليا لاكتشافهم حقيقة أمهاتهم وماضيهم النجس وأصولهم العفنة!!.. لم يصدق أسامة ما سمع واعتقد أن في الأمر خطأ ما!!.. إلا أن الضابط ذا الكرش المنتفخ واصل البذاءات المؤكدة..

- ما هذا التخنت البادي عليكم!!.. أين تظنون أنفسكم!!.. هذه وحدة عسكرية تطبق فيها كافة القوانين العسكرية.. التي ستضعكم جميعاً خلف جدران السجن الحربي!!.. هل سمعتم بما يدور داخله من أفلام!!.. أمركم جميعاً بالصمت والهدوء والوقوف في صفوف منتظمة. من يعصي الأوامر العسكرية سيدفع الثمن من عمره وعمر أهله.. اصطف المجنون واران عليهم الصمت وأخذ الجنود في عد الصفوف وتقسيمها إلى

جماعات وفصائل وكتائب وبقرب كل منها وقف قائد لضبط حركتها وسكونها وحصر أعدادها "تمامها" وكان يعاد ويكرر - المرة تلو الأخرى- للتأكد من العدد الكلي "التمام" لجميع المجندين وإذا اكتشف أدنى خطأ في عدد أي مجموعة.. يتم إعادة عملية "النتميم" على باقي المجموعات.

بعد حصر "التمام" تم توقيعه ورفعته إلى جميع القيادات العسكرية المتواجدة. لمح أسامة العديد من لوحات البيانات والشعارات والرسومات على الجدران المحيطة بهم..

- القوات المسلحة مصنع الرجال - السواعد القوية تبني ولا تهدم - الضبط والربط عقيدتنا - حافظ على الأسرار العسكرية - لا تستمع إلى الإشاعات - مصر فوق الجميع - الدين لله والوطن للجميع - الشرطة العسكرية في خدمتك - أبلغ عن الخونة - نم مبكرًا واستيقظ مبكرًا - العرق في التدريب يوفر الدم في المعركة - مصر تعتمد عليكم.. أمر الجميع بالجلوس فوق الأرض الرملية وأسفل الشمس اللافحة، وزعت عليهم استمارات البيانات الشخصية والطبية لملئها، ثم جمعت ورجعت - أكثر من مرة - واستكملت بعض دقائقها المنسية. بمعرفة المجند وقائده، ثم أرسلت للفحص والتدقيق للتأكد من أن جميع المجندين ينتمون لمصر.. قلبًا وقلبًا.

طُلب من المجندين خلع ملابسهم والتوجه إلى الكشف الطبي، ومنه إلى استلام المهمات العسكرية.. ثم التوجه إلى المطعم لتناول وجبة الغذاء.. والتي انتهت قرب الساعة الرابعة عصرًا.. فأمر الجميع بالتوجه على خيام النوم - كيفما اتفق - والاستعداد للسفر إلى القاهرة.. بقطار السكك الحديدية فجر اليوم التالي.. واستثنى من ذلك بعض المعتلين صحيًا ونفسيًا وجسديًا وعقليًا.

في القاهرة.. عُرض أسامة وبضع زملائه على المجلس العسكري لكشف "الهيئة" لاعتماد اختيارهم للدراسة العسكرية المؤهلة لإعدادهم كضباط احتياط في كافة أفرع القوات المسلحة.. دخل المرشحون ثلاثيات.. ثلاثيات.. وعندما انتصب أسامة واقفًا في مواجهة السادة الضباط وأركان حرب الهيئة الممتحنة سأله أولهم..

- ما اسمك؟

- أسامة محمد المصري.. يا افندم.

- كم عمرك؟

- ثلاث وعشرون عامًا.. يا افندم.

-

كانت الأسئلة توجه بصوت جهوري.. أما الأجوبة فلا تقل عنها جهورية. وُجهت أسئلة مماثلة إلى الواقف على يسار أسامة.. فإذا به يسأل مستكررًا.

- كيف تعتمدون على أبناء البغاء كضباط احتياط..؟!

ارتبك الحضور واضطربت الأعين والأفواه للموقف المباغت..!! فغمرت القاعة الصيحات المستنفرة والكلمات المستنفرة والملاحظات الجارحة..

- ما هذا الانحلال...؟.. أين الضبط والربط العسكري.. وأبسط قواعد الأدب..؟ هل جننت..؟ هل أنت في كامل وعيك..؟ كيف تجرؤ على مخاطبتنا بهذه الوقاحة..؟.. ستوضع في السجن الحربي.. نحن هنا داخل وحدة عسكرية.. ولسنا في حديقة عامة.. أنت هنا مجند عسكري ولسنا في حديقة عامة.. أنت هنا مجند عسكري وليس في أحضان "ماما"..

وخلال ما يقارب الدقيقة دخل إلى القاعة فردان من الشرطة العسكرية واقتادا المتسائل - إلى حيث لا يعلم أحد- وهو يلعن ويسب كل من حوله.. ثم دعا الضابط الأعلى رتبة داخل القاعة إلى فترة نصف ساعة راحة للجميع.

قسم المرشحين المؤهلين لكلية الضباط الاحتياط إلى عدة فرق وفقاً لتخصصاتهم ودراساتهم والتي شملت.. دار المشاة ودار المدفعية ودار الدفاع الجوي ودار الأشغال.. ودار المركبات التي التحق بها أسامة وأقرانه.. فركبوا الحافلات العسكرية التي حملتهم إلى مقرها الرئيسي.. وهنا وُزعوا من جديد في صورة جماعات وفصائل وكتائب على الأسرة والغرف والطوابق والمباني والقاعات والخيام والساحات والمطاعم والحمامات واليوفيه و"الصالات" الرياضية.. تفقد أسامة كافة متعلقاته من ملابس عسكرية ومدنية وأدوات ومستلزمات.. فإذ به يكتشف ضياع غطاء رأسه.. المتمثل في "طاقية كاكية اللون" تشبه مثيلتها المستخدمة من حكام الألعاب الرياضية.

بحث أسامة عن مفقوداته الغالية والصغيرة الحجم في كل مكان فلم يجدها.. ولم يستطع تذكر أين فقدها..؟.. ورجح أن تكون قد سرقت منه خلال رحلة قدومه إلى دار المركبات العسكرية. بدا الأمر بسيطاً له.. إلا أنه ازداد تعقيداً عندما علم أسامة أن "الطواقي" العسكرية لا تباع ولا تشتري ولا تمنح داخل دار المركبات.. التي تقرر بقاء الجميع داخل جدرانها لمدة شهر كامل.. ولذا فلن يستطيع أسامة شراؤها من الخارج. اغتم أسامة لما حدث إلا أنه عشم نفسه بظهور حل ما لهذه المشكلة العارضة. داخل دار المركبات العسكرية، أطلق على أسامة - وأقرانه - لقب "طالب مجند ضابط احتياط" وجمعها "طلبة مجندين ضباط احتياط" واختصاراً "طالب وطلبة الاحتياط".. فكانت الأوامر العسكرية تصدر من الرتب العسكرية الأعلى في صورة..

- طالب احتياط تقدم.. طالب احتياط قف.. طالب احتياط هروا.. طالب احتياط سريعاً مارش.. أو طلبة الاحتياط إلى الأمام سر.. طلبة الاحتياط صفا.. طلبة الاحتياط انتباه.. طلبة الاحتياط امنع الكلام.. طلبة الاحتياط محلك اجلس.. طلبة الاحتياط لليمين (أو الشمال) در (استدير).. طلبة الاحتياط لليمين انظر..

أما طالب الاحتياط أسامة محمد المصري.. فقد اشتهر بأنه "عاري الرأس".. والذي يعادل في المفهوم العسكري أنه "عاري المؤخرة"!!.. لذا أصبح الهم الليلي والنهاري لأسامة هو البحث عن "طاقية" لتغطية مؤخرته أو رأسه - كيفما اتفق - بأي وسيلة..

في السادسة صباحًا يستيقظ طلبة الاحتياط لممارسة الرياضة وتناول وجبة الإفطار، وفي الساعة الثامنة يبدأ طابور "التمام" الصباحي.. الذي يسمع فيه أسامة السؤال المكرر..

- أين طاقيتك..؟

- ضاعت يا أفندم.

- وهل أنت طفل..؟!.. كيف ستحافظ على سلاحك..؟!..

يصمت أسامة بينما يعتصر لسانه وشفثيه في غيظ وقهر. وبعد إجراءات التمام الطويلة والتراتيبية يوزع الطلبة الاحتياط على قاعات التدريب النظري والعملي وورش المركبات العسكرية.. وكلما ولج أسامة في أي منها يواجه بالسؤال الكريه..

- أين غطاء رأسك.. يا طالب احتياط..؟

- ضاعت يا أفندم.

- ألا تستطيع الحفاظ على عهدتك.. ألا تستطيع الحفاظ على مؤخرتك..؟!.. الأطفال فقط هم الذين يضيعون أشياءهم..!!

- تمام يا فندم..!!

- هل أنت طفل..؟!.. هل أنت "عيل"؟..!!

-

خلال الأسبوع الثاني حضر قائد دار المركبات - سيادة العقيد أركان حرب - للتفتيش على الطلبة في طابور التمام الصباحي.. فلاحظ أن بعض الطلبة بلا غطاء للرأس والبعض ملابسه ضيقة أو واسعة، والبعض الآخر لا يرتدي الحذاء العسكري (البياق) أو شعور رؤوسهم طويلة.. فأمر على الفور بحل هذه المشاكل والقضاء على هذه الملاحظات.. التي تدمر مظاهر الضبط والربط وتجعل الطلب في مظهر غير عسكري صارم.

جلس ضابط من الشئون الإدارية وسط الطلبة وسألهم..

- كيف نحل هذه الصغائر.. ماذا تريدون؟!

تبارى الطلبة في طرح الاقتراحات والآراء والحلول ووجهات النظر.. والتي شملت.. خروج الطلبة لمدة أو أكثر يحلون فيه جميع مشاكلهم على هواهم بشرط أن يعود كل طالب إلى دار المركبات دون مشاكل، تعيين مندوب من الطلبة أو الجنود يقوم بشراء احتياجات الطلبة من خارج الدار، إحضار "ترزي" حائك ملابس لضبط قياس كل طالب وتعديل (وتقييف) ملابسه الفضفاضة أو الضيقة، إحضار "حلاق" لتقصير شعر الطلبة..

وبعد أخذ ورد وتقليب الأمور على كافة أوجهها.. في ضوء محاذير منع خروج الطلبة من الدار لمدة شهر كامل.. وافقوا على البدائل الممكنة وكانت.. إحضار "حلاق" عسكري وكذلك "ترزي" لحل مشاكل الشعور

والملابس، إرسال مندوب من الطلبة إلى خارج دار المركبات لشراء أغطية الرأس "طواقي" وأمواس الحلاقة (شفرات)، ومعاجين الأسنان وفرشاتها وكريمات للجلد ومناديل ورقية وفوط وقطع صابون وخيوط وإبر ولواصق جروح، مقصات أظافر، جوارب، أربطة الأحذية ولمعانها (الورنيش).. وبخصوص الأحذية المضطربة المقاسات تم تجميعها بالاسم، لاستبدالها حسب قياس كل طالب من مخازن الجيش الرئيسية.. وفي جميع الأحوال لم يسمح بخروج أي طالب آخر من دار المركبات لمدة شهر كامل.. حسب القوانين والأوامر العسكرية.. وهذه المدة معرضة للزيادة لجميع الطلبة المشاغبيين والمخالفين وغير الملتزمين بكافة قواعد الضبط والربط العسكري.. حتى تنفذ الأوامر العسكرية ويلتزم الجميع وينضبط.. وترمي الإبرة "قترن" ويسمع رنينها وسط طابور التمام الصباحي أو المسائي على السواء..

خلال الأسبوع التالي تحسن كثيراً مظهر الطلبة كما ازدادوا انضباطاً بمواعيد اليقظة والنوم وحضور الطوابير والمحاضرات والندوات والمؤتمرات.. ويوم بعد آخر كانت مظاهر الحياة المدنية تبتعد عنهم ابتعاد سفينة عن مرفئها.. نحو مستهدفها القادم من بحور وأراض وثغور وبشر ومجهول وغيب وقدر غير معلوم.

خلال الأمسيات كان الطلبة يتهايمسون حول أيامهم الماضية.. التي ضمت شقاوات الطفولة ومغامرات الصبا والرحلات ومصادقة الفتيات ومعابثة الزميلات وأحاييل المراهقة والشباب، مع الانتقال بين الحين والآخر إلى أمانى وأحلام المستقبل في العمل والحب والزواج والسفر وتكوين الثروات.. وكان كل طالب على ثقة تامة بأن كل ما يقوله ينافي كل ما يسمعه في..: المبالغة والإدعاء والتفاخر والتباهي والتظاهر والتشوق والتحذلق والمكابرة والتعظيم والحلم والتمويه والتضليل ومداعبة المعجزات وتلبس المحال لزغلة عيون المتشكك.. وأخيراً وليس آخراً - لقتل الوقت فيما لا طائل من ورائه بمغامرات ألف ليلة وليلة من كل شكل ولون ورائحة.. وهو ما يعد نفسياً رد فعل قهري لما يعيشه الطلبة المجندون من صرامة وجفاف ورتابة وضبط وربط بعيداً عن أسرهم وحيواتهم المدنية السابقة.. والتي تقع على بُعد خطوات من الأسوار العسكرية.. وعلى الجهة الشمالية يقع شارع المرور الرئيسي، ويجاوره خط "المترو" السريع الذي يجري فوق قضبان بعرباته ذات اللونين الأزرق والأبيض معظم ساعات النهار والليل.. فكان المنظر المشرق لعربات "المترو" والوجوه المضيئة التي تطل من بعض نوافذه.. مبعث فرح وسرور لنفس أسامة - ورفاقه - الذين كانوا يغتبطون لمجرد النظر ومتابعة حركة مرور "المترو" من الشرق إلى الغرب - وكذلك العكس - والتي لا تستغرق أمام عيونهم سوى عدة ثوان.

خلال طوابير النهار التي تتم وقوفاً - أو في وضع الجلوس - كان أسامة يتابع وبكل حرص حركة عربات المترو وترنحاته فوق قضبانها.. كما كان يتم (بعد) عرباته الثلاث ويتأكد في كل مرة بأنها ثلاث - دون زيادة أو نقصان - فيسر قلبه وتنتشي حواسه وتغمر نفسه مشاعر الرضا والأمل بأن هناك حياة أخرى أكثر بهجة وأملًا في انتظاره.. وعلى بُعد خطوات منه خارج الأسوار العسكرية الحجرية الشائكة على السواء. وخلال الليل كان أسامة يستبدل عينيه بأذنيه لمتابعة ضجيج حركة العربات الثلاث "للمترو" وما يحدثه من اهتزازات في الأرض والأسقف والجدران والأسرة ولوحات التعليمات المعلقة.. فينام قرير العين بديمومة الحياة ليلاً كديمومتها نهاراً، ويرسل بإشعاعات أفكاره ومخيلته إلى أيامه القادمة بالفرح والسرور والغد

المزهر. كانت عربات المترو تخترق مشهداً معمارياً شبه ثابت، فمن جهة الشرق تقع حافة بناية عسكرية من أربعة طوابق ذات لوناً بني كالح. ثم أسفل مستوى قضبان المترو سوراً حجرياً صلدًا تعلوه الأسلاك الشائكة بلونها الرصاصي. وفي خلفية المشهد تقع جدران عدة مبان عسكرية أخرى طليت بالجير المصفر، وتتقدمها عدة أشجار كثيفة ومرتفعة من نوع "الكافور" و"الجازورينا". أما في الركن الغربي فتقع بوابة دار المركبات ذات المصراعين الحديدين الكبيرين والتي تسمح بدخول السيارات العسكرية من كافة الأحجام والأنواع. وفي أقصى غرب البوابة الرئيسية يوجد باب حديدي صغير لاستخدام الأفراد من عسكريين ومدنيين وزوار، ويظل منطقة البوابة مزينة من الأشجار ذات اللون الأخضر الغامق. راقب أسامة بكل اهتمام وتركيز حركة عربات المترو - ذات اللونين الأزرق الغامق والأبيض الناصع - وهي تتساب بكل سحر وجمال وسط باقي الألوان الفاتئة في مجملها والممتعة في تأثيرها على نفسه الغضة ومشاعره الرقيقة وأحاسيسه المرفهة، والبعيدة تمامًا إلا عن ذهن الفنان.. لمن الذي يجرؤ؟!.. داخل وحدة عسكرية على الاستمتاع بالتناسق اللوني والتعدد السطحي والتمازج الكينوني والتشييد المبهج للمباني العسكرية المبنية من الطوب البني، والأسوار الحجرية والأسلاك الشائكة ذات اللون الرصاصي والجدران الجيرية المصفرة، والأشجار الخضراء وحديد البوابات المجهول اللون والأصل والعديم الإحساس والشعور. وكل ذلك يتماوج بلون عربات المترو - الأبيض والأزرق - مع تماوج أفكار أسامة.. فيما كان وكائن وسيكون من مفردات حياته الماضية والحاضرة والمستقبلية. حينما كان يغفو أسامة يملأ أذنيه بضجيج حركة "المترو" كان يرى بوضوح شديد تفاصيل كل ما يحيط عرباته الثلاث، خلف جفنيه المطبقين كشاشتين فضيتين تعملان وسط الظلام الدامس كقاعدة مترامية الأطراف ولا تضم سواه.. لشدة تفرد وتميزه وخصوصيته وندرته. تمنى أسامة لو أن لديه آلة تصوير "سينمائية" للاحتفاظ بكافة مفردات المشهد الحيوي - بالصوت والصورة - رغم تشككه في وجود من يقدره سواه.

بتراكم الأيام خلف الأبواب المغلقة ظهرت مشكلة نظافة أجساد وملابس الطلبة المحتجزين لمدة شهر داخل أسوار دار المركبات المحمية بالأسلاك الشائكة، فعدد الحمامات والصنابير والمغاسل و"الأدشاش" كان غير ملائم تمامًا لعدد البشر المضطرين للمحافظة على نظافتهم العامة والخاصة، وبعد عدة مجادلات مع الإدارة تقرر أن يستحم الطلبة جماعات بعد أن يرتدوا جميعاً "المايوهات" أو "السليبات" وما شابه، ثم يقف المستحمون تحت فوهات المياه، السبع المتراسة داخل غرفة واحدة بطريقة بدائية، فيشعر الطلبة أثناء دعكهم لرؤوسهم وأجسادهم.. وكأنهم على شاطئ البحر، يزيلون مياهه المالحة بالمياه العذبة.. للقوات المسلحة بدار المركبات العسكرية، تردد الطلبة في البداية وخجلوا من مواجهة بعضهم البعض عرايا -إلا من ورقة التوت إياها- لكنهم كتبوا مشاعرهم وجمدوا إحساسهم عندما لم يجدوا أي حل آخر يزيل أوساخهم (ويكحت) قذارتهم وعفانتهم بعيداً عن أجسادهم ورؤوسهم المعرضة للنتانة.. ومن ثم الأمراض والأوبئة والجراثيم.

وبخصوص الملابس كان الأمر أقل مرارة.. إذ اتفق الطلبة فيما بينهم على تقسيم ساعات الليل، بدءاً من الثامنة مساءً إلى السادسة صباحاً، للجلوس أسفل صنابير المياه الشحيحة.. لدعك وغسيل ملابسهم السميكة بالأيدي والأقدام والعصي والألواح الخشبية.. بعد إغراقها بالماء والصابون السائل والمسحوق. وخشي الطلبة

من سرقة ملابسهم أثناء ساعات تجفيفها فوق سطوح المباني.. ففضلوا نشرها داخل قاعات نومهم المخفورة بأحدهم، طوال مدة تواجدهم خارجها نهاراً وليلاً.. مما بعثر روائح صابون الملابس وأبخرتها حول أسرة النوم.. التي احتملت من جموع الطلبة في مقابل الخوف غير المحتمل من سرقة الملابس ذاتها.

كانت الحياة العسكرية لأسامة - ورفاقه - قدراً لا مفر منه - وتجربة لا هروب منها- وبوتقة لصهر الرجال.. ونقلهم من حياة ناعمة إلى حياة خشنة بكل المقاييس ومرفوضة بكل الاعتبارات. فمن ذا الذي يقبل طواعية.. أن يحتجز داخل أسوار شائكة..؟! ليدرب ويأكل وينام ويستحم ويغسل.. من شباب "جامعي" جامح الخيال والأحلام والأمانى والفكر.. وبالنسبة لأسامة كانت لديه بعض الخبرات السابقة لحياة معسكرات "الفتوة" والخدمة العامة في الصحاري والوديان.. لكن الإيجار على مثل هذه الحياة تحت ظلال القوانين والشرطة العسكرية والمحاكمات والسجن الحربي كان له مذاق العلقم والسم في آن. لذا كان السؤال اليومي لأسامة - ورفاقه - في كل صباح هو.. متى وأين ستنتهي كل تلك المرارة..؟! وسط سيل التبريرات المتلاحقة من السادة الضباط ذوي الرتب المتعددة بقولهم نحن نصنع رجالاً.. ستخرجون من هنا رجالاً.. ستذكرون طوال أعماركم من الذي حولكم إلى رجال..؟!.. مصر في أشد الحاجة إلى رجال.. لبنائها والدفاع عنها وتطهيرها من الخونة والعملاء.. انهمك الطلبة في التدريب النظري والعمل، ونظراً لخبراتهم الهندسية الجامعية، فقد جذبهم كثيراً كل الوقت الذي يقضونه داخل ورش تفكيك وتجميع كافة أجزاء السيارات.. مثل المحركات وصناديق "التروس" وعدادات السرعة والمسافة والحرارة والتوصيلات المعدنية المتعددة.. أيضاً زاد ذلك من عشقهم للتطبيقات الحسابية والعلائق المتبادلة بين كل جزء صغير في السيارة وباقي الأجزاء، بدءاً من "المسامير والصواميل" الصغيرة إلى أعمدة نقل الحركة والمكابيس وشموع الاشتعال.. فتبارى الطلاب في فهمها والنقاش حولها بكثير من الإدعاء والتباهي والتفاخر.. وشارك أسامة في كل ذلك كما حصر على ذكر أسماء الأساتذة الذين شرحوا له هذه النظرية الميكانيكية وتلك الفرضية الرياضية عن العلاقات المتشابكة والمتنامية بين السرعة وقوة الدفع والتشغيل والطاقة والقدرة وثقل الرطل "الباوند" والكيلو جرام و"الأحصنة" الميكانيكية.. وكذلك فوائد البنزين والسولار والزيت والشحم والمياه والهواء والمرشحات "الفلاتر".. وكل ما يساهم في تحريك السيارة بكل يسر وسهولة وأمان.. ووجد أسامة في الدراسات النظرية والعملية للسيارات سعادته القصوى التي لم يكن يعادلها سوى نشوته القصوى - أيضاً - بالاطمئنان إلى تناول ثلاث وجبات يومياً في مواعيد محددة، إضافة إلى سوائل الشاي والقهوة والمياه الغازية.. التي كانت توزع كترفيه في بعض الأمسيات ودون أن يطالبه أحد بتمنّها.

عندما ينظر أسامة إلى أيامه القريبة الهاربة كان يجد كم من القلق والاضطراب الذاتي في تناقص.. بفضل ما جد في حياته من نظام وصرامة وضبط وربط وتعليم وتدريب ورياضة وثقافة وغسيل ونظافة وخشونة وزمالة وصداقة.. وطعام عسكري.. وإلى جوار التدريب داخل الورش العسكرية نظم لجميع الطلاب دورة تدريبية - عملية ونظرية- لقيادات السيارات تمهيداً لمنحهم "رخص القيادة الخاصة" الأنظمة المرورية المحلية والعالمية.. فوقع ذلك الأمر في نفوس الطلاب بكل ترحيب وحبور.. إذ إن نصفهم على الأقل كان يحلم بالعمل كسائق أجرة "تاكسي" عقب انتهاء فترة التجنيد.. بسبب قلة فرص العمل المتاحة من ناحية، وبسبب ما

يدره هذا العمل الحركي من أموال وعلاقات اجتماعية وإنسانية.. وخاصة مع الجنس الآخر. في نهاية اليوم العشرين اجتمع "سيادة العقيد أركان الحرب" قائد دار المركبات مع الطلبة في مؤتمر مفتوح.. افتتحه وسط أركان قيادته بالقول الناجز والموجز في آن..

- أيها الطلبة المتدربون.. بذلنا من أجلكم كل ما في حوزتنا من إمكانيات شحيحة في الأساس.. لا يتوفر نصفها لمن يتواجدون على جبهات القتال. مصرُّنا هي مصرُّكم.. هي مصر الخالدة أبد الدهر.. التي تطالبكم بالوفاء لها وبذل الغالي.. والنفيس لحمايتها والدفاع عنها.. أرواحنا جميعاً فداء لمصر.. لم نقصر معكم، وعليه لا نتوقع منكم أي تقصير في الواجبات العسكرية والضبط والربط.. وعقب هذا الكلام الدسم وزعت على الطلبة والجنود الأطعمة الأكثر دسماً.. والتي شملت اللحوم وزجاجات "الكولا" والحلوى مما زاد الجو ألفة وحميمية.. فإذ ببعض الطلبة "المرفهين" يعرضون شكواهم من الاستيقاظ المبكر ومشقة طوابير التدريب العملي وسوء طهي الطعام وقلة نظافته.. ثم ذكروا تحديداً وجبة "المسقة" التي يقدم فيها "الباذنجان" الأسود.. سيئ الطهي قليل النظافة عديم الطعم والرائحة مؤذياً للعين والبطن والأعصاب.. وتجراً بعض الطلبة فطالبوا بإلغاء وجبة "المسقة" العسكرية واستبدالها بأي شيء آخر ولو كان حتى "فول" أو "عدس".. وقال أحدهم..

- قضاء أخف من قضاء..!!

وخلال هذه القلائل "المسقة" لمح أسامة - بكل وضوح - ملامح "سيادة العقيد أركان الحرب" وهي تتلوى غيظاً وقهراً.. وكمدًا.. والذي انتفض صارخاً..

- ثابت.. أيها المنحليين.. أين قواعد الضبط والربط التي نوصيكم بها ليلاً ونهاراً.. هل نسيتم أننا عسكريون..؟!.. كيف تتحدثون بهذه المياعة والخنوثة..؟! في الوقت الذي تشكون فيه من سوء طبخ "الباذنجان" لا يجده أقرانكم على الجبهة.. بل إنهم يتمنون أكله نيئاً..!! لقد مرت عليّ أيام كثيرة وأنا أعيش في خندق رملي على ضوء لمبة "جاز".. وأقَات على الخبز الجاف والعفن..!! بل إنني كنت أدخر ببقاياه وفتافيته الصلدة وأطحنها بحجر "زلطة" ثم أجمع مسحوقها النتن الرائحة الذي أبتلعه مرغماً..!!.. عندما يتأخر توزيع الطعام علينا.. بسبب بُعد الوحدات العسكرية وتفرقها وصعوبة الوصول إليها، وتشكون من "المسقة" النينة لأنكم مدنيون منحلون لا تقدرون المسؤولية ولا تعرفون قيمة ما أنتم فيه من نعيم واسترخاء "ورحرحة".. أنتم لستم في بيوتكم الوثيرة.. أنتم في وحدة عسكرية.. تذكروا ذلك جيداً.. وإزاء ما رأيته وسمعته الليلة.. فإن فترة الثلاثين يوماً ستزداد إلى أربعين.. لتزدادوا خشونة ورجولة وضبط وربط.. الله.. الوطن..

غمر الاضطراب "سيادة العقيد أركان حرب" قائد دار المركبات وهو يلفظ عبارته الأخيرة.. في غيظ وتوتر بالغين، وبدا أن بناءً ضخماً وغير مرئي لقيم مجهولة.. قد تم تفجيرها..!!.. بالتصرفات العابثة لبعض الطلبة المنحليين، الذين لم يفهموا (حتى تاريخه) التقاليد العسكرية وثوابت الضبط والربط، فبينما هؤلاء المتخاذلين يتذمرون من "المسقة" كان الآلاف يموتون في مجاهل إفريقيا وجنوب شرق آسيا جوعاً وفقراً ومرضاً.. وإذا كان الضبط والربط قد تخلى عن هؤلاء المنافقين.. فهل تخلى عنهم أيضاً حيائهم وفطنتهم..؟!..

زيادة فترة احتجاز الطلبة إلى أربعين يوماً.. نزلت على الجميع كالمصاعقة، وخاصة وأن بعضهم انهمك في العد التنازلي للأيام الباقية ليتمكن من رؤية أهله وأحبابه وخلانه.. فإذا بالرياح تأتي بما لا تشتهي السفن!!..

وإدراكاً من الإدارة بكارثية ما حدث، تعمدت إرسال جميع الطلبة إلى زيارات خارجية للوحدات العسكرية المجاورة.. والتي شملت رئاسة المنطقة المركزية ومستشفى القوات المسلحة والمستشفيات المؤقتة والمتنقلة وورش المركبات الرئيسية والفرعية - الثابتة والمتحركة - وسلاح الأشغال العسكرية ومراكز التمويه وشئون الأفراد والدفاع الجوي والمتاحف والمخازن العسكرية ومراكز الإمداد والتموين..

واصل أسامة مراقبة حركة عربات المترو والتدريب والدراسة والإعاشة والتعرف على زملائه وتبادل الذكريات معهم..

عند انتهاء فترة الأربعين يوماً سُمح لجميع الطلبة بمغادرة دار المركبات والعودة إلى أهلهم ومواطنهم في أجازة بلغت سبعة أيام كاملة للراحة والاستجمام ونسيان ما فات والاستعداد لما هو آت والذي شمل تكثيف للتدريب العملي داخل ورش المركبات الثابتة والمتنقلة وعدة "مشروعات" للرمية واستخدام الأسلحة الشخصية المختلفة والتحرك في جماعات وطوابير ووحدات..

وبعد فترة ستة شهور انتهت البرامج التدريبية الأساسية للطلبة، وتحدد يوم لتخرج دفعتهم وإشهار تأهيلهم للخدمة داخل أفرع القوات المسلحة كضباط احتياط..

صباح يوم التخرج ارتدى الجميع أفضل ما لديهم من ثياب، ثم نقلوا إلى مكان الاحتفال، والذي كان عبارة عن ملعب كرة قدم حدد فيه مساحة لكل أفرع القوات المسلحة، وفي المواجهة أقيمت منصة - على عجل - تحيطها الأعلام والبيارق والحراش والشعارات وأسر بعض الطلبة من الخريجين.

قرب الظهر حضر "سيادة اللواء أركان الحرب" نائباً عن سيادة الفريق أول أركان الحرب وزير الدفاع لاعتماد تخريج الدفعة.. والذي خطب بصوت جهوري قائلاً..

- الضباط والجنود.. أنقل إليكم تحيات سيادة وزير الدفاع.. الذي منعه مشاغله الكثيرة من الحضور إليكم. جميعاً فخور بما وصلتم إليه من مستويات جيدة في التدريب والدراسة والضبط والربط. نحن ننتظر منكم الكثير.. قواتكم المسلحة في أشد الحاجة لجهودكم العلمية الفنية. قواتكم المسلحة ستنمو وتكبر وتقوى بخبراتكم المتنوعة. المقاييس العلمية والفنية هي ما تحكم وتسود حياتنا داخل وخارج الجيش.. جيش مصر في خدمة ترابها وصيانة حدودها ومقدراتها.. بذلنا كل ما لدينا من جهد وطاقة وفكر وخبرات، وعليكم أنتم استكمال ما بدأناه. الطريق ما زال طويلاً.. ونحن على العهد ساعون.. وعقب ذلك الخطاب "المتين" وزعت النياشين والميداليات والكؤوس" على بعض الطلبة المتفوقين ثم أنشد الجميع لمصر ورددوا جميعاً قسم الولاء لها - في السلم والحرب - وهتفوا بحياتها وخلودها..

وتوالت الأحضان والقبلات.. والتي على دفئها سعى بعض الخريجين لتثبيت تعيينهم في محيط القاهرة الكبرى.. أو قرب مواطنهم الأصلية - وبعبارة أكثر دقة - قرب منازلهم لينعموا بحنان الوالدين وباقي الأهل والأحباب والأصحاب والمعارف والجيران..

ولما كان "حضرة الضابط الملازم أسامة محمد المصري" ينحو في حياته نحو المثالية ويميل في سلوكه نحو النموذجية.. فقد استوت عنده كافة ربوع مصر الحبيبة.. لجبالها وصحاريها ووديانها وطينها ورمليها وجهاتها الأربع.. متجاهلاً أنه ليس له سوى ظهره الشخصي في نفس هذه الربوع والجهات...!!.. فكلف بالخدمة العسكرية داخل ورشة مركبات متقلة ومتمركزة في الصحراء الواقعة جنوب شرق القاهرة.

خصصت الورشة للإصلاح السريع والمتوسط الأجل (المدة) لخدمة ما يحيطها من المركبات (السيارات) للوحدات العسكرية الواقعة في محيطها. وتوجب على أسامة الإحاطة بكل ما يدور داخلها من أعمال "الميكانيكا والكهرباء والسمكرة والطلاء (الدوكو) وتبديل القطع التالفة والإصلاح والتغيير والإحلال والتجديد والتكهين..". نشط أسامة في تحمل مسؤولياته وتنفيذها على أدق وجه، فتعرف على ما بداخل وخارج وحدته العسكرية وحدد أماكن مخازن قطع الغيار التي سيضطر للتعامل المنتظم معها، وكذلك الورش العسكرية الأخرى التي قد يلجأ إليها لاستكمال أعماله فيها، أو لطلب معونتها وتبادل المنافع العسكرية والإنسانية مع كوادرها. وبجانب أعمال المركبات كانت هناك الواجبات المعتادة - في وحدات المشاة العسكرية - من سلاح وذخيرة وطوابير وتدريب ومطعم وخدمات وحراسات ونوبات "نوبتجيات" (برنجي وكنجي وشنجي) وتتميم (في الصباح والمساء).. وتحية للعلم.

نظراً لقرب ورشة المركبات العسكرية من المداخل الجنوبية الشرقية لمدينة القاهرة، حرص قائد الورشة - سيادة الرائد - على تدبير سيارة نقل مجهزة بغطاء سميك من التيل لنقل "المبيت" يومياً، وهو مكون من مجموعات السادة الضباط والجنود والمدنيين العاملين بالورشة.. والذين تسكن أسرهم داخل وحول القاهرة. فينقلون الساعة الرابعة عصرًا من الورشة إلى أقرب محطة حافلات عامة ثم تعود السيارة "بالمبيت" صباح اليوم التالي من الساعة السابعة ليتمكن الجميع من بدء العمل الفني والإداري داخل الورشة في الثامنة صباحاً.. حتى الرابعة عصرًا فتعاد الكرة. وانضم أسامة إلى قوة "المبيت للنزهة في أرجاء العاصمة ولزيارة بعض معارضه وأقاربه القلائل في أحيائها المترامية. وفي بعض الليالي كان أسامة يعود إلى ثكنته العسكرية قبل الساعة الرابعة صباحاً.. عن طريق المواصلات العامة وسيارات الأجرة والجيش.. التي لا تتقطع حركتها طوال ساعات الليل والنهار.

وخصص لحضرة الضابط المهندس ملازم احتياط أسامة محمد المصري غرفة خشبية للمبيت داخلها، وكان يشاركه فيها الضابط "النوبتجي" المناوب والمسئول عن كافة مهام وحراسات ومفردات الورشة العسكرية طوال ساعات المبيت. ضمت الغرفة سريرين ودولابين من الحديد والصاج ومقعدين ومكتب من الخشب.. ملحق بها دورة مياه ومطبخ صغير بجوار مكتب قائد الورشة ونائبه.. الذي يحفه حديقة صغيرة من الزهور وأشجار "الكافور والجازورينا" والأخشاب الملونة.

معيشة أسامة داخل الغرفة الخشبية أتاح له التعرف الشخصي والاجتماعي على زملائه من السادة الضباط المناوبين والذين كانوا يتغيرون يوميًا حسب جدول دقيق. كما عمل جنود الخدمة - داخل الثكنة - والمطبخ - على القيام بأعمال النظافة وغسيل الملابس وإعداد الطعام لأسامة، جنبًا إلى جنب مع تلبية الطلبات المماثلة للضباط المناوب، وفي بعض الليالي كان أسامة يتولى مسئولية النوبة (النوبتجية) بدلاً عن زملائه.. الذين تضطروهم ظروفهم العائلية لمغادرة الورشة في أية ساعة من الليل.. بسبب مرض أطفالهم أو توعك زوجاتهم وأشقياتهم وشقيقاتهم أو الذهاب للمستشفيات أو المرض المفاجئ لضابط النوبة نفسه.. فيقولون لأسامة..

- الورشة ورشتك، نحن نعتد عليك هنا.. يا بطل، نحن مثقلون بأسرنا وأطفالنا، وأنت خفيف المسئولية.. لقد أرسلك الله لنا.. أنت هدية من السماء الرحيمة.. تولى مسئولية النوبة (النوبتجية) حتى صباح الغد.. ولا تخبر سيادة قائد الورشة عن انصرافنا الطارئ.. بارك الله فيك.. عندما ستعيش في ظروفنا ستصرف مثلنا.. وربما أكثر.. وكانت هذه الطوارئ الليلية تكثر طوال فصل الشتاء.. فيرحب بها أسامة لصعوبة المواصلات وربما لتعذرها.

خلال عمل أسامة مع زميله حضرة الضابط المهندس الملازم عمرو.. أخبره بعمله كسائق تاكسي لزيادة دخله المادي، خلال ساعات فراغه خارج الورشة، ثم نصح أسامة بتقليده جلبًا للمال الذي لا غناء عنه.. واستفادة من الوقت المهدور دون طائل.. والذي يبلغ عدة ساعات يوميًا. وبعد تردد اقتنع أسامة بالفكرة على أن يبقى الأمر سرًا.

توجه أسامة إلى لقاء عمرو في مقهى "القبة الفداوية" بحي العباسية. وهناك تعرف إلى مالكي وسائقي سيارات الأجرة (التاكسي) واتفق مع بعضهم على العمل كسائق.. بعد تفحص كافة أوراقه الثبوتية وفي مقدمتها رخصة القيادة. حركة تسلم وتسليم سيارة الأجرة والعمليات الحسابية كانت تبدأ وتنتهي في محيط المقهى.. وسط ضباب أدخنة النرجيلة والفحم ولفافات التبغ الخالية والمحشوة (المعمرة) بكل ما لذ وطاب من مخدرات ومغيبات.. وفي أهون الظروف أكواب الشاي المغلي عديم الطعم واللون والرائحة.

تجول أسامة بسيارات (التاكسي) الأجرة في كافة أرجاء القاهرة، ينقل المرضى والمتسرعين والمضطربين والمتعجلين للانتقال من حي إلى حي، ومن شارع إلى زقاق ومن مبنى حكومي إلى مبنى شعبي، ومن منزل إلى مدرسة أو مستشفى.. وبالعكس. وخلال دقائق توقف سيارة الأجرة في التفرعات والمداخل والمخارج وإشارات المرور وعلى جانب الطرقات والمباني.. كانت أحاديث الركاب تصك أذني أسامة فيستمع إلى أحاديثهم الضجرة والمضجرة - في آن - بسبب ما تضمنه من شكوى وأنين وسفاهة.. فلا أحد راضي بحاله ولا أحد قانع بمآله.. والكل في حالة شكوى دائمة من ارتفاع تكاليف المعيشة وفداحة أثمانها وأسعارها ومتطلباتها وواجباتها.. مع قلة الحمد والشكر لله رب السماوات والأرض والسيارات والمباني والطرق والكباري والقوات المسلحة والقوات غير المسلحة..

و ذات مساء أقل أسامة امرأة متوسطة العمر بصحبة طفل وطفلة، وما أن جلسوا في المقعد الخلفي حتى أخذت المرأة في زجر الطفلين بعصبية..

- ضحيت بمستقبلي من أجلكما.. ألا تقدران ما نحن فيه من ضنك.. لماذا لا تجدان في استذكار دروسكما وتؤديان فروضكما المدرسية...؟!.. متى ستعتمدان على أنفسكما وتريحاني...؟!..

- يا ماما.. أنا في حاجة إلى مدرس خاص..!!..

- وأنا أيضاً.. المواد الدراسية صعبة وغامضة..!!..

- أنا أشرح لكما كل شيء.. وأنتما لا تتصتان إلي..!!..

- أنتِ تتحدثين بسرعة.. وتتركينا أثناء الشرح.. لتذهبي إلى المطبخ أو الحمام..!!.. فلا نفهم ما تقولين..!!..

- وهل أذهب إلى المطبخ لألعب...؟!..

كلما توقفت سيارة التاكسي يتدخل أسامة لتهدئة نائرة الأم التي بدت مُتشنجة ومُشتتة ومُرهقة.. وفي حومة النقاش حول الدروس الخصوصية وعلاقتها.. عرض أسامة على الأم استعداده للعمل كمدرس خاص لطفليها.. فوافقت على أن يحضر إليها مرتان كل أسبوع مقابل بعض المال، ثم زودته بعنوان وتليفونات شقتها وعملها كمحاسبة في بنك مصر فرع... تضاعفت الواجبات على كتفي أسامة.. الذي أصبح عليه المواعمة بين عمله العسكري وعمله كسائق سيارة أجرة (تاكسي) ومدرس (خصوصي) بالمرحلة الابتدائية.. والذي شرع في ممارسته بالذهاب عصر يوم جمعة على شقة السيدة محاسن، عقب إخبارها تليفونياً بموعد قدومه.. والذي رأى فيه السيدة مريم شقيقة السيدة محاسن تشارك في استقباله على باب الشقة ثم تجلسان معاً، على مقربة من موضع تلقي الطفلين للدرس.. جلس أسامة فوق أريكة في حجرة الاستقبال وعلى يمينه جلس الصغير (وحيد) وعلى يساره جلست الصغيرة (نجاة) - وأعمارهما تسع وثمان سنوات - وأمامهم رُصت الكتب والدفاتر والأوراق والأقلام وأكواب العصائر والماء.. على امتداد حجرة الاستقبال أعدت غرفة المائدة (الطعام) وفي أحد أركانها جلست الشقيقتان تنتهامسان عن الأسعار المتزايدة ومحلات بيع الملابس والأحذية والضروريات المنزلية.. غرفتي الجلوس والمائدة تكونان معاً قاعة فسيحة تضم باب الشقة العريض ونافذتين وممر داخلي إلى باقي الشقة.. التي زينت جدرانها باللوحات الزيتية -الكبيرة- والمصابيح الملونة وتدلّت الثريات - الضخمة والثرينة - من سقفها وفرشت أرضها بالسجاد الغامق الألوان.. ووزعت في جنباتها المقاعد ودواليب حفظ الكتب والأطباق والفاناجيل وأطقم الصيني والشوك والملاعق والسكاكين والأغطية البلاستيكية الصغيرة والكبيرة.. وفوق منضدة منخفضة وضعت أجهزة التليفزيون والتلفاز والمذياع - جنباً إلى جنب - وكانت مغلقة خلال ذلك الوقت.

تناسق الألوان - رغم تعددها - داخل القاعة الفسيحة دل على ذوق رفيع، وتناسق توزيع المفروشات والأثاث وشى بحس مرهف تجاه الحياة الأيام والليالي والبشر والجماد (قماشاً ونحاساً وصلباً وطوباً ولدائناً وزجاجاً..).

استمر شرح الدروس لحوالي الساعتين وشمل مواد العلوم والجغرافيا واللغة العربية والحساب.. فكان أسامة يلتفت يميناً ليشرح لوحيد دروسه.. بينما شقيقته نجاة تسجل وتذاكر واجباتها ودروسها.. ثم يستدير يساراً ليشرح لنجاة دروسها.. بينما شقيقها وحيد يراجع ما سمعه ويتأكد من تمام فهمه ووضوحه له، وخلال ذلك الوقت كانت الشقيقتان تتبادلان النهوض للذهاب إلى الحمام والمطبخ أو باقي الغرف الداخلية، ثم تعودان للجلوس واستكمال حديثهما المتقطع.. و الذي كان يصل إلى أسماع أسامة ووحيد ونجاة بصورة خافتة ومبهمة.. فلا يعيق ما يطرح من أسئلة وما يتبعها من أجوبة وشرح مستفيض.

الشقيقتان كانتا ترتديان الملابس الأنيقة المحتشمة والتي تعود "موضتها" إلى عدة سنوات ماضية، وكذلك تسريحتي شعرهما وما تضعان من حلي وزينة.. وإن بدت السيدة محاسن أصغر عمراً وأكثر جمالاً ورشاقة.. رغم نظراتها الجادة والحزينة في آن.

عندما بدا الإرهاق على الصغيرين.. فضل أسامة التوقف عن الشرح والتوضيح.. فودع الجميع منصرفاً، وخلال توجهه إلى باب الخروج.. لمح صورة وجه رجل (بورترية) معلقة جهة اليسار.. وشريطاً أسود مائلاً مثبتاً على ركنها الأيمن..!! كلمات الثناء وعبارات الشكر غمرت أسامة وهو يغادر الشقة واعدًا بالعودة خلال يومين على الأكثر.

تجول أسامة داخل "التاكسي" في شوارع شبوا، وكان يرى أمامه البشر والسيارات وإشارات المرور واللافتات مختلطة بوجوه أسرة السيدة محاسن وشقيقتها السيدة مريم. إشارة المرور الحمراء احتوت - أيضاً- على بعض حمرة خدود السيدتين الكريميتين، أما الإشارة الخضراء فقد دغدغت مشاعر أسامة.. بالأمل في أيام حلوة قادمة ولحظات سعادة آتية.. تغطي على اللون الأصفر لجميع إشارات المرور المحلية والعالمية وتغطي على كل حبة رمل -في جميع صحاري العالم- بألوان أكثر بهجة ونضارة..

ما أن تجمع مبلغ ملائم من المال لدى أسامة من حصيلة عمله في الجيش و"التاكسي" و"الدروس الخصوصية" و"التعليم" حتى سافر جنوباً إلى أسرته.. التي فرحت لمقدمه ولما يرتديه من ملابس عسكرية، تحمل رتبة حضرة الضابط المهندس الملازم احتياط أسامة محمد المصري، والمتمثلة في نجمة خماسية الأطراف فوق كتفيه.. تبرق كلؤلؤة كلما استدار أو مرق بجانب النوافذ والأبواب ولمبات الإنارة. فرحت نجية بابنها الذي عاد إليها ضابطاً "قد الدنيا" تفاخر به جيرانها وأقاربها ومعارفها.. ثم تحكي عن ملابسه وكثرة ما فيها من جيوب خالية وأزرار نحاسية وخيوط متينة.. تستعصي على القطع والضم وتتحدى كل ما لديها من مقصات وسكاكين وشفرات.

أما شقيقي أسامة فقد فرحا كثيراً بنفحاته المالية التي مكنتهما من الذهاب إلى دور السينما وشراء ما يحبانه من ملابس وطعام وكتب وجرائد ومجلات.. عم السرور أسرة أسامة الذي حرص على التحية والسلام على كافة جيرانه ومعارفه.. وفي مقدمتهم فردوس التي أطلقت الزغاريد لمرآه المبهج وهيئته العفية والمتفجرة بكل طاقة وحيوية، والواعدة بكل متعة لمن يتمكن من احتوائها وامتصاصها حتى الثمالة عقب وجبة أرز باللبن الطازج.. الذي قدمته فردوس لأسامة ذات مساء ونالت منه ما تبتغيه بكل ترحيب وحبور. قضى أسامة

في أحضان أسرته قرابة الثلاث أيام، عاد بعدها إلى الورشة العسكرية.. بعد ساعات سفر بالقطار والحافلات جاوزت العشر ساعات.

استغرق أسامة في عمله العسكري لثلاثة أيام، خرج بعدها إلى العباسية لاستلام "التاكسي" .. الذي قاده إلى شبرا للقيام بواجبه التعليمي لطفلي السيدة مريم. وخلال هذا الدرس علم أسامة من الطفلين.. أن "بورترية" الحزن يخص أبيهما الذي "سافر بلا عودة" إلى السماء...!!

في موعد الدرس الثالث استقبلت السيدة محاسن وبرفقتها صديقتها السيدة نورا.. الأستاذ أسامة الذي يساعد طفليها، في فهم دروسهما وما غمض عليهما من مفردات العملية التعليمية. وفي موعد الدرس الرابع جلست السيدة محاسن مع السيدة فاتن زوجة شقيقها محسن.. بينما كان الأستاذ أسامة يجمع وي طرح ويضرب في المسائل الحسابية للطفلين. أما في موعد الدرس الخامس فقد حظيت السيدة فاطمة بشرف الضيافة لدى السيدة محاسن جارتها - في نفس المنزل - أثناء انهماك الأستاذ أسامة في شرح البحار والمحيطات والخلجان والقارات التي تتخللها بعض الأنهار في درس الجغرافيا للطفلين. وتمكن الشقيق محسن من الحضور لزيارة شقيقته محاسن - قبل بدء درس اللغة العربية للطفلين - فتابع بعض تشكيلات الفاعل والفعل والمفعول به والمرفوع والمنصوب والمجرور.. وفي نهاية الدرس همس إلى شقيقته بأنه من الأفضل لها استبدال الأستاذ أسامة بأستاذة.. حرصاً على سمعتها وتجنباً للأقاويل والإشاعات التي حتماً ستتبعثر حولها.. مهما استضافت من صديقات وجارات وزميلات وأقارب.. وختم نصائحه بالقول..

- يا محاسن أنت سيدة عاقلة وأرملة.. كيف ستمنعين الألسنة من التفحش..؟!.. ومن أين ستأتين بحارسات لك..؟ مرتين كل أسبوع.. ومعظمنا مشغول بشئونه. وحياته...!!.. إذا وجدت صديقة اليوم.. فلن تجديها غداً...!!

قررت السيدة محاسن البحث عن أستاذة لطفليها حتى "تبعد عن الشر وتغني له" لكن طفليها كانا لهما رأي آخر.. إذ قال لها وحيد..

- عمو أسامة شاطر جداً.. يشرح الحاجة الواحدة عدة مرات ويبسط كل شيء لنا حتى نفهمه ونحفظه. وقالت لها نجاة..

- عمو أسامة مدرسة كاملة.. يعمل كمجموعة مدرسين ولا يمل من الإعادة والتكرار.. إننا لا نريد غيره...!!

وخلال فترة البحث عن بديلة، حظيت بواجب الضيافة لدى السيدة محاسن حماتها السيدة عائشة (أم زوجها المتوفى) ثم أيمن شقيقه الأكبر.. اللذان أبديا اعتراضات وتحذيرات مماثلة.. من شخص الأستاذ أسامة وطريقة تواجده في حياة السيدة محاسن وطفليها.. اللذين عمهما القلق والاضطراب لفكرة حرمانهما من الدراسة التعليمية والتربوية على يدي "عمو أسامة".. في وجود صديقة أو قريبة أو جارة في ضيافتهم.. أو حتى في عدم وجود أي أحد على الإطلاق...!!

حضرة الضابط المهندس الملازم احتياط أسامة محمد المصري لم يكن كتلة من الأحجار.. رغم تربيته العسكرية وطفولته البائسة، فأدرك اليوم أن فقد الأب والزوج بؤس آخر.. لا يقل ضراوة عن بؤس الفقر والجهل والمرض.. الذي خبره بشدة طوال سنوات نشأته العدمية والمحاقة في آن، إلا أن قدرته الكامنة وذاته المتحدية والمتمردة - في آن أيضاً - مكنته من الصمود وقهر ظروفه السالبة لكل طاقة ولكل فعل إيجابي.. فأحس أسامة ببعض العطف تجاه الطفلين، وكان يسأل نفسه أحياناً..

- ما ذنب وحيد ونجاة في فقد أبيهما..؟!.. وما ذنب السيدة محاسن في الحياة كأرملة..؟!.. هل هذا اليتيم المبكر والترمل العاجل عقاب لذنوب ما..؟!.. وإذا جاز هذا الذنب على الأم.. فكيف يجوز على الطفلين..؟.. حتماً هناك خطأ ما في الصيرورة الكونية..!!

حارت بصيرة أسامة عندما اختلطت معاناة محاسن وطفليها بمعاناته الشخصية، وأدرك مرة أخرى أن الحياة بها كثير من المعاناة غير المبررة وغير المحتملة..!! زادت ألفة التعامل بين أسامة والطفلين، فشرع في ممازحتهما وتهوين الأمور عليهما.. بل إنه شعر نحوهما بمشاعر الإخوة والأبوة - في آن - ووجد نفسه آلياً يحرص على شراء بعض الهدايا البسيطة للطفلين.. مثل أقلام الكتابة وعلب الألوان والمناديل الورقية ودفاتر الرسم والصور والخرائط الملونة وبعض الحلوى والبالونات.. رغم الاعتراضات المتكررة للسيدة محاسن.. والتي بوغتت ذات مساء من قول أسامة..

- طفليك مثل أبنائي..!!

استمرت المكالمات التليفونية تطالب السيدة محاسن بالبحث عن "أستاذة" لطفليها.. بدلاً من أسامة رجل الجيش والسيارات الأجرة (التاكسي). وكانت السيدة عائشة (الحماة) هي الأكثر إلحاحاً في هذا الأمر.. والذي وصل إلى حد توقفها عن زيارتها الشهرية لحفيديها حتى يتحقق ما تطلبه. وقعت السيدة محاسن في حيرة بين ارتياح طفليها لشخص أسامة وكراهية باقي الأسرة له. تلك الأسرة التي اكتفت بتوجيه اللوم والملاحظات الجارحة، دون تقديم مساعدة حقيقية للسيدة محاسن.. التي أحست بسليبتهم التامة.. بل بتشفيهم فيما هي فيه من تشتت بين واجبات عملها البنكي الدقيق ورعاية طفليها والسهر على شئونهما، ثم الاضطرار للذهاب إلى شركة المياه والكهرباء والتليفون وأسواق الفاكهة والخضراوات ومحلات البقالة والسباكة والمكتبات والملابس.. من أجل قضاء مصالح أسرتها الصغيرة وتصريف شئونها. رأت السيدة محاسن أن اختفاء أسامة من حياتها سيزيد من أعبائها الحياتية - في ظل تمسك الطفلين به - إلا أنها قررت الاستغناء عنه في حالة ظهور بديل مناسب يتولى شئون الطفلين. فواصلت السيدة محاسن استضافة قريباتها وجاراتها خلال أوقات تواجد أسامة داخل شقتها. وبمرور الأيام ادعت السيدة محاسن لكل من يرى أسامة لأول مرة - أو يتحدث عنه - بوجود صلة قرابة بعيدة بينهما.. حتى تعود بواب العمارة وجيرانها على تواجد أسامة برفقة طفلي السيدة محاسن داخل وخارج شقتها. وحدث في بعض الأيام تأخر - أو حتى عدم وجود مرافقة للسيدة محاسن، أثناء ساعات دروس طفليها، فكانت تلجأ إلى ترك باب شقتها مفتوحاً، أو تتصل تليفونياً بإحدى قريباتها أو جاراتها وتطلب منها سرعة الحضور إليها.. وبتكرار هذه المواقف قل من يستجيب لها..!!

وأُسبوعًا بعد آخر تكاسلت السيدة محاسن عن الاتصالات التليفونية وعن ترك باب الشقة مفتوحًا.. عندما تغاضى معظم أقاربها ومعارفها وجيرانها عن مخاوفها المزعجة لهم.. ومطالبها غير المفهومة والمقلقة لراحتهم في آن.

أما ما جد في حياة السيدة محاسن.. فهو أنها ضبطت نفسها تنتزين وتتجمل وتحرص على "شياكة" ملابسها وتسريحة شعرها.. قبل لحظات من وصول أسامة إلى شقتها...!!! وهو ما زاد وجهها حُمرة ومشاعرها اضطرابًا - ليس فقط - خلال مواجهتها لأسامة.. بل أيضًا خلال انفرادها بنفسها.. أو جلوسها أمام مرآتها الثلاثية الأوجه.

مجهود أسامة الدراسي مع وحيد ونجاة كان مثمرًا بوضوح لكل ذي عينين، واتضح ذلك في ارتفاع الدرجات التعليمية لجميع المواد المدرسية في الامتحانات الشهرية. فكان ذلك مصدر مباهاة للسيدة محاسن في حضور ضيوفها أو حديثها مع أقاربها، كما كان ذلك مصدر فرح للطفلين أيضًا.. اللذان طلبا من حضرة الضابط المهندس الملازم أسامة أن يحضر إليهم بملابسه العسكرية.. ليفاخروا به جيرانهم وزملائهم في المدرسة وليعلم الجميع مدى توثق علاقاتهم ومعارفهم بالقوات المسلحة التي تستعرض طوابيرها وكوادرها - بين الحين والآخر - في التلفاز ودور السينما وأجهزة المذياع وشارع النصر.. بل إن السيدة محاسن ذاتها سألت أسامة عن موعد ترقيته القادمة إلى رتبة "الملازم أول".. ووعدت بإعداد حلوى خاصة احتفالاً وبهجة بهذه المناسبة المستقبلية المميزة.

بعد حوالي الشهر من اهتمام السيدة محاسن بعلب زينتها (مكياجها) والألوان المبهرة لملابسها.. قاطعت جميع أقارب زوجها الراحل، واكتفت حماتها بالسؤال تليفونيًا عن حفيديها -أسبوعيًا- وكذلك امتنع نصف أهلها تقريبًا عن زيارتها المنتظمة.. وبصفة خاصة أزواج شقيقاتها وشقيقها الوحيد السيد محسن.. الذي أبدى نفورًا متزايدًا من كل ما يخص أسامة شكلاً وموضوعًا.. وذات يوم سأل شقيقته بوقاحة..

- ما الذي يعجبك فيه..؟

فاحمر وجه السيدة محاسن.. ولم تحر جوابًا. وعندما خلت إلى نفسها ليلاً أعادت السؤال على نفسها..

- حقًا.. ما الذي يعجبها في أسامة..؟!

ما الذي يدفعها إلى مرآتها.. وتحسس ثدييها وردفيها وخصرها..؟ قبل حضوره إلى شقتها.. وبعد انصرافه منها.. ما هذه البهجة الخفية التي تغمرها لمجرد رؤيته أو مصافحته أو الحديث معه..؟!

وبينما السيدة محاسن تبحث عن أجوبة مقنعة ومبررات لمشاعرها الجياشة.. فوجئت برفض وحيد الذهاب إلى "الحلاق"!!! الذي يضايقه - ليس فقط - بمزاحه السمج.. بل أيضًا بدخان سجائره وروائحها المقززة..

طال شعر وحيد وأصبح شكله غير ظريف - بالمرة - ومتعب جدًا للسيدة محاسن عند اضطرارها لغسيله وتنظيفه وتصفيفه بصورة شبه يومية. ظلت المشكلة قائمة حتى حضر أسامة - في موعد الدرس - فعلم بالمشكلة الشعرية.. ولما فشل في إقناع وحيد بالذهاب إلى "الحلاق".. نجح في إقناعه بأن يرضخ لأصابع



أسامة ذاته.. الذي عرض أن يقوم هو بمهمة "الحلاق" استعانة بالمقصات العديدة الموجودة في أدراج تسريحة السيدة محاسن، التي رحبت بالفكرة ودهشت لها في آن؛ فأجلست وحيد فوق مقعد بصالبة الشقة ولفت حول رقبته وصدره ملاءة سرير.. ثم زودت أسامة بثلاث مقصات من أحجام وألوان مختلفة، ونصحته بالإسراع في عملية قص شعر وحيد.. قبل أن يغير رأيه ويلجأ إلى العناد والرفض.

تحركت أصابع أسامة بكل نشاط، تردد قفل وفتح المقصات بكل همة، تناثرت خصلات الشعر يمنة ويسرة، تعلق بعض الشعر بأهداب الملاءة، التي اختلط بياضها بكثير من الشعر الأسود فوق صدر وظهر وحيد، سرح "المشط" في كل اتجاه. دامت الحلاقة لقرابة الساعة.. وعندما انتهت حمل أسامة زبونه الأول إلى الحمام، وغسل له رأسه بماء الدش.. فلحقت به السيدة محاسن حاملة "قوطة" لطفها.. وبينما تشارك أسامة في تجفيف الرأس المبلول.. تلامست أصابعها المتوترة عفوًا...!!! ثم استطابا معًا التلامس المتعمد والنظرات الشبقة.. ليس فقط للأصابع والعيون.. بل أيضًا لكامل الجسدين الفائرين والمشتاقين والمحرومين في آن. انتزعت السيدة محاسن نفسها.. مهرولة من الحمام إلى غرفة نومها.. مغلقة بابها وهي تضطرب وترتجف بالرغبة المكبوتة.. من إخمص قدميها إلى شعر رأسها.. مرورًا بثدييها وردفيها وفخذيها..

أكمل أسامة تجفيف وحيد، ثم عاد به محمولاً على كتفيه إلى كنبه الجلوس، وهناك أكمل تسريح رأسه واطمأن على ثمرة عمله "الحلاقي" ثم ودع الطفلين، وأسرع إلى سيارة "التاكسي" المتجولة في شوارع وميادين وزوايا شبرا وما حولها من أحياء وحدائق ومواقف وأنفاق وكباري وإشارات المرور الحمراء والصفراء والخضراء ولافتات التحذير، اتبع قواعد المرور والشرطة والشعب في خدمة سيادة القانون والسرعة محدودة وممنوع الانتظار قطعياً وممنوع الدخول والسير في اتجاه السهم وممنوع الدوران للخلف.. ثم كمائن رجال الشرطة البواسل للفتيش على بطاقة الرقم القومي ورخصة قيادة السيارة والسائق.. ثم تجربة إشارات ولمبات التحذير والتوقف والاتجاه يميناً ويساراً والنور العالي والواطي ونور الصالون والعدادات وحزام الأمان..

حضره الضابط المهندس الملازم احتياط أسامة محمد المصري.. ضابط المركبات العسكرية يعرف جيداً ما يتوجب عليه فعله وقوله في مثل هذه المواقف الطارئة والمعطلة.

أما ما لم تطلع عليه كوادرات شرطة الكمين المروري.. فهو الرقم العسكري لحضرة ضابط المركبات المختبئ في ثنايا نواياه وأمانيه ومشاعره وخططه الآجلة والعاجلة.

عاد أسامة إلى وحدته العسكرية فكلفه قائدها - سيادة الضباط المهندسين الرائد - بقيادة أفراد الوحدة في مشروع تدريبي للرمية. اتصل أسامة بكوادرات قيادة المشروع المرافق له، المكونين من اثنين مساعد ضابط (صول) وأربعة رقيب مركبات (باش جاويش) وثمانية رقباء مركبات (جاويش) وستة عشر عريفًا أول مركبات (امباشي) واثنين وثلاثين عريف مركبات.. ثم مئات من جنود المركبات المجندين والاحتياط والمتطوعين. جهزت حملة المشروع المكونة من سيارات نقل القوة المتدربة والأسلحة (بنادق ورشاشات) والذخيرة وشواخص ضرب النار (لوحات خشبية مرسومة عليها بشر أسود اللون) ولواصق سد أخرام الرصاص (في الشواخص) ومياه وحافرات..

وقفت القوة المتدربة في صورة طابور تمام (إحصاء).. الجنود ثم قيادتها المتدرجة حتى رتبة حضرة الضابط المهندس الملازم احتياط مركبات أسامة محمد المصري.. الذي صاح بكل قوة (عد).. فانتقلت الصيحة بقوة أكبر من أقدم مساعد ضابط مركبات، ومنه إلى أقدم رقيب أول مركبات، ومنه إلى أقدم رقيب مركبات ومنه إلى أقدم عريف أول مركبات ومنه إلى أقدم عريف مركبات - في أقل من دقيقة - ومنه إلى أول جندي في الطابور الذي صاح بكل قوة أيضاً واحد (حد) فتبعه الذي يليه (اثنين) (ثلاثة) وتتابع الأصوات القوية (أربعة، خمسة، ستة، سبعة...) ثم حصر الجماعات بالفصائل فالسرايا فالكثائب العسكرية المتوجهة إلى التدريب. ثم حصر "التمام" وأبلغ إلى القيادات المتدرجة. حتى وصل إلى أقدم مساعد ضابط مركبات، فاستدار نحو حضرة الضابط المهندس ملازم أول احتياط مركبات، أسامة محمد المصري ضارباً الأرض - بكل قوة - بقدمه اليمنى ومنتصباً كعمود نور مؤدياً التحية العسكرية.. برفع كفه الأيمن المنبسط ذات الأصابع المضمومة والمفرودة على استقامتها، لاسماً بها حافة غطاء رأسه "البيرييه" بينما يساعد يصنع زاوية حادة مع العضد وذراعه الأيسر على امتداده ملاصقاً لجنبه الأيسر وقبضته مضمومة وصاح بكل قوة..

- تمام.. يا.. أفندم..

فبادله حضرة الضابط المهندس الملازم احتياط مركبات أسامة محمد المصري.. التحية العسكرية قائلاً (تمام). فأنزل أقدم مساعد ضابط مركبات ذراعه الأيمن بكل استقامته، ضاماً قبضته اليمنى بكل حزم على جوار جانبه الأيمن.. مستأنفاً بكل حيوية..

- تمام قوة التدريب.. اثنين صول مركبات.. أربعة باش جاويش مركبات.. ثمانية جاويش مركبات.. ستاشر أمباشي مركبات.. اثنين وثلاثين عريف مركبات.. (....) عيادة مركبات.. (....) مهمة مركبات.. (....) متخلف مركبات.. (....) جندي حضور مركبات.

معظم الأرقام الإحصائية (الأعداد) كانت مسجلة في ورقة صغيرة، وكان أقدم صول مركبات ينظر إليها بين الحين والآخر - كلما تشكك في ذاكرته أو في صحة ما يصيح به من (تمام). وعندما انتهى من جميع تفاصيل التمام قدم الورقة الصغيرة إلى حضرة الضابط المهندس ملازم احتياط أسامة محمد المصري.. فوضعها في الجانب الأيسر (الأفروله) العسكري، صائحاً بكل قوة في طوابير وصفوف قوة المركبات المتراسة أمامه..

- قوة المركبات.. إلى ساحة التدريب.. تحرك.

تبدلت التحيات العسكرية بين جميع القيادات والرتب العسكرية المتدرجة، وتحركت صفوف الجنود بكامل تجهيزاتها ومنقولاتها إلى سيارات النقل. ركب أسامة في أول سيارة بجوار السائق، وقلدته باقي الرتب العسكرية المرافقة في باقي السيارات الناقلة خلفه.. حسب أقدمية الرتبة العسكرية من أقدم (صول) إلى أقدم عريف. فكانت ناقلات القوة العسكرية بسياراتها فوج عسكري محمول (كول) متوجهاً إلى ساحة التدريب على ضرب النار.

كان الموعد المحدد لبدء المشروع التدريبي هو الساعة الثانية عشرة ظهرًا.. التي وصل فيها (كول) المركبات إلى الساحة فوجد أسامة أن هناك (كول) آخر...!!! قد سبقه إلى أرض الساحة.. وشرع في إجراءات التدريب...!!!

ترجل أسامة من ناقلته وتبادل الحديث مع قائد (الكول) الآخر.. ليكتشف خطأ فادحًا...!!! في تحديد مواعيد التدريب في ساحة الرماية.. أدى إلى وصول (كولين) عسكريين إلى نفس الأرض في نفس الساعة...!!! والمفروض أن تفصل ثلاث ساعات كاملة بين (كولين) عسكريين.. فمواعيد التدريب العسكري المعتمدة - فوق أرض وساحة الرماية (ضرب النار) - هي التاسعة صباحًا ثم الساعة الثانية عشرة ظهرًا ثم الساعة الثالثة عصرًا.. فما هذا الاضطراب في تحديد المواعيد...!!! (للكولات) العسكرية من الأسلحة المختلفة..؟

لم يتبرم أسامة من الوضع قدر ما تبرم من يرافقونه من (الصولات والباش جاويشيه والجاويشيه والعرفان الأوائل والعرفاء مركبات) وشرع صولات المركبات في الغمز واللمز بإير الدبابير.. حتى دفعوا أسامة للذهاب إلى مكتب قائد ساحة التدريب - وكان برتبة رائد مشاة- فطرح أمامه جدول مواعيد وتواريخ (ضرب النار) بالساحة.. ولم يجد أسامة وحدته العسكرية للمركبات مسجلة في كامل الجدول...!!! فأبرز ما معه من "تصريح عسكري لضرب النار" المعتمد من قيادة أركان حرب المنطقة العسكرية المركزية.. والموثقة بالتوقعات والأختام العسكرية المزهرة.. ذات الأشكال المثلثة والمستطيلة والمربعة والدائرية.. فبهت سيادة الرائد مشاة لمرأى التصريح، وبعد كامل تفحصه وقراءة كل أختامه وتوقعاته قال متجهماً..

- كان عليك يا حضرة الضابط أن تأتي إلي بمثل هذا التصريح قبل اليوم لتسجيله واعتماده داخل جدول ضرب النار.. لأن المنطقة العسكرية المركزية لم ترسل لي أي شيء بشأنه...!!!

- وهل هذه مسؤوليتي...؟!

- مسؤوليتنا جميعاً...!!!

طال الكلام قواعد الضبط والربط العسكري وأنظمة الاتصال العسكري والتعاون بين الأسلحة المختلفة والتنسيق بين قيادات الأركان وقادة الوحدات العسكرية فوق الأرض.. وبعد تبادل اتهامات التقصير والتهاون.. طلب من أسامة المكوث فوق أرض التدريب بقواته.. حتى تخلو ساحة ضرب النار ممن يشغلها الآن فيحل محله مباشرة؛ إذ من المتوقع رحيل (الكول) الحالي قبل الساعة عصرًا، فيكون لدى (كول) أسامة فرصة طيبة لإنهاء مشروعه. قبل قدوم (كول) الساعة الثالثة عصرًا والمعتمد في الجداول.. حتى ولو أدى الأمر إلى تأخير بعض الوقت.. إذا ما وصل في مواعده المحدد.. وهذا أمر مشكوك فيه بطبيعة الحال.. لأن (كول) الثالثة عصرًا قادم من مكان بعيد.

قبل أسامة بالأمر الواقع.. الذي لم يحدد له أي بديل آخر.. فعاد إلى الدبابير وأمرهم بالصبر حتى تخلو الأرض ممن يشغلها الآن.. والذي هو قرب الساعة الثانية بعد الظهر.. فأسرع كول أسامة باحتلال الأرض

ثم شرعوا في ضرب النار جماعات.. جماعات.. وعندما انتهى آخر جندي كانت الساعة قد جاوزت الرابعة عصرًا.. ولم يحضر (الكول) الجديد المحجوز له الأرض منذ الثالثة عصرًا حسب الجدول المعتمد!!
جمع أسامة قواته ومعداته وتجهيزاته وشواخصه وأسلحته وفوارغ الطلقات.. وعاد في ناقلاته - كما جاء - إلى وحدته العسكرية.. فوصلها قرب الغروب..

مرت الشهور - وهي عادة لا تمر - على أسامة في وحدته العسكرية يؤدي واجباتها على أتم وجه ويحافظ على كافة مظاهر الضبط والربط بها.. حتى أوفى المدة القانونية للترقي إلى رتبة الملازم أول.. فصدر الأمر الجماعي الذي يشمل مع باقي زملاء دفعته في باقي أسلحة القوات المسلحة. فتمكن أسامة من وضع نجمتين نحاسيتين فوق كتفه الأيمن - ومثيلتهما فوق كتفه الأيسر - إضافة إلى بعض الحلبي العسكرية من "الميداليات والنياشين المزركشة.." وأصبح لقبه العسكري (الميري).. حضرة الضابط المهندس الملازم أول احتياط مركبات أسامة محمد المصري.. وما أن استقر أمر الترقية حتى جهز أسامة بذلته العسكرية -المخصصة للخروج وللفسحة - وغطاء رأسه (الكاب) ذا النسر، ثم ذهب بكل تأنق إلى موعد دروس وحيد ونجاة بشبرا الحبيبة.

طرق أسامة باب الشقة ففتح بكل هدوء.. وفي جوفه وفقت السيدة محاسن مبهورة بمنظر أسامة.. غامرة عينيها الأضواء المتألئة المنعكسة بمرح متراقص من نسر ونجوم وحلي وأزرار البذلة العسكرية. حدقت محاسن بترحيب بالغ وفرح في عيني أسامة.. وبسحر شجي جذبت أسامة إلى أحضانها الممتلئة واحتوائه بشوق متلهف.. مرددة أعذب كلمات الترحيب والتعاني بالترقية المنتظرة منذ عدة شهور..

دعت السيدة محاسن ضيفها العسكري (الميري) للدخول.. جاذبة معصمه إلى كنبه الجلوس - التي احتوتهما معًا - وفي غمرة انبهارها بما جد على أسامة من تأنق وجاذبية.. نسيت السيدة محاسن غلق باب الشقة الذي تكفل بنقل بعض حديثهما إلى كل من يمر بقربه. تبادل أسامة ومحاسن أرق العبارات عن الغياب والصحة والمستقبل السعيد.. وشمل ذلك الطفلين الذين سأل عنهما أسامة حائرًا..

- أين صغيراي؟! -

- ذهبوا مع جدتهما السيدة عائشة، التي اصطحبتهم لتناول وجبة الغذاء معها وللفسحة في آن..

- ومتى سيعودان؟ -

- سيصلان الآن.. فجدتهم وعدت بإعادتهما قبل موعد الدرس.. كما أنها ترغب في لقائك والحديث معك..

- يا مرحبًا بها.. إذا كان ذلك في حضورك.

- بطبيعة الحال.

فتحت السيدة محاسن التلفاز المواجه لأسامة في جلسته، ثم دخلت إلى المطبخ لدقائق، عادت بعدها وهي تحمل أكواب الشاي وبعض الكعك (الكيك).. إلى متناول يدي أسامة ودعته لتناول ما يشاء منها، أو يتناولها

جميعاً.. فالיום يومه. جلست السيدة محاسن بكل وقار على مقربة من أسامة، وواصلت عبارات التهنئة والترحيب بينما كان هو ينقل عينيه من الوجه الصبوح لفردوس إلى شاشة التلفاز.. إلى محتويات الشقة وبابها المفتوح...!! خلا وجه محاسن من كل أثر لأدوات الزينة (المكياج) ومالت ثيابها إلى الاحتشام والبساطة، بينما بدا شعرها مهملاً شكلاً وتصفيفاً..

مر بعض الوقت حتى سمع ضجيج الطفلين اللذين كانا يتسابقان للوصول إلى باب الشقة المفتوح.. ثم مرقا منه وخلفهما دخلت السيدة عائشة.. التي ألقت التحية وسلمت على السيدة محاسن ثم أسامة.. الذي انهمك في تقبيل الطفلين والترحيب بعودتهما.. مع استعراض مفردات بدلتة العسكرية أمام عيون وأيدي الصغيرين المبتهجين بنجومها وأزرارها وحليها ورونقها.. وبوجود أسامة في الأساس.. دهشت السيدة عائشة لمشاعر الود - والفرح - المتبادلة بين الطفلين وأسامة.. الذي ذكرها بابنها الراحل.. فدمعت عيناها بكمد وحسرة مكتومة. اصطحبت السيدة محاسن طفلها إلى داخل الشقة لتبديل ملابسها والاستعداد لتلقي الدروس.. تأملت السيدة عائشة أسامة للحظات ثم بادرت قائلة..

- يبدو أن الطفلان قد تعودا عليك.
- ما مضى من وقت تواجدنا معاً يخلق كثير من الألفة.
- الأطفال يحبون المعاملة الرقيقة الحنونة.. وأنت تجيدها كثيراً.
- أنا أعاملهما بكل حرص وإخلاص وأراعي مشاعرهما.
- هما فقط...؟!!
- كل من أتعامل معه يحظى بالتقدير والاحترام.. هذا طبعي.
- تبدو رقيقاً متفهماً، رغم حياتك العسكرية الخشنة.
- الخشونة والنعومة موجودة في دواخلنا وأعماقنا.
- تبدو متفلسفاً أيضاً.. هذا شيء مبهر.. فهمت الآن لماذا يصعب على محاسن التخلي عنك.. بل لعلها تعتمد ذلك...!! فأين ستجد مثلك ثقافة وفلسفة واهتماماً...؟
- أنا أبذل كل جهدي مع الطفلين.. مقابل ما آخذه من نقود. في الأساس أنا في أشد الحاجة إلى النقود.. الحياة مكلفة مالا وصحة ووقتاً.. الجميع يعملون ليلاً ونهاراً وأنا مثلهم.
- كان ابني الراحل يعتقد ذلك أيضاً.. ظل يعمل ويعمل ويعمل.. حتى رحل فوات الأوان ودون سابق إنذار.
- كلنا سنرحل عندما تجيء ساعتنا.. كل حسب عمره.

صمتت العجوز لبرهة ثم نهضت مغادرة، ودعت أسامة ومحاسن وقبلت حفيديها.. واعدة لهما بالزيارة التالية بعد أسبوع أو عشرة أيام على الأكثر. خرجت العجوز من الشقة وتجاهلت محاسن قفل بابها. جلس أسامة متوسطاً الطفلين.. وشرعوا معاً في تتابعات الدروس التعليمية، بينما غادرتها محاسن لبعض شأنها في

الغرف الداخلية للشقة، وبعد انتهاء وقت الدرس، عادت محاسن بكاميرا صغيرة والنقطت بعض الصور لطفليها وهم يمرحون مع أسامة.. ثم قام أسامة بتصوير ثلاثتهم وهم يتقافزون في أنحاء الشقة ويتمازحون. عمت الغبطة مشاعر الجميع الذين أحسوا كما لو أنهم أفراد أسرة واحدة.. ليست فقط مترابطة بل أيضاً متفردة في الترابط ذاته.

انتزع أسامة نفسه من عروة الترابط.. عائداً إلى وحدته العسكرية المترابطة أيضاً.. بل الأكثر ترابطاً!!!.. بما يوتقها من قواعد الضبط والربط والتقاليد والقوانين والأوامر والتعليمات.. ليست فقط العسكرية.. بل أيضاً الخاضعة لحالة الطوارئ!!!.. المعلنه في عموم مصر المحروسة منذ عقود!!!.. والتي لا يبدو لها نهاية في المنظور القريب أو البعيد.. على السواء!!!..

ووفقاً للأوامر العسكرية لورش المركبات الأكثر عسكرية، كان يتحتم غلق أبوابها عند تمام الساعة الرابعة عصرًا، ولا تفتح أبوابها خلال أيام الجمع والأعياد والعطلات الرسمية والدينية والقومية.. ولكن (وآه من لكن) عصر يوم أربعاء، وكان حضرة الضابط المهندس ملازم أول احتياط مركبات أسامة محمد المصري، هو الضابط النوبتجي لهذا اليوم، وقفت أمام الباب الرئيسي للوحدة العسكرية، سيارة فيات عسكرية تقل سيادة الضباط المهندس العقيد مركبات أركان حرب.. نائب قائد سلاح المركبات العسكرية.. لتعطل مقومها (مارشها) الكهربائي عن العمل ويطلب - وعلى الأحرى يأمر - سيادته بفتح باب الورشة الكهربائية.. لإصلاح عطل سيارة سيادته العسكرية. جنود بوابة الوحدة العسكرية وقفوا يرتعشون.. أمام الحضرة البهية للنسرين والنجوم الأربع الرابطة فوق كتفي سيادة العقيد أركان الحرب.. إضافة إلى ما يزين باقي ملابسه العسكرية من ميداليات ونياشين ولواصق صفراء وزرقاء وحمراء.

تشجع أحد الجنود وأخبر سيادته أن الورشة قد أغلقت أبوابها، ولن تفتح سوى صباح اليوم التالي -حسب التقاليد العسكرية - إلا أن سيادة العقيد زمجر صائحاً..

- احضر لي.. الضابط النوبتجي.. يا حيوان!!!..

أخبر أسامة بما يحدث أمام بوابة الوحدة العسكرية فهرول إلى معمعتها.. تبادل التحية العسكرية الواجبة مع سيادة العقيد أركان الحرب الذي خاطب مهدداً..

- افتح ورشة إصلاح المقومات (المارشات) واعمل اللازم.. لن أغادر هذا المكان إلا وسيارتي سليمة..

- الورشة مغلقة حسب الأوامر العسكرية.. ولا أستطيع فتحها الآن..

- أنا أمرك بفتح الورشة وإصلاح سيارتي!!!..

- علي في هذه الحالة الاتصال بقائدي المباشر.

- امنحك فرصة عشر دقائق.. لفتح الورشة وبدء الإصلاح.

ترجل سيادة العقيد أركان الحرب من سيارته، جلس في غرفة الضابط النوبتجي وقدمت لسيادته المشروبات المتلجة، وتحت سمعه وبصره شرع أسامة في عمليات الاتصالات التليفونية بقائد الورشة وبنائب قائد الورشة وبضابط النوبتجية للمنطقة العسكرية.. لأخذ موافقة أيًا منهم على فتح باب الورشة.. لكن هذه الاتصالات لم تجد شيئاً إذ أعطته نفس الرد..

- تصرف على مسئوليتك الخاصة.. أنت ضابط مركبات.. وليس بطفل مركبات.. كل ما سوف تعمله ستحاسب عليه..!!

وجم أسامة مما سمعه وأنتقل إحباطه المتراكم إلى ملامح وجه سيادة العقيد أركان الحرب الذي صرخ مرة أخرى..

- تصرف..!!

خرج أسامة إلى أعداد السيارات المنتظرة لعمليات الإصلاح في ساحات الوحدة، تجول بينها حتى وجد سيارة "فيات" مماثلة لسيارة العقيد أركان الحرب.. فأمر بعض جنوده الفنيين باختبار مقومها (مارشها) فوجده سليماً.. فأمرهم بفكه وتركيبه في سيارة العقيد أركان الحرب.. بدلاً من مثيله التالف والذي وضع فوق كنبه "صالون" السيارة المعطلة والمتوقفة في انتظار "الإصلاح".

ثم مراجعة واختبار سيارة سيادة العقيد أركان الحرب والاطمئنان على سلامة باقي مكوناتها وأجزائها، كما غسلت ونظفت من الداخل والخارج حتى بدت في أبهى صورة ممكنة. وخلال ذلك الوقت كان أسامة يلف ويدور حول السيارة وباقي أركان الوحدة العسكرية.. بينما سيادة العقيد أركان الحرب يتصفح بعض الجرائد القديمة داخل مكتب ضابط "النوبتجية" وعندما أصبحت سيارته "تمام" حضر إليه أسامة مؤدياً التحية العسكرية.. ومخبراً لسيادته بما تم إنجازه فغمره السرور ثم شكره وانصرف.. بعد أن أثنى على حسن تصرفه ولباقتة العسكرية.

صباح اليوم التالي اختفى المقوم (المارش) المفكوك من سيارة سيادة العقيد أركان الحرب.. فاتهم أسامة من قبل قائده المباشر بالتسبب - وعلى وجه الدقة بالمشاركة- في سرقة (المارش) ثم أمره بإحضار غيره قبل خصم ثمنه منه..!!

خلال غدو أسامة ورواحه حول الورش ووحدات المركبات ومخازن المركبات العسكرية، مر على منطقة "تكهين" السيارات العسكرية، وهي بمثابة المقبرة العسكرية لكافة المركبات العسكرية - أيضاً - التي لفظت أنفاسها ولم يعد منها جدوى. التقى أسامة بضابط المقبرة - الذي لم يكن يجله - وطلب منه صراحة مقوم (مارش) "فيات" فيسهل له أمر حصوله عليه بفكه من إحدى السيارات المقبورة (المكهنه) - بواسطة جنوده الفنيين - فعاد به أسامة إلى ورشته وهناك سلمه بدلاً من "المارش" المفقود.

جلس أسامة داخل مقهى "السواقين" سائقين سيارات الأجرة بمنطقة العباسية - القبة الفداوية - فطلب منه أحد زملاءه بمساعدة ابنته في دروسها للمرحلة الثانوية. رحب أسامة بالأمر واتفق معه على مبلغ شهري مقابل جهوده التعليمية المتنامية. ذهب أسامة مع السائق إلى مسكنه، فوجده عبارة عن غرفة واحدة فقط داخل

شقة مكونة من غرفتين "وصالة" وحمام ومطبخ، وفي الغرفة الثانية تسكن أسرة أخرى مكونة من أربعة أفراد. جلس أسامة مع الابنة في "الصالة" أسفل مصباح كهربائي شفيف الإنارة، وبدأ الشرح بمادة اللغة الإنجليزية وهي أصعب المواد بالنسبة للابنة رباب. شرح أسامة وأعاد وأفاض وزاد وبسط القواعد والعبارات والكلمات، ثم لجأ إلى القراءة والترديد والتسميع.. حتى استقر الدرس الإنجليزي في قاع المخ العباسي.. فسعدت رباب بما حصلت من معرفة ومعلومات مدرسية. ثم انتقلت هذه السعادة إلى ملامح الأب الفداوي.. الذي ألح على أسامة في الحضور المنتظم إلى رباب - مرتين أسبوعياً - حتى في حالة انشغال الأب بالعمل في سيارات الأجرة "التاكسي" فوعده أسامة خيراً.

التوجهات المكوكة لأسامة إلى المخازن العسكرية لقطع غيار السيارات - وكل ما يخصها - فقدت جدواها بمرور الشهور والأسابيع والأيام؛ إذ أصبح معظم ما تحتاجه الورش العسكرية غير متوفر.. فتراكمت السيارات في طوابير الإصلاح والعمرات الشاملة والجزئية لأنواع (للماركات) "زل - جاز - كراز - الجيب الروسية..". المصنعة معظمها في دول الكتلة الشرقية واتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية، فاجتمع كبار القادة والأركان (الحرب) في سلاح المركبات لإيجاد مخرج من هذا الفخ المعدني - في الأساس - ثم صدرت الأوامر إلى كافة ورش المركبات العسكرية.. بتكئين نصف معداتها واستخدامها كقطع غيار للنصف الآخر (اللي فيه الرmq) الذي يرجى نفعه.. ثم حمل باقي المخلفات المعدنية الميئوس منها.. وغير القابلة للترميم والنفع (وسد الأخرام) إلى المقبرة العسكرية للمركبات التالفة والمكهنه والمذبولة.. لتباع في مزادات مفتوحة لجمهور الملكيين (المدنيين) الذي يحتالون على تشغيلها (وحلبها) بطريقة جهنمية لا تقرأها الأعراف العسكرية والتقاليد المركباتية (الميري..).

نشطت الكوادر البشرية في كافة الورش العسكرية في تفكيك ما لديها من سيارات وناقلات وحافلات - شرقية الصنع - وفصل الصالح عن التالف. ثم إعادة تشغيل الصالح في كل غرض يلائمه. فككت المحركات الميكانيكية إلى أجزائها الكبيرة والمتوسطة والصغيرة. وأعيد ملء رفوف المخازن الخاوية كقم بلا أسنان. وتمكنت الورش المتعددة من إصلاح أعداد هائلة من المركبات المعطلة.. بمساعدة القطع المفككة من مثيلاتها المكهنه والمقبورة.. فسارت تترنح فوق الطرق غير الممهدة كسكير فاقد الهدف ومتلبد الإحساس.. والذي يتقطع خطوه بالتهراوي فوق النتوءات وداخل الحفر غير المرئية والمرئية على السواء.. كانت السيارة تخرج بعد عمرة شاملة استمرت عاماً - أو أكثر - لتعود إلى الورشة مرة أخرى خلال شهر واحد على الأكثر!!.. بسبب أعطال بسيطة تحتاج إلى قطع غيار صغيرة غير موجودة. فتسبب الورش وتلعن وتتعرض للعقاب الجماعي.. لكل من فيها من حضور وغياب ومرضى وفارين ومساجين ومستجدين.

بعد خدمة عسكرية قاربت العامين في سلاح المركبات العسكرية أصبح أسامة -وأمثاله- معرضاً للوم والجزاءات والعقاب لقلة كفاءة أشغالهم الميكانيكية الإصلاحية.. دون اعتبار لاحتياجاتهم وطلباتهم - غير المجابة- من قطع غيار صالحة وفنيين صالحين لعمليات الإصلاح المتعددة والمتشعبة والمطلوبة اليوم قبل الغد.

وبعد تنشيف ريق أسامة - وأمثاله - زودت الوحدات العسكرية بمركبات جديدة مصنعة في كافة الدول الغربية. ثم شرع تدريجيًا في التخلص من المنتجات الشرقية بالتكهين والتقبير. وخلال فترة هذا الفرار من أحضان الشرق الأحمر إلى أحضان الغرب الأصفر.. اشتد الضغط والتصلد بالإصرار على إصلاح المركبات الشرقية المتبقية في كافة الوحدات.. لكثرتها ولأن بعضها كان ما يزال يصل جديدًا...!!.. دون أن ترافقه.. ليست فقط قطع غيارها الضرورية والملحة.. بل أيضًا النية وبرامج وخطط إصلاحها في حالة تعطلها غير المتجنب...!!.. فماجت أفنية الورش والوحدات العسكرية بالمركبات الجديدة المنافسة للقديمة في التعطل والتكهين والتقبير والزبل...!!

أهدرت عبثًا كافة الجهود الإصلاحية لأسامة - وزملائه - وبأبت بقلّة الثمار أو انعدامها في الأغلب الأعم، فأصبح كثير الجدل والمشاحنات والشكوى مع كل من هم فوقه.. ومعظم من هم تحته.. من رتب عسكرية عاملة ومجندة ومتطوعة وتشكيلاتها المعدنية والبشرية.. والمادية والمعنوية.. كلا.. كلا.. وألف كلا.. حضرة الضابط المهندس الملازم أول مركبات أسامة محمد المصري.. لم يقصر في تنفيذ واجباته الإصلاحية للمركبات العسكرية.. بل قطع الغيار الشرقية هي التي قصرت في الوصول إلى حضرته...!!.. ليس فقط بالقدر المناسب.. بل أيضًا في الوقت الملائم.. وكل ما ترتب على ذلك يتحمله غيره.

* *

ذهب أسامة إلى شقة السيدة محاسن في موعد دروس طفليها، فوجد أن جدتهما قد اصطحبتهما للفسحة والغذاء منذ الظهيرة. وجد أسامة أيضًا أن السيدة محاسن نفسها في حالة تألق مبهج، بما ترتديه من ملابس أنيقة وما تضعه من مكياج مغر فوق الشفاه والخدود والعنق العاري البض. بينما تمرح عينا أسامة في المفاتن الشهية للسيدة محاسن.. نسيا كلاهما ما يتوجب فعله في تلك اللحظات...!!.. إذا شغلت السيدة محاسن بالتأمل أيضًا في ملامح أسامة وكيونته الواشية بفحولته وذكورته. تنبهت السيدة محاسن ودعت أسامة إلى غرفة الجلوس انتظارًا لعودة الطفلين الوشيكة - من نزهتهما الأسبوعية التي طافت في مخيلة أسامة كفعل متعمد من جانب الجدة لتعطيل الدرس وإيعاده عن اهتمام الطفلين ومحاسن.. التي دخلت إلى المطبخ وعادت منه حاملة أطباق الحلوى والفواكه وأكواب الكولا.. ثم خاطبت أسامة مرحبة.

- ريثما تنتهي من تناول هذه الأطباق سيعود الطفلان.

- هذه الكمية تكفي أكثر من أربعة أشخاص.

- خذ منها قدر طاقتك.. أشعر أن بإمكانك تناولها كلها.

فتح التلفاز وحول ما يعرضه دار الحديث والتعليقات بين أسامة ومحاسن.. التي نهضت لإعادة بعض الأطباق الخالية إلى المطبخ.. وخلال خطوها إليه ارتطمت بظهر مقعد.. فاختل توازنها وارتمت متأوهة - فوق المقعد ذاته - وتناثر حولها ما كانت تحمله. نهض أسامة لمساعدة محاسن التي شغلت بهندامها وشعرها.. مع الشكوى من ألم شديد في ساعدها الأيمن.. فأسرع أسامة بتدليكه مستخدمًا بعض الماء، ولما

أستمر الألم فضل أسامة لف موضعه بإحكام.. مستخدماً مفرشاً قماشياً لمنضدة قريبة. تحاملت محاسن على نفسها، وبمساعدة الذراعين القويين لأسامة تمددت فوق كنبه "الصالون". واصل أسامة التهوين مما حدث، كما واصل الضغط بلطف حول الساعد المرتطم، وبينما أصابعه الطويلة الممتلئة تلف وتدور وتعصر وترخي وتذلك وتمسح.. تلامست الأجزاء البضة لكامل ذراع محاسن.. التي استطابت القوة والدفع الساري بعذوبة من الأصابع النافرة إلى ذراعها المتواترة.. فباقي جسدها المستعذب للتلامس الذكوري.. والمشتاق إليه - في آن - دفعت محاسن بأصابع كفها الأيسر فعناق أصابع كفي أسامة واعتصاره بشبق طليق من الأسر والكبت والتغاضي والتجاهل والتناسي والتراكم الجيري.. وخلال ثوان قليلة انتقل عناق الأصابع إلى الذراعين إلى العنقين إلى الصدرين فالجزعين.. فتلوى الاثنان بالأحضان المبتغاة والشجية في آن.. والتي تخللتها القبلات المثيرة والطويلة - في آن أيضاً - فغطى فحيح الشبق اللاهج على ضجيج التلفاز.. الذي امتزج برنين جرس باب الشقة.. فانتزع الحاضنان نفسيهما إلى الفراغ المحيط. نهضت محاسن مهرولة إلى الحمام.. ووقف أسامة مضطرباً وهو يهندم ملابسه وشعر رأسه - واتزانه في الأساس - قبل أن يخطو لفتح باب الشقة.. الذي مرق منه الطفلان وهما يتضحكان ويحييان أسامة في مرح ومستفسران..

- أين ماما؟

- في الداخل..

هرعا الطفلان بحثاً عن والدتهما واستكمل أسامة هندامه ورونقه واتزانه.. ثم جلس يحملق لاهياً في الشاشة الفضية.

مرت دقائق قبل أن يحضر الطفلان لتلقي علومهما ودروسهما.. ثم حضرت السيدة محاسن في ملابس مختلفة عما كانت ترتديه قبل فتح باب الشقة كما خلا وجهها من أي أثر للمساحيق أما شعرها فقد أخفته داخل وشاح (فولوار) "إيشارب" وردي اللون انحنت محاسن فوق الأرض - وحول مقعد الارتطام - تجمع ما تتأثر وتهشم من أطباق وأكواب وحلوى وفواكه بذراعيها العاريين وبين الحين والآخر كانت محاسن ترمق وجه أسامة وهي تقاوم ابتسامتها المبتهجة. والتي شعت مسراتها من باقي ملامحها وأعطافها.

انتهى الدرس فواصل أسامة عمله كسائق سيارة أجرة (تاكسي) في الشوارع والميادين وقرب الساعة الثانية صباحاً عاد إلى وحدته العسكرية تغمره مشاعر الفوز والرضا العميقين، محاطاً بأحاسيس الألفة والحميمية.. أحاسيس من تذوق العسل بعد طول حرمان منه.. أو كمن رأى اللحم بعد طول تعود على مص "العظم".

اختارت قيادة سلاح المركبات.. حضرة الضابط المهندس الملازم أول احتياط مركبات أسامة محمد المصرية.. في مهمة عسكرية ميدانية جنوب غرب صحراء الإسكندرية، لإقامة ورشة مركبات عسكرية لخدمة المنطقة المحيطة بها. المهمة تستغرق أكثر من شهر.. لذا ودع أسامة من حوله واتصل تليفونياً بالبعيد عن - وفي مقدمتهم السيدة محاسن - لإخبارهم بالأمر وبطول الغياب الإجباري.. جهزت سيارة نقل عسكرية (ماركة زل) بالمهمات العسكرية الضرورية، وفي قلبها رقدت حقيبة ملابس أسامة وسائقه.. الذي

رجاه -إلى حد التوصل- أن يسلكا بالسيارة من القاهرة إلى الإسكندرية مروراً بإحدى قرى "كفر الشيخ" لرؤية والده المريض.. خشية موته المفاجئ..!! تردد أسامة قليلاً ثم وافق في النهاية.. أمام دموع السائق وعباراته المرتعشة بالصدق. كان الوقت شتاء والأمطار تنهمر بين الحين والآخر. غادرت السيارة العسكرية شمال القاهرة متجهة إلى محافظة كفر الشيخ.. وفي الطريق الرئيسية والفرعية كانت تتراءى على البعد كمائن ونقاط تفتيش "الشرطة العسكرية" والتي تهتم بتفحص مستندات السيارة والمهمة والأفراد.. ومن ضمنها خط سير السيارة المحدد سلفاً من القيادة العسكرية.. بين نقطة البداية (القاهرة) ونقطة النهاية (الإسكندرية) فوق الطريق الزراعي الرئيسي. فكان السائق مؤيداً من أسامة يقدمان معاً الحجج والأسباب الكاذبة.. لبعدهم عن المسار الرسمي (الميري) للسيارة.. كالقول بزحام المرور والخوف من التأخر ووجود حادث معطل ووجود اختناقات مرورية ووجود موكب وهمي ووجود تصليح بالطريق.. فيقوم أفراد شرطة الكمين العسكري بتسجيل بيانات السيارة والضابط والسائق في دفاترهم.. مع النصح بالعودة إلى المسار الرسمي (الميري) المدون في دفتر السيارة عند أقرب منحني موصل إلى الطريق الزراعي المعتمد.. وعند بعض الكمائن كان السائق يهرب بالسيارة - قبل الوصول في مرمى بصرها - إلى طرق فرعية أو مدقات عشوائية.. لالتفاف حول هذه الكمائن الخطرة والمعقدة.. والتي اشتهرت بعدم التفاهم وعدم قبول أية أعذار أو حجج.. إذ تقوم في هذه الحالة بالقبض على السائق والسيارة وجميع مستنداتها - مع إطلاق حرية الضابط سيراً على الأقدام- ثم تحويل كل شيء إلى النيابة العسكرية للتصرف (الميري).. وخلال إحدى مناورات السائق مع الطرق الفرعية.. غرزت السيارة وغاصت في منطقة طينية.. ثم توقفت تماماً عن الحركة.. هبط أسامة خلف السائق - الذي هرول يمنة ويسرة- لطلب النجدة من أهالي المنطقة الزراعية.. والذين تفهموا الأمر - والمتكرر أمام عيونهم بصورة شبه يومية- فاحضروا جراراً زراعياً ثم تعاونوا مع السائق في ربطه بحبل غليظاً إلى السيارة المشلولة. دار الجرار وتحركت عجلاته الضخمة في عمق الطين، ثم تحرك للأمام -ببطء وبحذر- ساحباً خلفه السيارة العسكرية إلى منطقة جافة وأكثر من ذلك أحضر الفلاحون بعض (مواعين) أواني المياه.. الذي نقلوه بين سواعدهم القوية من ترعة الري المجاورة إلى إطارات (عجلات) السيارة العسكرية.. لغسلها وتنظيفها من الطين كما أحضر آخرون بعض الشاي وقدموه إلى أسامة والسائق.. الذي قدم لهم بعض المال فرفضوا أخذه.

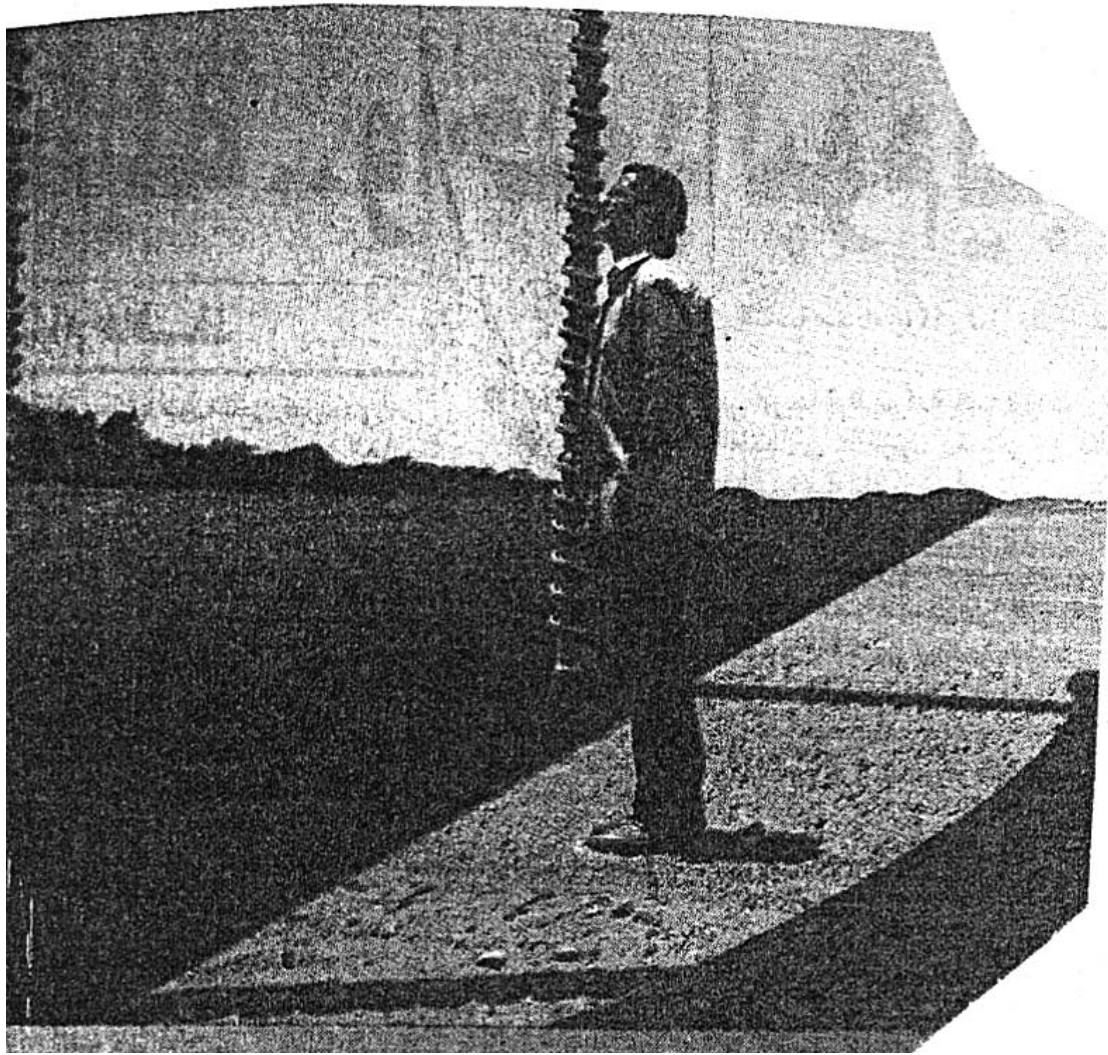
واصلت السيارة العسكرية الوثب من طريق رئيسي إلى فرعي إلى مدق إلى كوبري إلى معبر إلى ردم إلى رمل إلى بركة من طين.. حتى شارفت حافة غيط والد السائق، الذي تتوسطه عدة غرف من الطوب اللبن (النيئ) والبوص والحلفا والطين، هرول السائق واختفى خلف الأبواب المتهاكة.. والتي تحمل من الطين أكثر مما تحمل من الخشب.. وبعد حوالي عشر دقائق خرجت ريفية حاملة صينية كبيرة عليها بعض الطعام وأقداح الشاي، سارت بحذر وخجل - في آن - إلى أسامة المستظل - واقفاً - بجانب السيارة. ألقت عليه كلمات الترحيب وقدمت إليه الصينية، فتناول منها الشاي واعتذر عن تناول الطعام، وبينما يرتشف أسامة الشاي - بتأن - أخبرته الريفية أنها زوجة السائق، وأنها لم تره طوال الشهر المنصرم، فوعدها أسامة

بالمساعدة في منحه أجازة قريبة.. فردت الريفية بكثير من كلمات الشكر وفيض بطول عمر أسامة وسلامة الجيش من كل سوء.

انتهى أسامة من تناول الشاي.. فخرج السائق من جوف الظلام (المطين بطين) وودع زوجته ثم قفز إلى مقعد القيادة، وانطلق عائداً إلى الطريق الزراعي (المعتمد) من أقرب سمار فرعي متجهاً إلى صحراء الإسكندرية وجهتها الجنوبية الغربية.. فوصلها مساء. نصبت خيمة في الفراغ الصحراوي.. وقضى أسامة بها ليلته، وكذلك فعل السائق.. حتى الصباح التالي الذي حضر فيه جنود المساحة والأشغال العسكرية بمعذاتهم ثم شرعوا في العمل الفوري بمساعدة أسامة.. الذي حدد بكل دقة فوق الأرض والخرائط والنماذج (الماكينات) أماكن كافة مفردات الورشة المركباتية.. وهي بوابة الدخول والخروج - بوابة التفتيش وفحص الأوراق والمستندات والنماذج والتصاريح - مظلة موقف للسيارات الداخلة (جارج) - جهة الجنوب - مظلة موقف للسيارات الخارجة (جارج) - جهة الشمال - مبنى الفحص الأولي - ورشة فك وصيانة وإصلاح المحركات للأعمال الكهربائية - ورشة الإصلاح الميكانيكي السريع - ورشة الصاج - ورشة اللحام - ورشة السباكة - ورشة البطاريات - مباني نوم الجنود - مباني نوم الضباط - غرفة ومكتب النوبة (النوباتجية) - مكاتب شؤون الأفراد - مكاتب القيادة والأركان والسكرتارية العسكرية - مبنى المطعم والمطبخ - مخازن الطعام - مخازن الأفراد - مخازن الذخيرة - مخازن السلاح - نقاط الحراسة والملاحظة - الأبنية (الأحواش) - منطقة الملاعب الرياضية - منطقة الحمامات وغسيل الملابس.

شرع كل فريق في عمله وتخصصه بكل حمية ونشاط. ثم أرسل بعض الجنود إلى المدينة - ذاتها - وأسواقها ومحلاتها.. لشراء كل ما هو ضروري منها مثل الأطعمة والمشروبات والأغطية والأدوية والأوراق والأدوات.. يوماً بعد آخر كانت الجدران تصعد والأسقف ترقد فوق الأعمدة والمباني تبرز.. كزرع"نام" يزداد ارتفاعه في كل طلعة شمس.. ليعترض أشعتها الحامية ويكون بعض الظلال الوارفة في عز الظهر..

بعد انتهاء مدة الشهر انتهى دور أسامة.. فودع رفاهه عائداً إلى وحدته الأصلية - قرب القاهرة - ف قضى فيها باقي مدة تجنيده التي قاربت السنوات الثلاث في العمل العسكري - داخل الورشة المركباتية - وفي العمل كسائق لسيارة أجرة (تاكسي) ومعلماً للدروس التعليمية للمراحل الابتدائية والإعدادية والثانوية - حتى صدور القرار العسكري بإنهاء تجنيد دفعة أسامة - بكاملها - فمنحوا ليس فقط شهادات الخبرة وأداء الخدمة الإجبارية.. بل خطابات توظيفهم في الهيئات الحكومية والشركات المتنوعة. وكان نصيب أسامة في جنوب مدينة أسوان، التي عين بها كـ"مهندس تشغيل محطة الكهرباء الهيدروليكية.. الملحق بمشروع السد العالي".. فسافر إليه بعد أن ودع زملاءه ومعارفه وأصدقاءه بالقاهرة.. وعرج على أهله في مدينة سط، وقضى في دفء أحضانهم قرابة الأسبوع.. رافقته فيه أجمل التهاني والتبريكات والأدعية.. بالتوفيق في عمله الجديد كمهندس في كبرى محطات توليد الكهرباء بمصر وما حولها.. محطة كهرباء السد العالي الهيدروليكية.. وما يتبعها من لواحق ومعدات ومرافق وبشر..



أسوان

تقع أسوان إلى الجنوب من القاهرة بحوالي ثمانمائة كيلو متر، ويستغرق السفر إليها يومًا كاملاً بقطارات السكك الحديدية المغادرة من القاهرة. يتميز شتاؤها بالدفء والقصر الذي لا يتعدى الشهرين من كل عام وهما يناير وفبراير، أما صيفها فحار قائف غير محتمل طوال فترة الظهيرة. يشتهر هواؤها بالجفاف والنقاء وطيب الرائحة طالما غابت الشمس.. أما إذا ظهرت فهو الحر اللافح الكاوي للعيون والحارق للجلد في حالة التعرض الطويل. يعرف أهلها جيدًا متى يغادرون المباني والظلال ومتى يلزمونها. أجيال الأجداد من الزمن الجميل والخالد. لأستاذنا عباس محمود العقاد - طيبي القلوب صافي النفوس متسامي الأرواح، كلماتهم سكرًا معقودًا نواياهم بلورية وأغراضهم لؤلؤية نظراتهم زمردية ذكرياتهم زبرجدية أخلاقهم سماوية ضمائرهم نورية أنفاسهم عنبرية، يحلو الجلوس معهم ويستطاب الحديث إليهم ويستعذب الإنصات لما يقولون.. أما الأجيال المعاصرة فتثور حولها الأقاويل وتنسب إليها الأفاعيل ويظن بها سوء - في الأغلب الأعم - لبعدهم عن تراث الأجداد وتقليدهم للأغراب.. ليس فقط الوافدين إلى محافظة أسوان.. بل أيضًا الوافدين إلى عموم مصر المحروسة من الجهات الأربع.

تشتهر أسوان بالآثار الفرعونية المتعددة والمتنوعة وبالفنادق السياحية وبالأسواق الشعبية وبالوجوه السمرء اللامعة. أما الشهرة الأم "فهي وقوعها عند المدخل الرئيسي لنهر النيل العظيم إلى مصر الأكثر عظمة. وإذا كانت "مصر هبة النيل" كما قال "هيرودوت" المؤرخ.. فإن الحفاظ على خلود وجلال هذه الهبة الإلهية قد تطلب من المصريين عامة إقامة المشاريع المتطورة والمستهدفة للحفاظ على مياه النيل المقدس.. التي كان يهدر جزء كبير منها في مياه البحر الأبيض المتوسط أو إغراق الأراضي الزراعية على جانبي النهر - وفروعه - في أوقات الفيضانات المنخفضة والقليلة المياه فيشكو البشر والمزروعات والأراضي من العطش. لذا نجح المصريون في إقامة كثير من المشاريع الهندسية التي تتحكم في إيراد مياه النهر طوال العام.. وكان آخرها هو إقامة "السد العالي" وهو حاجز ركامي ضخ من الأحجار والرمال والصخور والأسمت، يعترض مجرى النهر من الغرب إلى الشرق - جنوب مدينة أسوان - ويوجد في طرفه الشرقي أنفاق تتحكم بها بوابات لدخول المياه من جنوب السد وخروجها من شماله.. الذي تقع في مساره عدة "توربينات" محركات هيدروليكية (مائية) تدور - بفعل اندفاع المياه - داخل مولدات للكهرباء.. التي تنقل إلى شمال مصر لتغذية كافة مرافقها واحتياجاتها بالطاقة الكهربائية المولدة (المنتجة) داخل "المحطة الهيدروليكية لكهرباء السد العالي" والتي عين بها أسامة محمد المصري.. كمهندس تشغيل يعمل بنظام الورديات (النوبات) الثلاث. الوردية الصباحية تعمل من السادسة صباحًا إلى الساعة الثانية بعد الظهر (الوردية الأولى)، والوردية المسائية تعمل من الثانية بعد الظهر إلى الساعة العاشرة ليلاً (الوردية الثانية)، والوردية الليلية تعمل من العاشرة ليلاً إلى السادسة من صباح اليوم التالي (الوردية الثالثة). وإلى جانب كوادر (ورديات) التشغيل تعمل كوادر العمل النهاري من الساعة السابعة صباحًا حتى الساعة الثالثة عصرًا.



ويضم العمل النهاري كافة السادة الرؤساء والمديرين ومشرفي الأقسام وكوادر الأمن والسلامة والصيانة والفحص والشنئون القانونية وشنئون الأفراد والإسكان والتغذية والترفيه والمواصلات والفسح والأجازات.

سافر أسامة حاملاً وثيقة إخلاء طرفه" من القوات المسلحة المصرية في حضان باقي مستنداته وملابسه.. إلى مدينة"سط" جنوب القاهرة وقضى وسط أهله حوالي الأسبوع لتقوية أواصر المحبة والألفة وصلة الرحم ومنحهم كل ما فاض من نقوده وملابسه وأوراقه ومنقولاته القليلة. وعند ظهر يوم جمعة سافر بقطار السكك الحديدية على أسوان فوصلها صباح اليوم التالي ولم يجد أحد في انتظاره. تجول أسامة خارج مبنى محطة السكك الحديدية، ثم سأل بعض المواطنين عن كيفية الوصول إلى محطة الكهرباء.. فأرشد إلى محطة الحافلات التي أقلته إحداها إلى مبنى الشئون الإدارية بمدينة"صحارى" غرب السد.. ففوجئ كل المسؤولين بوصول السيد المهندس الجديد"أسامة محمد المصري".. الذين عين منذ أيام قليلة ضمن الكوادر البشرية داخل محطة الكهرباء. قدمت أكواب الشاي الممتزجة بعبارات الترحيب العربي الأصيل إلى أسامة.. الذي نشط في التنقل من مكتب إلى آخر ومن طابق إلى آخر ومن مقعد إلى آخر، وكذلك في الحديث إلى الجميع من شاغلي المكاتب والغرف والطوابق والممرات والسلالم والأركان المضيئة والأركان نصف المضيئة.. وكان على أسامة دائماً -ودون تردد أو ملل - الإفصاح عن اسمه ومؤهلاته وتخصصه الهندسي وتاريخ ميلاده ومكان ميلاده وخدمته العسكرية وعزوبيته وعنوان أسرته وكنيته المؤهلة له وكذلك جامعته وسنة تخرجه منها.. إضافة - بطبيعة الحال - إلى إبراز كافة المستندات الموثقة لكل كلمة يقولها.. مع التأكد من سلامة وجود وشدة وضوح"ختم النسر" الحكومي فوق كل مستند ووثيقة.. وشمل ذلك شهادة الميلاد وشهادة بكالوريوس هندسة القوى الميكانيكية والبطاقة الشخصية وشهادة أداء الخدمة العسكرية وشهادة الخبرة العسكرية.. وتلا ذلك ملء وتعبئة عدد لا حصر له من المستندات والنماذج والوثائق الإدارية الخاصة بتوظيف السيد المهندس أسامة محمد المصري في محطة كهرباء السد العالي التابعة لمنطقة كهرباء جنوب الصعيد التابعة لوزارة الكهرباء والطاقة. كثير من الابتسامات غمرت نفس أسامة - أثناء انهماكه في تسجيل بياناته الشخصية - عندما كان يقارن لا شعورياً بين لقب السيد المهندس أسامة محمد المصري.. ولقب حضرة الضابط المهندس

الملازم أول احتياط مركبات أسامة محمد المصري.. والذي فقدته منذ بضعة أيام في غمرة إخلاء طرفه من كافة مواقع وزارة الدفاع. قرب الساعة الثانية بعد الظهر، أرشد أسامة إلى غرفة معيشته.. داخل مبنى خصص لأمثاله من السادة المهندسين العزاب.. والمبنى أنشئ في الأساس ليكون مدرسة ابتدائية، فهو مكون من طابقين، وفي كل طابق توجد مجموعة متراحة من الغرف - جهة الغرب - ويواجهها مطبخ وحمام مشتركين، ومجموعة من الخزائن بعدد الغرب- الذي يبلغ عددها العشرة - في كل طابق. احتوت كل غرفة على سرير وفراش وثير ومقعدين ومنضدة وصوان ملابس (دولاب).. وجميعها من إنتاج الشركة العربية العامة للأثاثات المعدنية (إيدال).. التي اشتهرت بجودة منتجاتها ورونقها.. تضم الغرفة أيضًا سجادة بسيطة بلون اللين المختلط بالقهوة أو لون القهوة المختلط باللبن - كيفما اتفق - وبالفرنسية (Cafee au it) وطرز على طرفها الأيمن بلون بني غامق وبخط مائل اسم "السد العالي". يوجد باب شرفة (بلكونة) في منتصف الجدار الغربي، المواجه لباب الغرفة والواقع في ركنها الشرقي الجنوبي. الغرفة - في عمومها - متسعة ومريحة وأفضل مما كان متاحًا لأسامة - وأمثاله - داخل ثكنات القوات المسلحة.. كما أنها أفضل كثيرًا مما كان متاحًا في منزل أهله. أما الشيء الجديد تمامًا في الغرفة.. فهو وجود نافذتين -أعلى جدرانها الجنوبي - لنفث الهواء المكيف، إحداها تدخله.. والثانية تسحبه لتعيده إلى جهاز التكييف المركزي.. الواقع أسفل الأرض بجوار التوصيلات الكهربائية الرئيسية ولوحات توزيعها والخاصة بإنارة الغرف والصالة (والقاعة) المشتركة أمامها.. والممتدة بطول صف الغرف من الجنوب إلى الشمال - أو العكس - فتحيل ليلاً إلى نهار وظلامها إلى نور. في الطقس الحار الجاف لأسوان تكتسب أجهزة تكييف الهواء ومراوح تقليبه.. جنبًا على جنب مع "ثلاجات حفظ الأطعمة وتبريد المشروبات أهمية بالغة.. وفي مقدمتها مياه الشرب.. بطبيعة الحال. رتب أسامة حاجياته وملابسه ومنقولاته القليلة داخل غرفته، ثم وضع راديو نقال صغير (ترانزستور) قرب سريره.

وعند موضع رأسه - فوق صوان صغير (كومودينو).. ثم تنقل عدة مرات بين غرفته والمطبخ والحمام والصالة.. وفي كل مرة كان يلتقي بجيرانه - ومن على شاكلته - فيتبادل معهم أحاديث التعارف وعبارات الترحيب الأجوف والسعادة المدعاة.. للحظات اللقاء الأول بأشخاص يراهم للمرة الأولى في حياته.. فتدفعه التقاليد المجتمعية إلى القول..

- سعدت بمعرفتكم.. سررت بلقائكم.. هنتت لمرآكم.. وهو من كل ذلك براء.. براءة الذئب من دم ابن يعقوب..!! في الصباح الباكر لحق أسامة بحافلة (الدوام) العمل النهاري التي وصلت إلى حرم (ميز) سكن العزاب في الساعة السادسة صباحًا وخمس وأربعين دقيقة، ودخل الحافلة واصل أسامة مفردات التعريف بشخصه إلى باقي ركاب الحافلة.. الذين شملهم ابتهاج غامض بقدم مهندس جديد.. تبدو عليه كل سيماء الجدية والصرامة العسكرية والحيوية البدنية والهندسية الميكانيكية. أكثر من نصف الحافلة كانوا يعانون من الإرهاق والتناوم..!!.. رغم بكورة الصباح الذي لم يبدأوا فيه أي عمل.. سوى ركوب الحافلة ذاتها.

أرجع أسامة ذلك إلى طول السهر في الليلة السابقة وملل التعود على فعل نفس الشيء - كركوب الحافلة صباحًا - مرات عديدة. دارت الحافلة في الشوارع المشجرة والملتوية، وتوقفت عند بعض المواقف



(المحطات) المتفق عليها سلفاً لنقل باقي الركاب من المهندسين والفنيين والإداريين ورجال الشرطة والإطفاء.. فالكل له أهميته وله وظيفته - التي تساهم بطريقة أو بأخرى- في تنظيم توليد الكهرباء واستهلاكها طوال العام.. لخير مصر والمصريين..

خرجت الحافلة من مدينة"صحارى" فوق طريق ممتد جديد محاط بالأشجار الحيلة من الجانبين، النهار في شدة الوضوح بفضل شدة أشعة الشمس المحتضنة لكل شيء تلامسه، لا يوجد تقريباً من يسير على قدميه.. ومن يضطر لذلك يلزم الظلال الشجية. والرمال الصفراء الشاحبة تتماوج فوق الطريق.. فاتحة أذرعها المرحبة بكل من يسير عليه. وسائقوا الحافلات وجميع أنواع السيارات الأخرى يتبادلون التحيات والإشارات وغمزات الأعين.. كلما تقاربوا أو توجهوا، وكذلك يفعل بعض الركاب مع معارفهم الموجودين في مركبات أخرى.

اقتربت الحافلة من مدخل جسم السد العالي - جهة الغرب - فتوقفت عند نقطة أمينة للتفتيش والفحص، ثم واصلت سيرها بسرعة متوسطة.. فلمح أسامة من نوافذ الحافلة المياه القريبة جهة جنوب السد (أمامه) تمتد جنوباً إلى خلف حدود البصر.. تنعكس عليها أشعة الشمس كمرآة ضخمة أو كسطح معدني مصقول لامع وعاكس للطاقة (للصهد) الحرارية المحتوية لجسم السد ذاته.. والذي هو ركام ضخم مغطى بطبقة من الكتل الأسمنتية المسطحة، بدت أكثر وضوحاً جهة شمال السد (خلفه) لانخفاض مستوى المياه بها.. والتي تجري شمالاً في نفس ماء نهر النيل العظيم.. إلى كافة مناطق مصر المحروسة للري والشرب والأغراض الصناعية والصرف الصحي وتقليل ملوحة البحر الأبيض المتوسط..!! (عندما يتحدث العامة عن أمام السد (جنوبه) وخلفه (شماله).. يقلبون (يعكسون) الجهتين.. لأسباب مريبة وأهداف غامضة..!!.. ولكن الراوي العليم (معضداً من الراوي الأكثر علماً) يصر على وضع المسميات الجغرافية في أماكنها الصحيحة والمتعارف عليها في آن. فجنوب السد هو (أمام السد).. وشمال السد هو (خلف السد).. مهما تقول المدعون وتشدد الجاهلون بالجهات الجغرافية الأصلية.. وغيرها".

قاعدة جسم السد عريضة من أسفل.. بينما يضيق تدريجياً في اتجاهه نحو القمة.. والتي هي سطح مرصوف يتسع لمرور أربع حافلات في الاتجاهين، إضافة إلى رصيف عريض للمشاة والسائقين.. الذين يستقبلون بكل حفاوة عند الركن الجنوبي الغربي من مدخل السد، وهو ركن مشجر تتوسطه زهرة لوتس شاهقة الارتفاع.. من الأسمنت المسلح المطلي باللون الأبيض الناصع.. الشجي - في لون اللين الطازج - وأعلى مستوى البصر بقليل.. حفرت في تعجل الملامح الجانبية لوجه الرئيس الراحل جمال عبد الناصر حسين.. الذي أفلح في بناء السد العالي، بينما حفرت بتؤدة كامل ملامح وجه (بورترية) الرئيس الراحل - أيضاً- محمد أنور السادات.. الذي افتتح حفل انتهاء مشروع بناء السد العالي..!! بقص شريط الدخول إلى حرم زهرة اللوتس الأسمنتية الرمز الخالد للصدقة بين مصر المحروسة ودولة اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية (USSR/CCCP).. واختصاراً رمز الصداقة"المصرية الروسية".. واعترافاً بفضل الجانب الروسي الذي قدم المساعدات الفنية والخبرات الهندسية والتصميمات المستندية والتعليمات الوثائقية والمعدات غير المعدنية والمعدنية.. لبناء كامل مشروع السد العالي بأسوان.. اعتماداً على السواعد والخبرات



والإمكانات المصرية المتواضعة.. في ظروف محلية وعالمية أكثر تواضعاً.. على المستوى المصري والعربي والغربي والشرقي.. والحياتي في الأساس..

واصلت الحافلة سيرها - فوق جسر السد - في اتجاه الشرق والشمس في مواجهتها تخطف بصر سائقها وكل من لا يتحاشاها. مسطحات المياه جهة الجنوب والشمال ترحب بالقادمين حتى نهاية الطريق العلوي.. الذي انحنى شمالاً ثم جنوباً هابطاً إلى المدخل العلوي لمحطة كهرباء السد العالي. انضمت حافلة "صحاري" إلى مثيلاتها من الحافلات الأخرى.. القادمة من مناطق أسوان ودوار والشلال والسييل والخور.. التي تضم باقي تجمعات المهندسين والفنيين والعمال والمعاونين والشغيلة. إضافة إلى حافلات شركة المقاولات العامة والخاصة ومن الباطن.. وأعدادهم تبلغ أكثر من ضعفي أعدادهم نظائهم السداويين العالين..

اصطف أسامة مع باقي رهطه في طابور للتفتيش الأمني الخاص بالدخول إلى قلب محطة الكهرباء، المكونة من عدة مبان ضخمة متعددة الطوابق فسيحة الأرجاء. وفقاً لتوجيهات من يحيطون بأسامة، هبط بالمصعد الكهربائي على طابق إدارة تشغيل المحطة.. فوجد نفسه كعود كبريت يقف داخل شرفة (بلكونة) مسقوفة..!! تلفت يمنة ويسره ثم إلى أعلى.. ثم أعاد التلفت في كل اتجاه لتستوعب ضخامة الفراغ الذي وجد نفسه فيه.. والذي ذكره بمحطة قطارات السكك الحديدية بالقاهرة..!! مع ضجيج أقل وبشر أكثر توزيعاً وانتظاماً.. وعلى وجه الدقة اقترب بهو محطة الكهرباء بأسوان صباحاً.. من بهو محطة القطارات بالقاهرة عند منتصف الليل..!! الأرض والجدران تبرق بالنظافة ومعدات الكهرباء تلمع بالرونق وعدادات القياس مصقولة كمرآة، واستنتج أسامة أنه في طابق التحكم في تشغيل ومتابعة المحركات المائية (التوربينات الهيدروليكية) المولدة للكهرباء، عرف ذلك من سابق دراسته لها. استجمع أسامة ذاته المبهورة بفخامة وضخامة كل شيء حوله، ثم سأل أقرب المارين بجواره عن مكان مكتب مهندس وردية التشغيل.. ثم ذهب إليه فرحب به بعد أن كشف شخصيته وقدم أوراقه ومستنداته ووثائقه. وفي الحال نشطت التليفونات في كل اتجاه لتنتقل خبر وصول السيد المهندس أسامة محمد المصري، الذي عين "كمهندس وردية" تحت التدريب لمدة ستة أشهر، قد تصل إلى تسعة أو اثني عشر شهراً.. ويبدأ عدها من اليوم.

ألحق المهندس أسامة مع مجموعة عمل المهندس مجدي، أقدم مهندسي الورديات لتدريبه ورعاية كافة شئونه وإعداداته ليحل محله.. تمهيداً لنقل السيد المهندس مجدي إلى قسم الصيانة الميكانيكية.. فور تأهل السيد المهندس أسامة لمسئوليته المقررة سلفاً.

حذر المهندس أسامة من لمس أي شيء بيديه.. مع التركيز على الفهم والمراقبة وتسجيل الملاحظات والبيانات الفنية.. ثم الإبلاغ عن كل منافع للمألوف فيما يخص المعدات والمباني والأفراد، مع ملازمة المهندس مجدي كظله - في غدوه ورواحه - والإنصات الجيد لكل كلمة يقولها له أو لغيره. قرب الساعة العاشرة صباحاً تناول أسامة إفطاره سريعاً مع كوب شاي، ثم ذهب في جولة عامة داخل كافة طواب المحطة التي ضمت مكاتب السادة المديرين وغرفة التحكم الرئيسية - المتصلة بباقي محطات الكهرباء الأخرى في عموم مصر المحروسة - وإدارات الصيانة والفحص والمختبرات والتدريب والأمن والسلامة والمراقبة، ثم

طوابق الشبكات الكهربائية والمحولات والمضخات (الطلمبات) والضواغط (الكمبرويسورات) والمحركات المائية (التوربينات الهيدروليكية) والمراكم (البطاريات) وخطوط الكهرباء ولوحات التشغيل والتوزيع والتوصيل والفصل والعزل وشبكات المياه والهواء والزيت والبخار والصرف والمخازن ودفاتر تسجيل قراءات عدادات المتابعة وحضور الأفراد والنماذج الورقية والمستندية والوثائقية والتصاريف التي تنظم حركة دخول وخروج العمال وبدء وانتهاء العمل واستلام وتسليم المعدات..

صعد أسامة وهبط فوق السلالم وداخل المصاعد، سار أسامة في جميع الاتجاهات.. يسمع ويراقب ويشاهد ويستوعب ويفهم. صمت كثيرًا وتحدث قليلاً، نشاط أذنيه فاق نشاط لسانه بعدة مراحل.. فهذا وقت الاستماع، بينما وقت الحديث لم يحن بعد.

في الساعة الثانية والرابع - بعد الظهر - ركب أسامة حافلة العودة إلى غرفته "بصحارى" غرب السد. تناول بعض الطعام وتبادل بعض الحديث مع زملاءه الذين جالسهم مساء، ثم ذهب إلى النوم المبكر الذي غمرته أطياف الأمانى الملونة.. والتي رأى فيها ما غاب.. مما يخلب الأبواب.. ويجفف اللعاب..

- مجلس قيادة الثورة - بيان رقم واحد - تولى أمر بلادنا إما جاهل وإما مستبد وإما مستغل.. لذا قررنا القيام بالثورة..!! ليس طمعاً في الحكم ولا بحثاً عن الثروة ولا الحديث عن الحرية والديمقراطية.. أيها الإخوة المواطنون، الضباط الأحرار ينادونكم.. يتحدثون إليكم.. ارفع رأسك يا أخي فقد مضى عهد الاستبداد..

- أيها الإخوة المواطنون، قمنا بالثورة من أجل بناء السد العالي.. من أجل توفير المياه والكهرباء الرخيصة. قمنا بالثورة لحمايتكم من الفيضانات العالية المدمرة ومن الفيضانات الشحيحة والمنخفضة التي تسبب عطشكم وأولادكم وأسركم وحيواناتكم وذراعتكم.. على الاستعمار أن يحمل عصاه على كاهله ورحل.. لا مكان لخائن بيننا..!! الملك لم يكن خائناً.. لم يكن سكيراً.. لهو سليل أسرة شريفة وكريمة.. إنني أنفي هنا صفة الخيانة عن جميع المصريين. لا يوجد مصري واحد خائناً، المصري والخيانة لا يجتمعان.. فهما على طرفي نقيض. إن كلمة مصري تنفي كلمة خائن. إن جلالة الملك فاروق الأول ملك مصر والسودان وولي عهده الأمير أحمد فؤاد الثاني ومحمد محمود باشا وأحمد حسنين باشا وحيدر باشا وعبود باشا وفؤاد سراج الدين باشا ومصطفى النحاس باشا وعلي ماهر باشا وأحمد ماهر باشا.. وكل من يحمل رتبة أو لقب باشا - في الماضي والحاضر والمستقبل - هم سادتنا الأفاضل.. هم تيجان رؤوسنا.. هم زهور حدائقنا.. هم أرواحنا.. هم أنفاسنا.. حياتنا لا تمضي إلا بهم، لهم منا الطاعة والتبجيل والاحترام، فهو يعرفون جيداً ليس فقط ما يعملون.. بل أيضاً ما يقولون.. أيها الإخوة المواطنون لا تستمعوا إلى ما يقوله الأعداء عنا.. نحن الأحرار قمنا بالثورة من أجلكم.. من أجل بناء السيد العالي وتشغيل أبناءكم فيه، بعد بناءه ستجدون الطعام والفواكه، ستجدون المساكن اللائقة

والمواصلات المناسبة، لن يشكو أحد من الفقر ولا من الجهل ولا من المرض. سينتهي كل ذلك وسنعيش في أمان بكل حرية وعزة وكرامة.. ارفع رأسك يا أخي فقد مضى عهد الاستعمار.

- سنبنى السد العالي وسنشرب من مياهه العذبة. أما الاستعمار فيشرب من البحر الأبيض.. وإذا لم يرتو يستطيع أن يشرب من البحر الأحمر أو الأسود.. فأمامه الكثير من البحار والمحيطات.. لكن مياهنا ستبقى جميعها لنا جميعاً.. بعد بناء السد العالي سنعود إلى ثكناتنا العسكرية أو إلى بيوتنا، وسندع جلالة الملك المفدى هو الذي يقص شريط الافتتاح.. لمهرجانات اكتمال المشروع.. بدلاً من سيادة الضابط الرائد (إشارة) محمد أنور السادات..!! نعم أيها الإخوة.. بل ألف نعم.. نحن لا مطامع لنا في حكم مصر، فهذا شرف كبير لا نحلم به.. وفي واقع الحال نحن لا نستحقه.. فهذا الشرف جديرًا بغيرنا من حملة الرتب والنياشين والألقاب والمراكز العليا.. الذين يقبلون أصابع الملك المفدى ليلاً ونهاراً.. نحن بدورنا سندهب لتقريب أصابع الملك.. مهما طال الزمن بنا لن نستغني عن ذلك. نعم أيها الأخوة سنبنى السد العالي وسنضعه تحت أقدام جلالة الملك المفدى فاروق الأول ملك مصر والسودان.. ثم نعود إلى معسكراتنا وأسلحتنا للدفاع عن مصر وسحق أعدائها. الله.. الوطن.. الملك.

وتلى ذلك "مارش" موسيقى تحية جلالة الملك ونشيد "اسلمي يا مصر إننا الفداء.." والذي تحول إلى طرقات فرزة على باب غرفة أسامة.. فانتبه لها ثم هرول مستطلعاً إلى من يوقظه من حلمه الملكي ليجد زميله المهندس محمود منزعاً من تأخره في النوم رغم قرب وصول حافلة الوردية. أسرع أسامة إلى دورة المياه ومنها إلى ملابسه ثم إلى مخرج السكن العزابي انتظاراً للحافلة، التي وصلت في الساعة الخامسة وخمس وأربعين دقيقة، فأقلت كوادر وردية الصباح إلى محطة الكهرباء التي وصلتها في الساعة السادسة جري تسلم وتسليم واجبات العمل والمعدات - بين وردية الليل ووردية الصباح - مع تبادل المعلومات والملاحظات الفنية والإدارية المتعلقة بعمل المعدات وكل ما يخص إدارة التشغيل. جلس أسامة داخل غرفة الورديات متجهماً مشتمت التفكير.. تتطاحن رأسه الهاتفات الملكية والمبادئ الجمهورية والثوابت الثورية، ودهش كثيراً لعدم اكتفاء رجال الثورة الأحرار والعبيد.. ببناء مشروع السد العالي وإصرارهم على الاستمرار في حكم مصر، وهو ليس من صميم مسئولياتهم.. كما لم يطالبوا به جلالة الملك المفدى ولا سمو ولي عهده الأمين، وانتهى أسامة إلى أن في الأمر خطأ ما.. أجبر الثوار على عدم العودة إلى ثكناتهم العسكرية أو منازلهم على أقل تقدير.. فما هي الأسباب؟.. التي دفعت بناة السد العالي إلى الاستمرار في حمل مسئولية حكم مصر وهو ليس بالحمل الهين..!!

رافق المهندس أسامة مدربه المهندس مجدي في جولته الصباحية على كافة معدات التشغيل، وفي مقدمتها "التوربينات الهيدروليكية" ومرافقها وملحقاتها. ثم مراجعة دفاتر قراءات المتابعة الدورية والتي تتم كل ساعتين للاكتشاف المبكر للأعطال ولكل ما يهدد سلامة العمل، ويشمل ذلك درجات الحرارة وأحمال الطاقة الكهربائية والضغط وكميات المياه المستهلكة وشدة التيار الكهربائي وجهده وقدرته المقاسة بـ "الميجاوات والحصان الميكانيكي".. مع التأكد من سلامة توقيع الفنيين الذين يقومون بعمليات المتابعة والتسجيل الدفترية.



وبعد هذه الجولة الصباحية التي استغرقت قرابة الساعة - مروراً وصعوداً وهبوطاً - في عدة طوابق عاد المهندسان مجدي وأسامة إلى غرفة الوردية.. منتفخان بالمعلومات والملاحظات والبيانات الفنية، فجلسا معاً يدونها في دفاتر أخرى.. أكثر تصفيفاً وفقاً لأقسام الصيانة والفحص التابعة لها أو المكلفة بتسليمها ثم الاهتمام بها، فإذا كانت عطلاً عملت على إصلاحه أو إزالته في أقرب وقت، وإذا كانت معلومات فارقة وخارجة عن المعتاد والمأمول عملت على متابعتها. بحثاً عن العلل والأسباب وما أكثرها. فالمكونات الميكانيكية والكهربائية للتوربينات الهيدروليكية - ولغيرها - مترابطة معاً ترابطاً عضوياً.. كالجسد الواحد إذا اختل منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالشكوى والأنين المعدني!!..

قرب الساعة التاسعة صباحاً تناول أسامة مع مجدي بعض الطعام السريع وأكواب الماء والشاي.. تقوياً لمسؤوليات باقي اليوم.

مشروع بناء السد العالي عامة - ومحطته الكهربائية خاصة- كان فرصة ذهبية لقطاعات كبيرة من المهندسين القدماء والجدد - على السواء - للتعرف على الخبرة السوفيتية الهائلة في كافة المجالات المائية والميكانيكية والمدنية والكهربائية والنقل والمواصلات. ومثل المشروع جامعة عملية لتخريج كافة المسؤولين الذين أداروا شئون مصر الهندسية لعدة عقود. وحتى عام ١٩٧٠ م سبيعياً وتسعمائة وألف من التقويم الميلادي، كانت كامل المسؤولية الفنية والإدارية - لكامل المشروع- تقع على الجانب السوفيتي.. الذي كان في ظله جانباً مصرياً متيقظاً نشطاً - كدبابير النحل الشابة- في تحصيل وتسجيل وتوثيق وامتصاص كافة الخبرات المطروحة فوق كتل الصخور والأحجار وحبيبات الرمال والأسمنت وأسياخ حديد التسليح الملتهب تحت حرارة شمس أسوان - طوال العام - ومياه النيل العظيم. ما من كلمة أو فعل صدر من سوفيتي إلا وتلقفته آلاف الأذان والأعين والأذرع والأصابع. المصريون جميعاً في أسوان وما حولها- كانوا واثقين من أن "السوفيت" سوف يرحلون يوماً ما.. فأعدوا أنفسهم لهذا اليوم.. الذي جاء مع باكورة عام ١٩٧٠ سبعين وتسعمائة وألف من التقويم الميلادي.. فنشطت الخبرات المصرية الكامنة والمعرفية المكتسبة وميراث السنين في الإدارة والتنظيم وتسيير الكتل البشرية في احتلال مواقع المسؤولية، كل فيما يخصه وفيما هو ملائماً لتعليمه وخبراته واستعداداته.. وقدراته في الأساس، ودهش السوفيت - وغيرهم- من الكنوز الهندسية والنظرية والعلمية المتوارثة والمكتسبة والمخبأة داخل كينونة الذات الجمعية المصرية.. والتي تفجرت بالحزم والتنظيم والإدارة والتضحية.. فور تسلمهم لكافة مهام ومسؤوليات أعظم وأكبر المشروعات المائية والهندسية خلال القرن العشرين.

حكى المهندس مجدي للمهندس أسامة ذكرياته الحميمة في العمل مع قرنائه السوفيت أمثال أليكسي وبرويس وبيتيروشكا وخافجو وفيدورا وإيفانوفيتش وأندريافيتش وستيبانوفيتش وفلاديميروفيتش وميخائيلوفيتش وإيليفانوف وبيتيرنوف وسميرونوف وميتانوف وبسكانوف.. وكانوا جميعهم متميزين بالنشاط والالتزام والخبرات والحيوية والإخلاص والنقاء والوضوح.. والتهام البصل المنقوع في الخمر (الفودكا) أو غير المنقوع في أي شيء على الإطلاق!!.. ليلاً ونهاراً.. مع إغواء كافة المصريين بتقليدهم والاقتداء بسلوكهم.. كسباً للخبرات النادرة والصحة الجسدية والسعادة الدنيوية.

كان أسامة يطرب لما يسمع من أعاجيب السوفيت في القول والفعل، ثم يقارن ذلك بما قرأه في كتب الأدباء السوفيت أمثال ليف تولستوي ومكسيم جوركي وفيدورو ويستيوفسيسكي ويخائيل شولوخوف وإيفان تورجنيف وأنطوان تشيكوف وألكسندر بوشكين وإيفيتشينكو وجوجل وليرمنتوف.

رغب أسامة في معرفة المزيد والمزيد من ثقافة الشعوب الروسية والشعوب السوفيتية.. التي تبدو طبقاتها الدنيا من العمال والفلاحين مشابهة في معيشتها وآلامها وأملها للمصريين خاصة وللباقى العرب عامة. وبالحديث مع زملاءه علم أسامة بوجود مكتبة ثقافية ضخمة في نادي "صحارى".. فزارها مساء. تجول أسامة بين صفوف الكتب ورؤفوها وحواملها ومناضدها وفهارسها وتقسيماتها.. التي حوت الأدب العربي فالفرنسي فالإنجليزي فالروسي فالإسباني.. فباقي الآداب. أعجب أسامة بكم الكتب وبنظامها ورونقها وألوانها البنية - من كافة الدرجات - وقرر على الفور تنظيم حياته ووقته وجهوده.. لقراءة أكبر قدر ممكن من هذه الكنوز المعرفية التي لا تقدر بثمن.. وكبداية لجأ إلى أمهات الكتب العربية.

تقع المكتبة في الركن الجنوبي الشرقي لمبنى النادي ويجاورها من جهة الشمال مطابخ وقاعة طعام، ومن جهة الغرب قاعة جلوس فسيحة تطل من ثلاث جهات على حديقة غناء، أعلى المكتبة يوجد قاعتين لعرض الأفلام السينمائية.. إحداها تستخدم خلال فصل الصيف والأخرى لفصل الشتاء كما تستخدم كمسرح ولعروض الفرق الشعبية الزائرة - التي تقدم كافة فنون الرقص والغناء والتراث - للشعوب العربية والسوفيتية - إلى جوار قاعات المسرح والسينما يوجد فناء للجلوس وتبادل الأحاديث (تراس). مبنى النادي بكامل مفرداته يعد مركزاً ترفيهياً رائعاً.. وسط الصحاري المحيطة من الجهات الأربعة لمدينة "صحارى"، ففيه تقام معظم الاحتفالات الدينية والقومية والوطنية للزوار والضيوف والأسر والأصدقاء.. ولتبادل المزاج والأسرار وتضييع الوقت في المجادلات والفسطة والنميمة. وبالنسبة للعزاب يمثل النادي الحزن الأسري المفقود.. الذي يجدون في أعطافه الطعام والشراب الجاهز كما يجدون بين جوانحه كل الفرص للبلقة في الجنس الآخر.. النادر ندرة الإنسان في فم كهل تجاوز المائة عام.

الأسعار المرتفعة لوجبات النادي.. دفعت أسامة إلى تناولها لمرتين فقط كل أسبوع. أما المكتبة فقد كان يزورها يومياً - صباحاً أو مساءً - اعتماد على مواعيد عمله بنظام الورديات الثلاث. قلة من يهتمون بالأدب في هذا الفراغ الصحراوي الرهيب المعتمد على المشروع الهندسي - في الأساس - أتاحت فرصاً كثيرة لأسامة للإطلاع المكثف والمثمر في آن، كما أتاحت له فرصاً أكثر في توثيق علاقته الإنسانية مع "أمين المكتبة" الأستاذ خليفة الذي كان يشكو من قلة زواره الراشدين.. وكثرة زواره العابثين.. الذين يعتمدون بعثرة المراجع والكتب والدوريات.. دون اهتمام حقيقي كما يفعل "الباشمهندس" أسامة محمد المصري.. رجل الهندسة والثقافة العامة والمتخصصة.. وهذا أقل ما يمكن وصفه به خلال أحاديث "أمين المكتبة" مع جلساته غير المبالين به وبأسامة وأشباههما.

خصص أسامة كل ساعات العمل بالورديات الثلاث - للنهل من المعرفة الهندسية المؤهلة له لممارسة عمله بكل كفاءة وأمان وسلامة داخل كافة طوابق محطة الكهرباء، كما خصص معظم وقته خارجها للنهل

من المعرفة الثقافية المؤهلة له لممارسة حياته بكل سرور وسهولة.. لذا قلما تخلو غرفته من كتب الجغرافيا والتاريخ والفلسفة والمنطق والآداب والعلوم الاجتماعية.. المحلية والعالمية. وقدر أسامة أنه خلال سنوات قليلة سيصبح قامة ثقافية عالية.. تطاول القامات المعرفية لعباس محمود العقاد وطه حسين وتوفيق الحكيم.. سلبيات هذا التوجه المعرفي ظهرت في اضطرار أسامة إلى اعتزال معظم من حوله، وخاصة أولئك العابدين للتلفاز والتدخين ومباريات كرة القدم.. التي ما أن تنتهي حتى تبدأ من جديد بصورة أكثر شراسة وأكثر تصميمًا.. على تضییع الوقت وهدر الجهود وتعميم السفاهة ونشر التفاهة والسطحية.. فيبدو الإنسان كهباء منثور في جوف عاصفة هوجاء.. وحتى لا يتهم أسامة بالانعزالية والانطوائية - والنجسية في الأساس - تعمد بين الحين والآخر المشاركة في تشجيع هذا الفريق أو ذاك، ومشاهدة هذه المناظر أو تلك.. وهو في أغلب الوقت مسارح في ملكوت آخر.. لا يمت بأي صلة لما يدعيه في ظاهره.. والذي كان يكشف عند السؤال عن أسماء الفرق المتنافسة أو اللاعبين المتناحرين.. الذين لا يفرق بينهم أسامة بالاسم أو الشكل أو ألوان الملابس الرياضية والبيارق الأكثر رياضية.. وفي لحظات الحرج كان أسامة يبرر ذلك بإرهاق العمل وقلة ساعات النمو واقتقاد الأهل.. تعلم أسامة - فيما تعلمه من زملائه - كيفية إعداد بعض الوجبات السريعة توفيرًا لتكلفتها الباهظة في مطعم النادي.. مثل قلي البطاطس وسلقها وطبخها في صينية فرن شاملة اللحوم وعصير الطماطم والبصل، وكذلك قلي الباذنجان وسلقه وإعداده في صينية فرن. أما الأهم من كل ذلك فهو سلقهم اللحوم والدجاج والبيض وطبخ الأرز.. بعد عدة محاولات فاشلة انتهت بالتفحم (الشياط) وأكياس القمامة. وفي أيام العطلات ونهاية الأسبوع كان أسامة يشارك زملاءه - ذوي الخبرة المطبخية - في إعداد "صينية فرن" لسماك البلطي الكبير الحجم، الذي تزن الواحدة منه خمس أو ست كيلوجرامات، مع إحاطتها بكل ما ذلك وطاب من عصير الطماطم والبصل المبشور والليمون والملح والفلفل. ثم يظل الحديث عن كل ما يخص هذه الوجبة لعدة أيام تالية.. عقب تناولها وهضمها وتصريف بقاياها وذهاب روائحها الشهية.

أما أسامة فلم يكتف بالحديث عن السمكة.. بل لجأ إلى الحديث إليها..

- هل أنت مسرورة بوجودك بيننا..؟

- كلا.. كلا.. أنا في غاية الأسى.. وأريد العودة إلى النيل..!!

- وإذا ساعدتك على عودتك إلى أهلك.. ماذا سيكون جزائي؟؟!!

- سأدلك على مكان كنز عظيم.. أسفل سطح النهر..!

غمرت الغبطة نفس أسامة وذهبت أحلامه بعيدًا.. بعيدًا.. إلى جوف النهر العظيم المحتضن لأعظم الكنوز وأنفسها، وحدث أسامة نفسه بأن السمك لا يعرف الغدر أو الكذب.. فهو لم يعاشر كثيرًا بني البشر الخربين. انتظر أسامة غبشة الفجر.. ثم وضع السمكة في كيس به ماء وهواء، تسلل من مسكنه إلى أشجار الطريق، تنقل من جذع إلى آخر.. متحاشيًا الضجيج ولفت الأنظار، خرج من مدينة صحارى ثم اتجه شرقًا إلى مجرى النهر العظيم، انزلق على شفته المائلة - بكل حرص وحذر - حتى وصل إلى حافة المياه الفاترة

بالطاقة.. فطلبت منه السمكة أن يقفز خلفها داخل المياه.. ثم يتبعها كظلها إلى موضع الكنز العظيم. غاصت السمكة واتخذت موضع المرشد والدليل لأسامة.. الذي سبح خلفها بكل طاقته، ولكن رغم مهارته فوق الماء وأسفله.. كان كثيرًا ما يتخلف عن السمكة.. التي تضطر للتوقف حتى يلحق بها وهي تعطيه كثيرًا من إشارات ذيلها وزعانفها ليقترّب أو ينحني يمينًا أو يسارًا. وخلال سير السمكة كانت تلتقي برفيقاتها.. فيهنئونها بسلامة العودة.. فتخبرهم عن أسامة الذي يسبح خلفها بحثًا عن الكنز.. فتبتسم الأسماك ثم تفرق في كل اتجاه بحثًا عن قوت يومها.

أشار أسامة إلى السمكة بالتوقف، ثم أخبرها بإرهاقه وبموعد ورديته الموشك على الحلول وسألها صراحة..

- إذا لم يكن هناك كنز.. فلا داعي لمواصلة السباحة!!..

- الكنز طوال الوقت كان أسفلنا..!!.. كنا نسبح فوقه ونمرح.

نظر أسامة إلى قاع النهر العظيم.. فوجده مغطى بطبقات من الطمي الطازج الثري بالعناصر الغذائية لكافة المزروعات مثل القمح والذرة والشعير والأرز والخضراوات والفواكه.. إن هذا الطمي هو كنز من اللؤلؤ والياقوت والمرجان.. وما على المصريين سوى نقله من قاع النيل العظيم.. إلى أسطح الأراضي الصحراوية والجذباء.. فتتحول بقدرة قادر وبقليل من العناية إلى أراضي زراعية جيدة تنافس في خصوبتها وإنتاجيتها المحصولية أراضي الوادي القديم ودلتاه.

شكر أسامة السمكة على معونتها القيمة وعلى حرصها واهتمامها بخصوبة الأرض المصرية وزيادة رقعته الزراعية.. وبالتالي المحاصيل وفرص العمل والثروات.. خرج أسامة من جوف نهر النيل العظيم إلى بوابة محطة الكهرباء ليلحق بورديته فقال له بعض زملائه..

- ما كل هذا الطمي الذي يلتصق بقدميك..؟

- كنت أترىض على ضفاف النيل.. ثم انزلت على حافته..!!..

ذهب أسامة إلى واجبات عمله.. وعقله مشغول بكيفية نقل كنوز الطمي الذهبي - الراقد فوق قاع نهر النيل العظيم - ثم توزيعه على كافة الصحاري المصرية والعربية.. لتحيل لونها الأصفر الشاحب إلى الأخضر الزاهي..

معدات محطة الكهرباء تشغل عدة طوابق، وكل طابق له منسوب متري وهو يمثل ارتفاعه العمودي عن سطح الأرض، عند قاع النهر العظيم تخرج مياه الري.. إلى بداية مجرى مياه النيل شمال جسم السد العالي. وفي بعض الأحيان ينسى الفنيون اسم الطابق.. لكن في نفس الوقت لا ينسون أبدًا منسوبه المتري..!!.. وذلك لارتباطه المباشر بكافة أعمالهم وحساباتهم الهندسية المحددة للضغط والكمية والوقت والسرعة ودرجة الحرارة.. وكلها عوامل تدخل بصورة أو بأخرى في تحديد كميات المياه.. التي تجري بين ضفتي النيل العظيم متجهة إلى شمال البلاد. خلال يوم تدريب أسامة يفحص في كل طابق أسماء المعدات ووصلاتها ووظائفها ومظاهر تعطلها، وما هي الواجبات المفترض اتخاذها عند ظهور أي عطل أو توقف أي معدة عن

العمل، ويشمل ذلك المحركات المائية (التوربينات الهيدروليكية) والمضخات والضواغط والمراوح والمبردات والمحركات الكهربائية والميكانيكية وبوابات المياه والمحابس والمقاييس والعدادات.. مع تسجيل ومتابعة كل القراءات في دفاترها الخاصة.. ثم الإبلاغ عن أي عطل فور ظهوره ومتابعة إزالة وإصلاح الأعطال السابقة. وبعد كل ذلك وقبله، متابعة عمال الصيانة والمقاولين والتأكد من سلامة ظروف أعمالهم - جنباً إلى جنب - مع سلامة سلوكهم ومطابقته لكافة قواعد الأمن الصناعي والسلامة المهنية التي تضمن سلامة العامل وسلامة المعدة.. بتجنب حوادث الموت والاختناق والجروح والكسور والسقوط والتسمم.. وتلف المعدات ذاتها. وفي نفس الوقت الاستخدام الدائم لأدوات السلامة والأمان الصناعي مثل الحبال الغليظة والسلالم والقفزات والحبال البلاستيكية وأجهزة التنفس الصناعي بالهواء والخوذة الواقية لكل رأس وأدوات الاتصال بين أعضاء كل فريق عمل وإدارته.. لا يكفي أسامة بتوظيف عقله وعينيه فهناك أيضاً أذنيه التي تلتقط الأصوات والضجيج المحيط بكل معدة ويحفظه بدرجة معينة تحقق التشغيل الآمن وعند ارتفاع الضجيج عن هذه الحدود - المبرمجة مسبقاً داخل رأس أسامة وأقرانه - يتم افتراض وجود عيباً ما أو خطراً كامناً داخل المعدة الخارجة عن المؤلف.. فيتم مراقبتها ومتابعة عدادات القياس المحيطة بها لقياس الضغوط والحرارة والذبذبات والاستهلاك والكميات.. وفي العادة يكتشف شيء غير عادي في هذه القراءات.. فيتم إيقاف المعدة وفصلها عن شبكات التشغيل، بعد تشغيل قرينتها المتوقعة في وضع الاحتياط.. استعداداً للعمل الفوري.. لتحجيم الأضرار والفوائد والتكاليف. السيد المهندس أسامة محمد المصري خير من يحفظ التعليمات الفنية والإدارية، وهو أيضاً خير من يلتزم بها وينفذها.. السيد المهندس أسامة محمد المصري خير من يقول..

- داخل الخوذة الواقية.. احفظ رأسك يا أخي!!.. فلم ولن يتبق لنا غيرها في مواجهة الغربيين والشرقيين.. على السواء..

ذهب أسامة مساءً إلى مكتبه "صحارى"، تجول بين رفوفها ثم جلس يقرأ أحد كتبها عن تاريخ الشعوب الآسيوية والإفريقية، وعندما وصل إلى خرائط أوكرانيا وبيلوروسيا والبحر الأسود.. خرج له الأدباء الروس من داخل كتبهم!!.. وألقوا عليه تحية المساء "دوبرا فيتشير".. فرد أسامة عليهم التحية بأحسن منها وأضاف!!..

- كيف حالكم.. "كاك دي للاله"!!..!

فأجاب الجميع بكل أريحية..

- حسناً.. حسناً.. خراشوا.. خراشوا..

دعا أسامة زواره "السوفيت" إلى الجلوس أمامه بالقول.. "تفضلوا يا رفاق.. خاديدي.. خاديدي تفاريش.. خاديدي تفاريش.."

جلس الأدباء الروس فوق المقاعد التي ضمت ليف تولستوي وفيدورو ديستوفيسكي وأنطوان تيكوف ومكسيم جوركي وجوجل، ثم بوريس باسترناك ولمهندس فيكتور أندروفنتش كفافتشكنو وشاعر الشباب إيفتشنكو.

شعر السيد المهندس أسامة محمد المصري بالضالة والوحدة في مواجهة هؤلاء العباقرة.. القادمين من عدة عهود سابقة.. بعضها قريب ومعظمها غائر في العمق التاريخي اللانهائي.. توجه أسامة إلى ماكينة تصوير المستندات - القابعة بقرب الأستاذ خليفة - ونسخ من نفسه عدد ثلاث نسخ، ثم نسخ من خليفة عدد ثلاث نسخ أيضاً، تأكد أسامة من وضوح جميع النسخ والأصلية للجلوس في مواجهة الوفد السوفيتي على نفس المنضدة.. لتبادل التعارف وعبارات الترحيب، ثم الانتقال إلى جدول الندوة الثقافية المقترحة من أسامة (الأصل.. والأصيل والأصالة).. وذلك بهدف توطيد العلاقات الإنسانية، وتنمية أواصر الصداقة المعرفية بين جموع الشعبين الشقيقين.

توقع أسامة اختلاط آراء النسخ الست مع بعضها البعض، ثم تمازجها مع آراء الأصلين.. فوضع بطاقة تعريف (بادج) بكل شخصية مصرية على حدة. وجاء ترتيب جلوسهم على مائدة النقاش كالتالي.. خليفة الأول (نسخة)، خليفة الثاني (نسخة)، خليفة الثالث (نسخة)، خليفة الرابع (أصل). ثم أسامة الأول (أصل)، أسامة الثاني (نسخة)، أسامة الثالث (نسخة) أسامة الرابع (نسخة).

وبهذا النظام اكتمل نصاب المتحاورين.. ثمانية مصريين في مواجهة ثمانية (سوفييت) روس. أعطى أسامة إشارة بدء الحوار الثقافي إلى الوفد الروسي (السوفيتي).. قائلاً بلهجة مرحبة ومشجعة في آن.

- "خاديدي تفاريشز" تفضلوا يا رفاق.

قال الرفيق جوجول..

- قدمت معطفي إلى الحياة الأدبية فخرج منه معظم من جاءوا بعدي - داخل وخارج روسيا - لم يمكنني الفقر والموت من تقديم ملابس أخرى..!! أنا اعتبر الإنسان في كل مكان وزمان طفلاً جديراً بالشقة والرعاية المادية والاجتماعية والنفسية.. حتى ينمو دافعاً لنفسه ومفيداً لغيره.

فرد خليفة الأول بلهجة صارمة..

- الإنسان له نفس الاحتياجات من الطعام والشراب والعمل.. سواء ولد في الشرق أو الغرب.. فهذا ليس ذنب من ولد..!!

وأضاف الرفيق فيدورو ديستيوفيسكي..

- إخوتي "كرامازوف" نشأوا مختلفي الطباع، متناقضي الأهداف، متصارعي الأهواء.. رغم تأخيمهم في نفس المنزل..!!.. وإنجابهم من نفس الأب وذات الأم..!! بعضهم كان خيراً وبعضهم كان شريراً.. وحدث ذلك بسبب الضغوط الخارجية للحياة.. التي هزمت فطرتهم الأسرية في مجتمع متعدد الأهواء متنوع المشارب والظروف..

فقال أسامة الأول.. ملتزماً جانب الحذر وقلة الإفازة..

- الحياة كلهب.. حارق للبعض.. ومدفئ للبعض الآخر.. إنه نفس اللهب لكن تأثيره يختلف من شخص إلى شخص.

ورأى الرفيق ليف تولستوي.. بكل تودة وتعقل..

- الرغبة المريضة في تأكيد الذات المتعاطمة دون حدود.. تدفع البشر إلى الحرب التي تهلك الحرث والنسل.. فيلجأ نفس البشر إلى السلام..

ثم شارك خليفة الثاني.. وهو يتصنع الحكمة والسؤدد..

- في البدء كانت الكلمة.. لكن بتنافي الجشع والطمع يتهاوى كل الكلام صريعاً.. أسفل سنايك الخيل المتطاحنة من أجل مباحج الحياة الزائلة.. ويفارق طائر العقل عشه الآمن..

وساهم الرفيق المهندس فيكتور أندورفيتش كرافتشينكو.. وهو يعد الكلمات والحروف، ويحسب لكل عبارة حسابها الخاص بها.. متعمداً وضع كل معنى في مكانه الملائم.

- كثرة الضغط يولد الانفجار.. كثرة التعليمات من الحزب وتعدد القوانين من الدولة وتفشي الأوامر من القيادات المركزية.. تجثم على نفوس المواطنين وتكبت أرواح الفطريين وتغتصب طموح المبدعين.. فيلجأون إلى الهرب من جحيم المحاسبة والالتزام والجبروت و"الديكتاتورية".. إلى جنات الحرية والديمقراطية والثراء.. والإنسان بطبيعته يميل إلى المتعة ويهرب من العذاب.. وهذا ما حدث معي عندما آثرت الحرية في الغرب على عبودية الشرق.

وفضل أسامة الثاني الحديث العام.. الذي يحتمل كل معنى قائلاً..

- المعاناة الإنسانية واحدة في مصر كما في روسيا وباقي البقاع الفقيرة.. التي تستحثنا للتعاون والتعاضد لمصلحتنا جميعاً ضد قوى الطغيان والاستبداد والشره للمال والسيطرة.

وحلق الشاعر الشبابي إيفيتشينكو بعشق الحسان..

- في السماء نجمة مضيئة..

تداعت عيوني..

وتقودني دون أن أدري.

إلى نافذة حبيبتي الساهرة

في انتظار مروري غير المضمون

وأنا أجوب حدائق حسننها

مفعم القلب بالأمل في وصالها

وسط الزهور اليانعة.

فعلق السيد الأستاذ خليفة الثالث على ما يسمع بالقول..

- العواطف النبيلة تجمعنا أيضاً مع كافة شعوب الشرق، فنحن من لحم وعظام.. ولم نقد من صخر أو حديد، والحياة لا قيمة لها دون عواطف وسهر وهوى وبتاريخ، إذا كانت المحبوبة رقيقة وجميلة وطيدة وكارهة للمال..!

عقد السيد الرفيق بوريس باسترناك ما بين حاجبيه متدخلًا بالقول..

- العواطف تضعف بنية الجسم فتجلب له الأمراض التي لا يعالجها سوى الأطباء الأكفاء والمقاتلين من أمثال دكتور "زيفاجو" الذين ضحوا بحبهم ومتطلبات مشاعرهم وعواطفهم الحسية في سبيل مصلحة الوطن.. في سبيل علاج الشعوب السوفيتية مما تعانیه من علل الفقر والجهل والمرض والاستبداد.

وتشجع السيد المهندس أسامة الثالث بالمشاركة في الحديث..

- بجب علينا أولاً تحرير أوطاننا من ربقة الأجنبي، ثم من الطبقة الحاكمة المتحالفة معه والمستغلة لقوت الشعب. ونتجه بعد ذلك إلى عمليات البناء للإنسان وللمصانع والمزارع والمدارس.. سواء بسواء. فنتمكن بعد ذلك من تكوين أسر وعائلات سعيدة ومتماسكة.. تنثمر أجيال قوية طموحة فتتواصل عمليات التنمية. ووافق الرفيق مكسيم جوركي على هذا الرأي الأخير مؤيداً..

- الأم هي عماد الأسرة.. التي يعتمد عليها الجميع ويستمد منها روح التضحية والفداء، فما تبذله في التربية الوطنية لأبنائها ينعكس إيجابياً على الوطن ذاته.. الذي هو في أشد الحاجة إلى كل أم مخلصة وصابرة وفدائية.. بتشجيع الأبناء على التوحد مع أمنا الكبرى روسيا العظيمة.. الممتدة أذرعها القوية في كل اتجاه والمانحة عطفها وحنانها للجميع دون تفرقه.. فالأم الحقيقية هي روسيا.. هي موسكو وأوكرانيا وكازاخستان وسيبيريا.. وباقي البقاع المنتمة لنا ولأجدادنا من قبل. مال السيد المهندس أسامة الرابع إلى توضيح..

- الماضي الزاخر بالأصالة والأمجاد يدفعنا إلى مواصلة الجهد الصادق العمل النبيل في كل موقع.. لننبوأ مكاننا الحضاري الجدير بنا والملائم لشعوبنا.. بالتميز في الاتحاد والنظام والعلم، فنحيا أقوىاء مستقلين ومنتجين لمفردات الحضارة المعاصرة.. كما كان الحال دوماً مع أبائنا وأسلافنا.. فنحن شعب أصيل ناتج عن حضارة أصيلة قدمت الكثير لبني الإنسان في كل زمان ومكان.

تتحنن الرفيق أنطوان تشيكوف، مرور أصابع يده اليمنى فوق ذقنه المدببة، تأكد من صمت الجميع وقال..

- إذا عطس الموظف على قفا مديره أو وجهه - كما اتفق - فلا يجب أن يعطله هذا الفعل اللاإرادي عن أداء واجباته اليومية في البيت والعمل. كما لا يجب أن يشغله هذا العطس عن مواصلة الإبداع الذهني والمادي في كافة مناحي الحياة. فجميعنا معرضون للإصابة بنزلات البرد.. التي يمثل العطس المفاجئ وغير المتجنب - في آن - أولى بوادرها المقبلة.

واختتم السيد الأستاذ خليفة الرابع تتابعات هذا الحوار..

- سعدنا بلقاء الرفاق السوفيت، ولن نستطيع استكمال هذه الحوارات المثمرة الليلة.. فقد حان وقت إغلاق المكتبة.

تصافح الجميع بكل ود وشجن، عاد الروس إلى أعماق كتبهم، وسكنت نسخ خليفة وأسامة فوق منضدة جانبيه. خاطب خليفة الأصل.. أسامة الأصل - أيضاً- بالقول..

- منذ قدومك الليلة وأنت تتكلم وتشير بذراعيك ويديك وكافة ملامحك.. مع من كنت تتحدث؟! أم أنك تتدرب على أداء مسرحية ما.. متعددة الشخصيات ومتنوعة الأدوار والمشاهد!! وما هذه النسخ الورقية (الفوتوكوبي) المتروكة فوق المنضدة..!؟

* * *

تستغرق الحافلة قرابة الساعة للانتقال من مدينة "صحارى" الحديثة شمالاً إلى مدينة "أسوان" القديمة، ولا تستغني عنها مهما زودت بالطرق السوداء والعمارات البيضاء والأشجار الخضراء.. فيضطر السكان وخاصة - النساء - إلى النزول اليومي إلى أسواق أسوان لشراء معظم احتياجاتهم من الملابس والطعام والأدوية والأدوات الكتابية.. وكذلك للنزهة في حدائقها وأنديتها وفنادقها المطلة على نهر النيل العظيم. ومن أشهر معالم أسوان شارع "الكورنيش" المجاور لنهر النيل بكثير من الأشجار والأزهار والورود وإشارات المرور، ونادي (التجديف) الذي يقدم الوجبات الثلاث والمشروبات وتقام فيه الحفلات والمناسبات السارة، وحديقة وفندق أمون "والكتاراكت" وأبو سمبل.. التي تغص بالسياح والضيوف والزوار. وسينما وفندق وحديقة الصداقة (المصرية - السوفيتية)، وجزيرة وحديقة النباتات وفيلات ومقبرة "الأغاخان" على الضفة الغربية لنهر النيل العظيم، ثم سلسلة الجبل الغربي ومقام الشيخ "أبو الهواء" المطل بكل خشوع على نهر النيل العظيم، ومشارف المدينة من جهتها الشمالية. وفي قلب أسوان العظيمة يقع قصر الثقافة.. كقمر منير في كبد السماء المظلمة. ويضاف إلى ذلك محطة السكك الحديدية ومرقد "المسلة الناقصة" والأسواق والأحياء والمحلات القديمة والحديثة على السواء. أسوان بجملتها تمثل زمردة نفيسة تخبئ عبق الماضي التليد وتشيع بضياء الحاضر الطموح.

ويعيب أسوان شيء واحد فقط - لا ذنب لأحد فيه - هو حرارته القانطة ظهيرة كل أشهر الصيف. ويترتب على ذلك أن كل ما سبق ذكره من المفردات الأسوانية يفح بالحرارة - غير المحتملة - بدءاً من أسفل الطريق إلى السمك المقلي.. مرور بالجدران والملابس والوجوه وماء النيل ذاته..!! طوال أيام الصيف في الفترة من الساعة العاشرة صباحاً حتى الخامسة عصرًا.. والتي تعادل في مدن الدلتا - الشمالية - الساعة الثانية ظهراً..!! ونهر النيل المقدس الذي يمثل نعمة جمالية.. في أفلام السينما والصور الورقية.. يساهم بما يخره من مياه سطحه في رداءة الطقس وجعله خانقاً..!! وقسوة هذا الطقس هي التي صبغت جلد سكان المدينة - وما حولها - باللون الأسود.. ذو البريق النابض بالطاقة والحيوية.

أسامة وبعض زملاؤه كانوا يذهبون إلى مدينة أسوان.. عصر بعض الأيام المعتدلة الحرارة للنزهة والتسوق وبحثاً عن الألفة والحميمية والوجوه الجديدة المشرقة بالجمال والحياة. والمتمثلة بكل حيوية في كينونة الفتيات الأسوانيات، اللاتي يتبعثرن على امتداد شارع الكورنيش وفي الحدائق والأسواق مساء كل يوم.. للترييض واستنشاق الهواء الطيب والعذب بقرب نهر النيل العظيم. بذل أسامة - وزملاؤه - جهوداً خرافية للتودد إلى الأسوانيات الرشيقات القدود، وللتقرب إلى عذرواتها الحسنات.. لكن دون جدوى حقيقية..!! فما أن تظهر بعض علامات الاستلطف والرغبة في التعارف.. حتى يظهر بعض الشباب



الأسواني - الأصل - ثم يتعاملون مع هذه المواقف العاطفية.. على أنها مضايقات!!.. تصدر من الفاجرين (أبناء الشمال) ضد الوادعات قريرات الأعين من الأسوانيات الأصيلات العفيفات والطاهرات.. من وريثات خديجة وفاطمة وزينب - وغيرهن من كريمات آل البيت النبوي الشريف - فينتهي الأمر كله بتبادل التعليقات الجارحة فالسباب فالتطاحن بالأيدي والأقدام!!.. وخلال ذلك تطاير عبارات مثل..

- احترموا أنفسكم.. فتياتنا لسن مثل فتياتكم.. أنتم هنا ضيوف على أسوان فلا تتطاولوا.. لا تتجاوزوا حدودكم ومحارم الضيافة.. نحن نعلم جيداً ما تضمرونه من شر لبناتنا العفيفات ونساءنا الطاهرات.. افعلوا ذلك في مدنكم الفاجرة.. نحن نسافر إلى مدنكم الفسيحة ونفعل فيها بكل سهولة..!! ما تحملون بفعله هنا بكل صعوبة..!! تذكروا جيداً أنكم هنا في أسوان.. وليس في مدن الدلتا المبهجة والماجنة.. هذه مدينة أولياء الله الصالحين وستظل كذلك شئتم أم أبيتم.. هذه مدينة العقاد.. وليس مدينة كازانوف..!! وإذا خلا المكان من الشباب يظهر الشيوخ بكل سهولة ووفرة.. فيسألون الأسوانيات المتجاوبات مباشرة..

- لماذا تتحدثون إلى هؤلاء الغرباء (الأجانب)!!.. هل تعرفونهم من قبل..؟.. هل تعرفون أهاليهم وأسرهم وأصولهم ونواياهم..؟.. احتشمن وإلا..!! ألا تعرفن الحياء..!!

وعادة ما كانت الفتيات تهربن.. أو تتسللن نحو مجاهل الاختفاء والغياب المفاجئين.. أو تغادرنا الطريق إلى جانبه الآخر مهرولات وفرعات.. مما يرين ويسمعن ويشعرن!!.. وفي الحالات القليلة التي نجح فيها التعارف مع أسوانية.. تسارع بإعطاء ابن الشمال عنوان أبيها - أو أقرب محارمها - للشروع في إجراءات الارتباط الشرعي..!! من خطوبة ومهر وأثاث وحفلة عرس وزواج.. في ظل توفر شقة مجانية تمنح لكل طالب زواج من "مشروع بناء السد العالي".. تشجيعاً للاستقرار العائلي والنفسي. ورغم كل هذه المحاذير أفلح أسامة - وبعض زملاؤه - في إقامة علاقات صداقة مع أسوانيات أصيلات وعفيفات.. ولكن عمر هذه الصداقة لم يتعد بضعة أشهر!!.. وكانت تنتهي بالمطلب القريب البعيد..

- الشروع في إجراءات الزواج الشرعي. وتكرر الأمر كذلك مع غير الأسوانيات الشابات.. من فتيات من الشمال اللاتي يعملن في كافة الشركات والدواوين الحكومية، فكانت العلاقة تطول بعض الشيء لتقارب العام.. ولتنتهي بنفس المطلب الداني والنائي في آن!!.. أما العلاقات مع الأجنيات من السائحات الغربيات والشرقيات - على السواء - فكانت تدوم لأيام قلائل.. وربما ساعات..

وسط ضباب هذه الظروف المغلقة والكابتة.. اضطر الشباب إلى إقامة علاقات بريدية مع فتيات أسرهم وجيرانهم وزميلاتهم في مدن أسرهم ومواطنهم الأصلية، وخلال عامين من المراسلات والاتصالات البريدية والهاتفية (التليفونية) كانت العلاقات تنتهي بالزواج الشرعي.. فيقول الشاب لمن حوله..

- أنا ذاهب في أجازة شهر.. وسأعود بصحبة زوجتي.. أو سأرجع برفقة عروستي.. أو سأرتد وعروستي في يدي.. أو ستروني وحبيبتي في ذراعي.. أو وداعاً للعزوبية وللشقاء.

أجل أسامة النطق بأشبه هذه العبارات الزوجية.. لعدم وجود رغبة حقيقية لديه في الزواج المبكر.. وما يرافقه من تبعات، وفي نفس الوقت قنع بقليل من العواطف الذي يحصل عليه - بعد لأي - من الأسوانيات

والمغتربات والسائحات والخطابات البريدية والهواتف وبعض اللقاءات.. داخل وخارج محافظة أسوان الحبيبة.

ذات مساء ذهب أسامة - وبعض زملائه لمشاهدة فيلم "النداهة" داخل سينما الصداقة العربية السوفيتية شمال مدينة أسوان" (دروجيا آرابسكايا سوفيتيكيخ سينما).

قرب نافذة قطع تذاكر دخول السينما تجاوزت أربع سيدات روسيات متراوحت الأعمار بين الشباب والكهولة، ومن بينهن اهتمت امرأة مكتنزة وملوحة الوجه بكينونة أسامة.. فأطالت النظر إليه وتأمله. وكلمها دار أسامة بعينه - في أرجاء المكان- وعاد إلى الروسية يجد عينيها في عينيه مع الابتسام المتزايد الاتساع.. والذي أخذ يراوج بين العيون والشفاه، غمرت مشاعر الخدر والتودد الروسية وأسامة في آن، ولمح ذلك بعض رفاقه فشجعوه على الاقتراب من المرأة ومحادثتها.. ولما تأكدوا من ترده تقدم الرفاق مصاحبين أسامة معهم إلى السيدات الروسيات، ثم شرع كل من يعرف كلمة روسية في ترديدها على أسماعهن المرحبات. وكانت أكثر الكلمات تبادلاً هي..

- الصداقة (دروجيا).. السلام (ميير).. الشباب (كومسمول).. الاتحاد (سايزا).. موسكا (موسكفا).. القاهرة (كايررا).. أسوان (أسوان).. حسنا (خارشوا).. شكرًا (إسباسيا).. معًا (سوا.. سوا).. طيب (دوبرا)..

...

سُمح للمشاهدين بالذهاب إلى مقاعدهم.. فأفلح أسامة في الجلوس بجوار السيدة الروسية "داريا" التي أبدت بعض الاهتمام به، وجلس الباقون - كيفما اتفق - على يمينها ويسارها. ووسط تناعم الحروف والكلمات العربية والروسية - في آن - فوق الشفاه الشبقة.. مع العيون المحدقة بالرغبة في الانتشاء.. أظلمت قاعة السينما لبدء عرض الفيلم.. الذي لم يذكر أسامة منه شيئاً يذكر.. إذا شغل طوال الوقت بتحسس كافة أعضاء "داريا" التي بادلته المشاعر والعناق والقبلات والاعتصار..

عندما أضيئت الأنوار تبادل الجمع السعيد - من المصريين والروسيات - العناوين (والتليفونات) والهواتف.. والوعود بتكرار اللقاءات.. علم السيد المهندس أسامة محمد المصري، أن ناداته السوفيتية السيدة الرفيقة الرقيقة "داريا داريافيتش كوتلياروف" هي أرملة ضابط بالجيش الروسي.. قضى نحبه في القلاقل العسكرية الروسية البولندية.. وألحقت بعمل كتابي بإدارة التخطيط والمتابعة - داخل القنصلية الروسية - في أسوان، وهي الإدارة المختصة برصد كافة مشاكل مرحلة التشغيل التجريبي، لمحطة كهرباء السد العالي وكذلك جسم السد نفسه.. شاملاً مداخل ومخارج المياه وما بينها من أنفاق وممرات.. ودهش أسامة عندما علم أن باقي رفيقات النداهة السوفيتية كن من الأرامل أيضاً!!.. اللاتي فقدن بعولهن في ظروف مماثلة. رفاق أسامة لم ينافسوه في ملاحقة رفيقات "داريا دارياوفيتش كوتلياروف".. رغم ما هم فيه من جذب عاطفي وعطش نفسي وحرمان باطني.. فتملصوا تدريجياً من وعودهم وأمانهم وأحلامهم.. في أكل اللحم الأبيض الناعم مثل "جلي" التفاح.. بحجة وجود مخاطر أمنية وعقائدية ودينية.. أما أسامة.. فقد طرح جانباً كل هذه المعوقات.. في سبيل دعم أواصر العلاقات الثنائية بين الشعبين المصري والروسي.. إضافة إلى تنمية روابط

الصداقة المصرية السوفيتية.. وهي ما نصت عليه بنود الاتفاقيات وأصابير المعاهدات المتبادلة بين حكومتي الشعبين الشقيقين.. والتي أثمرت - ليس فقط - تسليح القوات المسلحة المصرية وبناء مشروع السد العالي والمصانع المتعددة فقط.. بل أيضاً الغرام المتنامي بين أسامة المصري وداريا الروسية.. التي أخذت تحت أسامة على ترك غرفة عزوبيته "صحارى" ومشاركتها غرفة ترمّلها بأسوان.. لينعما بالحب معاً!!.. ولا يضيعا الوقت في الانتظار ووسائل المواصلات. وقالت النداهة الروسية ذات مساء حالم - بلهجة شجية- وأنفاسها تداعب صدر أسامة العاري..

- كفى ما ضاع من عمرينا.. الأيام القادمة ستكون أكثر بهجة.

فوعدها أسامة خيراً.. ثم طمأنها بعدم مفارقتها.. سواء في أسوان أو القاهرة أو موسكو.. أو غيرها من المدن العالمية. وكل مؤقت اتفق أسامة مع داريا على قضاء يومي أجازته الأسبوعية في غرفتها بأسوان، حتى يجدا مكاناً آخر أكثر ملائمة لحياتهما المستقبلية.. والذي قد يكون شقة في أسوان أو صحارى.. التي واصل في مكتبتها سيل اللقاءات الثقافية المسائية.. مع الآباء الفرنسيين أمثال شارل بودليير وفكتور هوجو وجان جاك روسو.. وبعض المحدثين أمثال جان بول سارتر وألبير كامي وجان كوكتو وأندريه مالرو. ثم مع الآباء الإنجليز أمثال تشارلز ديكنز ووليم شكسبير وتوماس ستيرن إليوت.. وبعض المحدثين أمثال سومريست موم وفرجينيا وولف وشارلوت برونتي. ثم مع بعض المفكرين العالميين من كافة أرجاء المعمورة أمثال ميغل دي سيرفانتيس وبيرل باك ولوجيبي بيرناديللو وتيس وليامز ووليم فوكنر ونادين جورديميير وفيدريكو جارسيا لوركا وباولوكو يليو جاريثا ماركيز وفرانز كافكا ونييتشه ويركيارد.. ثم مع الآباء العرب ابن خلدون وابن رشد وأبي حيان التوحيدي وبعض المحدثين أمثال نجيب محفوظ ومحمد عبد الحليم عبد الله وسعد كاوي.. وبطبيعة الحال تطلب ذلك عمل ماكينة نسخ وتصوير المستندات بكل طاقتها.. لتحضير النسخ اللازمة لكل لقاء من أسامة وخليفة وبعض أذعياء الثقافة.. الذين يتصادف وجودهم داخل المكتبة عند كل لقاء. بينما كانت رأس أسامة تتكسد بالثقافة العالمية والمعرفة المحلية والآداب الراقية - داخل مكتبة صحارى- كانت رأسه أيضاً تستوعب - بكل أريحية- كافة المعلومات الفنية والدقائق الهندسية والنماذج العلمية.. الخاصة بكامل مشروع بناء السد العالي.. شاملة ما يخص المياه والكهرباء من تخزين وتصريف ورفع وخفض وقياس وإنتاج ونقل وتوزيع وتشغيل وصيانة ومتابعة وتوثيق واختبارات ورصد مشاكل ومتابعة حلها وتحجيم أضرارها.. مما مكنه في نهاية ستة شهور فقط من التدريب.. العمل مستقلاً!!.. بعد اجتيازه بنجاح وتفوق عدة اختبارات نظرية وعلمية أهلته للثقة فيه والاعتماد عليه.. في العمل كمهندس تشغيل وردية (نوبة) للمعدات الميكانيكية داخل محطة كهرباء السد العالي، وصدق على كفاءته الفنية والإدارية لجنة مشتركة من المصريين والسوفيت.. الذين لم يمنحوه شهادة ورقية فقط بل.. منحوه أيضاً طاقة حيوية هائلة وشجية.. في أحضان "داريا داريا وفيتش كوتيلاروف"!!.. التي كانت أكثر الجميع اغتباطاً وفرحاً.. باستقلالية أسامة كمهندس وردية معتمد من رؤسائه المصريين والسوفيت - على السواء- وتمثل ذلك عملياً فوق سرير داريا.. عندما أهرقت زجاجة كاملة من خمر "الفودكا".. فوق ثدييها الغضين وبطنها البضة.. ثم طلبت من أسامة أن يقضي ليلته الهائلة في ارتشافها

دون هوادة...!! فحيح الطاقة الحيوية المتبادلة بين كافة أعضاء أسامة وداريا.. لا تقل حرارة عن فحيح الطاقة الكهربائية المنتجة في السد العالي.. والمنقولة شمالاً إلى كافة بقاع مصر المحروسة...!! ففي كل مدينة وقرية ونجع.. تُرى أبراج وخطوط كهرباء السد العالي.. التي يشار إليها بالبنان من الكبير والصغير - على السواء - فيقولون.. هذه أبراج السد العالي.. انظر إلى خطوط نقل كهرباء السد العالي.. يوجد بعض الأزيز حولها...!! ناتج عن سريان الكهرباء في جوفها.. يوجد بعض الشحنات الكهربائية بالقرب من الأبراج والخطوط وقواعدها الأسمنتية.. الخطوط الكهربائية تصدر فحيحاً.. يجب البعد عن كل ما يخص الكهرباء من أبراج وقواعد وقوائم وخطوط وأسلاك وشبكات وعدادات وأدوات وبشر وموظفين ومفتشين.. وفواتير بطبيعة الحال...!!

مشروع السد العالي هو مفخرة مصر الأولى - ولا يقل قيمة عن مشروع حفر قناة السويس وبناء الأهرامات وبناء الثقة المتبادلة بين رجال ثورة يوليو وعموم المصريين في المقام الأول. لو أن ثورة يوليو لم تفعل شيء آخر سوى بناء السد العالي.. والسد العالي فقط.. لكفاها ذلك سموً ونبلاً وخلوداً إلى قيام الساعة.. رغم التفوق الفني والإداري لأسامة على أقرانه.. إلا أنه علم منهم بعدم أحقيته في الحصول على شقة معيشة زوجية.. قبل مرور عام كامل على أول يوم لبداية تسلمه العمل المستقل كمهندس تشغيل بنظام النوبات (الورديات) الثلاث.. التي تضم في كل وردية ثلاثة مهندسين: مهندس للمعدات الميكانيكية ومهندس للمعدات الكهربائية ومهندس لغرفة التحكم.. ويتبع كل مهندس مجموعة من الفنيين والعمال والمساعدين. سعد أسامة بتحملة مسئوليات عمله، وخاصة عندما كان يسمع أسمه يجلجل في فراغ بهو (عنبر) التوربينات وباقي طوابق مبنى محطة الكهرباء من خلال أبواب "الميكروفونات" الصداحة بالقول.. "السيد.. المهندس.. أسامة.. محمد.. المصري.. يتصل.. بغرفة.. التحكم.. أو..". السيد المهندس.. أسامة.. محمد.. المصري.. يتوجه.. إلى.. مكتب.. كبير.. المهندسين.. أو.. "السيد.. المهندس.. أسامة.. محمد.. المصري.. يستقبل.. الوفد.. الزائر.. أو..". السيد المهندس.. أسامة.. محمد.. المصري.. يتوجه لمقابلة.. سيادة.. المدير.. العام.. وكانت هذه النداءات تنطق ببطء وبهدوء.. ولا تقل عذوبة عن مثيلتها في قاعات ركاب الطائرات.. المسافرين والقادمون.. على السواء...!! والأرجح أن كل من يمسك "الميك" للنداء على شخص ما، من خلال "الميكروفونات" العديدة، كان يعتمد تقليد فتيات المطارات في الترقق والتظرف والتدلل.. ببطء نطق الكلمات وإطالة وقتها، مع الضغط على مخارج الحروف، والتمهل بين كل كلمة والتي تليها.. فيبدو النداء وكأنه جـزء مـن أغنية عاطفية...!!

أو همسة حالمة أو دعوة مغرية.. لتجنب المؤلف والمعتاد عليه.. نعم.. نعم.. هو بالأحرى إغواء...!!

استمرت علاقة الحب الشجية بين أسامة وداريا قرابة العام، والتي اقتربت من كونها علاقة زوجية.. في مرحلة ما قبل التوثيق والتسجيل والإشهار. فكثيراً ما كانا يشاهدان معاً في كافة أسواق أسوان وداخل محلاتها وحدائقها وفنادقها وقواربها.. كما أفلح أسامة لعدة ليال في استضافة داريا داخل غرفة عزوبيته - بصحارى

- أو غرف الفنادق في الأقصر وأسوان خلال جولاتهما السياحية والترويجية. وذات مساء وفوق سرير داريا "بغرفة ترملها" حدثته بكل غنج قائلة..

- حبيبي.. طوال الوقت وأنت تغرقني بهداياك من الملابس والمعاطف والقلنسوات والحلي والأغطية والمفروشات والحقائب والأحذية.. الأربعاء القادم سيوافق عيد ميلادي.. أريد منك شيئاً مميزاً له.
- سأرافقك إلى الأسواق لتشتري ما تبتغيه.
- كلا.. كلا.. هذه المرة لا أريد الذهاب إلى أسواقنا المعتادة..
- وإلى أين تريدان الذهاب إذن؟
- أريد زيارة محلات بيع الذهب..!! فهو أكثر رونقاً مما عداه.
- جميع النساء يغرمن بالذهب والفضة والألماس.
- الذهب يكفي هذه المرة.. هذه المرة فقط..!!

في اليوم التالي أحضر أسامة كل ما يحتفظ به من نقود داخل غرفة عزوبيته، ثم رافق داريا إلى محلات الذهب بأسوان.. وبعد عدة جولات بين معروضاتها الثمينة.. اختارت داريا سلسلة عنق تنتهي بحلية على شكل زهرة لوتس. ودفع أسامة ثمنها الذي يعادل راتبه لأربعة شهور. تظاهر أسامة بالكرم الحاتمي الذي يحبه في كل شيء.. بعيداً عن المشغولات الذهبية والفضية وأشباهها.. وفي غمرة غبطة داريا بذهبها البراق.. قضى في أحضانها ليلة ذهبية فاقت كل سابقتها غنجاً وحيوية وانتشاء.

ولما كان دوام الحال من المحال.. والحياة ديدنها التقلب والتغيير.. الذي أتى هذه المرة من أعلى عليين.. عندما زمجر السيد رئيس البلاد وهاج وماج طالباً خروج جميع السوفيت من جميع البلاد..!! لانتفاء الحاجة إليهم.. دون الأخذ في الاعتبار حاجة أسامة إلى داريا - وأشباهها - أو حتى دون تقدير للخسائر المادية والعاطفية والنفسية والاجتماعية.. التي ستحل على أسامة وأمثاله. من أين سيأتي أسامة بداريا أخرى..؟ ما ذنب داريا في هذا الأمر..؟ بل ما ذنب جميع السوفيتيات..؟ هل شاركت داريا داريا وفيتش كوتلياروف..!! في وضع سياسات الحكومة والحزب ومجلس الدوما واللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي لاتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية..؟ حتى يشملها قرار الطرد من الجنة..!! لماذا لم تستثنى النساء..!!؟ فهن ضروريات لكافة أنشطة الجنة..!!

سارع أسامة بالتوجه إلى أسوان.. قاصداً عقد قرانه في الحال على داريا.. ليحول دون خروجها في هوجة الغضب المدمر والعبيث، لكنه ما أن وصل باب شقتها.. حتى وجدها مغلقة ومظلمة تنعي كل ما كان فيها من بشر وعواطف وغرام وطعام وشراب وملابس وذهب وفضة.. طرق أسامة الأبواب المجاورة.. فأخبر برحيل جميع الروس والروسيات إلى بلادهم الباردة، توجه أسامة إلى مبنى القنصلية ومبنى الفنون البيئية والتراثية وسينما الصداقة.. فوجد جميع الأبواب مغلقة واللافتات منزوعة بوحشية والجدران حزينة والنوافذ تلطم على من جاورها في الأيام الخوالي.. أين ذهبت عهود الصداقة..؟ أين ذهبت أضيائير الوفاء

والالتزام؟.. أين اختفت فاعليات الصداقة المصرية السوفيتية؟.. أين فنيت داريا داريا وفتيش
كوتلياروف؟..! كلها راحت.. وبقي أسامة محمد المصري في أسوان..

صورة ص ٢٥٣

القاهرة

فكر أسامة في الذهاب إلى القاهرة، والبحث فيها داخل المباني السوفيتية.. عن أي أثر لداريا أو أي معلومات عنها، لكنه أحبط برفض إدارته منحه أجازة - لحاجة العمل إليه- كما أنه أخبر بسفر جميع روس جنوب مصر مباشرة من مطار أسوان إلى المطارات السوفيتية ودول الكتلة الشرقية الحليفة. علم أسامة بأن السفارة الروسية بالقاهرة ما زالت تعمل، كما أن العلاقات لم تقطع تمامًا.. وإن غشيتها الضباب الكثيف!.. فعشم نفسه بالأمل في وصلها ووصل داريا في قادم الأيام.

تردد أسامة كثيرًا على الشقة المغلقة لداريا - ورفيقاتها - كم دار حول جميع الأماكن التي ضمتها معًا.. وفي كل مكان كان ينشد لإبراهيم ناجي..

- هذي الكعبة كنا طائفوها.. والمصلين صباحًا ومساءً.. كم سجدنا وعبدنا الحسن فيها.. كيف بالله رجعنا غرباء؟؟

ثم لإيليا أبو ماضي..

- جئت لا أعلم من أين..؟! ولكني أتيت.. وسأبقى سائرًا.. إن شئت هذا.. أم أبيت.

ثم ينشد في لوعة:

- أين أحلامي..؟! وكانت كيفما سرت تسير.. كلها راحت.. ولكن كيف راحت؟! لست أدري.

أسبوع بعد آخر كانت الأبواب والنوافذ والجدران تنافس مطارح الهوى المصري الروسي في الشحوب والذبول. كانت الذكريات تتساقط بعيدًا بعيدًا في جب النسيان الذي لا قرار له. خفتت عبارات الحب وضعفت كلمات الغرام ووهنت حروف العشق المستحيل والمستعصي على التصديق والخلود.. فصار وهماً وخيالاً وافتراضاً رياضياً غير قابل للتحقيق خارج الدفاتر المدرسية.

نعم.. نعم.. "داريا داريا وفيتش كوتلياروف" تحولت إلى سراب متبخر بحرارة وأشعة شمس أسوان الملتهبة معظم ساعات النهار. وهي نفس الشمس التي ألهمت جلد من تسبب في ذلك.. وصبغته باللون الأسود الكئيب الذي تسرب إلى باطنه وكامل كينونته البائسة.. رحلت البهجة برحيل داريا من حياة أسامة، لم يعد في أسوان سوى الشمس الحارقة والصحاري الملتهبة والمشروع الأسمنتي العملاق الذي "يمنح الحياة وهو سد"!!.. لذا تاقت نفس أسامة القلقة إلى الترحال هنا وهناك (فلذة العيش في التنقل).

أحضر أسامة خارطة جغرافية لكامل مصر المحروسة، ثم حدد فوقها كافة المناطق الجديرة بالزيارة والسياحة وسط معالمها، وشملت كافة عواصم المحافظات إضافة إلى بعض مدن البحر الأحمر وسيناء الحبيبة. واستهدف أسامة كذلك بحار الثقافة ومحيطات المعرفة والتنوير المكتنزة في هذه البقاع بما تتميز به من سحر وغموض وتاريخ تليد وحاضر باهر. شرع أسامة في تتابعات رحلاته المتعددة، بتنظيم أيام أجازته السنوية وتقسمها على ممرتين أو ثلاث، ليتمكن في كل مرة من زيارة محافظتين متجاورتين - على الأقل - إضافة إلى زملاءه المهندسين



في بعض المدن الأخرى.. وعلم من الجميع أن وظيفة واحدة لم تعد تكفٍ...!! لمواجهة متطلبات الحياة.. فمعظم من التقى بهم يعملون في وظيفتين أو ثلاث..!! حتى يقفون فوق أقدامهم أمام الأسعار المتزايدة وفحش الضروريات الحياتية والأسواق المضطربة - قلبًا وقلبًا والتي جعلت الليل نهارًا.. ودفعت معظم المهن للاستمرار في النشاط دون توقف.. ليس فقط طوال ساعات الليل والنهار.. بل أيضًا طوال أيام الأسبوع..!! بنظام الورديات (النوبات) الثلاث. فسيارة الأجرة (التاكسي) تسلم من سائق إلى سائق آخر، وكذلك محلات الفواكه والخضراوات والمشروبات والمقاهي والصيدليات والعيادات والورش.. نصح الجميع أسامة بترك أسوان في القريب العاجل...!! والانضمام إليهم - في القاهرة أو الإسكندرية- ليقادهم في وظائفهم الثنائية أو الثلاثية.. حتى يتمكن من مواجهة متطلبات الحياة العصرية.. من شقة وسيارة وأسرة وممتلكات، وذكره بعض زملاءه بأن سنوات عمره تجري في غفلة منه.. وأن هناك من يصغرونه قد تزوجوا وأنجبوا أطفالاً.. بينما هو منهمك في قضايا المياه والتصحّر والطاقة الكهربائية والسكان والبيئة ولقاءات الأدباء والمحدثين الروس والفرنسيين والإنجليز والعرب..!! عندما شبع أسامة من التنقل شرقًا وغربًا، ومن الترحال شمالًا وجنوبًا.. ذهب إلى مقابلة رئيسه المباشر، الذي توقع أن يطلب أسامة منه بعض المساعدة الإدارية لتسهيل حصوله على شقة الزوجية بأسوان.. فإذا به يفاجئ بطلب أسامة مساعدته الإدارية - أيضًا - في النقل الوظيفي من أسوان إلى الجيزة..!! الملاصقة للقاهرة الكبرى بكل ود وحميمية. عم الذهول كل من يعرف أسامة بعموم أسوان، إذ توقع الجميع استقراره في قلب المشروع المائي. بما حصله من خبرات نادرة ومعلومات متميزة ومهارات متفردة عن الماء والكهرباء والتاريخ والجغرافيا والطقس والبشر.. بعموم أسوان أيضًا. لكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن.. فها هو أسامة نفسه يخطط لرحلته الأخيرة نحو القاهرة الكبرى وضواحيها.

كلف أسامة بتدريب مهندسًا ناشئ.. على كافة مسؤولياته الوظيفية، ليحل محله في إدارة التشغيل بمحطة كهرباء السد العالي.. والذي تحقق خلال ستة شهور، نقل أسامة بعدها إلى مدينة الجيزة، وفي أحيائها عادة ريمة لحياتها القديمة" بانخراط أسامة في العمل كسائق سيارة أجرة (تاكسي) والدروس الخصوصية للمرحلتين الإعدادية والثانوية إضافة إلى وظيفته الحكومية.

مر على أسامة قرابة العام.. أدرك خلاله - المرة تلو الأخرى - قلة جدوى كل ما يفعله..!! فكلما تعرف بزميلة له أو أعجب بفتاة.. تطالبه بزيارة أسرتها للشروع في إجراءات الزواج.. فتخذله جيوبه الخاوية..!! ثم يتهم - ممن يحب - بالعبثية والعدمية وعدم القدرة على تحمل مسؤوليات تكوين أسرة وشقة وزوجة وأطفال أبرياء.. وبعد عدة علاقات عاطفية مبتسرة تؤكد أسامة أن أمثاله من المعدمين ماديًا.. سيعانون في بناء أسرة - كباقي خلق الله - نفس معاناة مصر في بناء السد العالي..!! وربما أشد وفي نهاية النفق الظلم رأى أسامة بصيصًا من ضوء قاده مخدرًا لتجربة الهجرة المؤقتة.. إلى دول أوروبا الغربية أو دول آسيا الغربية.. والفراق الجبري لمصر الحبيبة.

صورة ص ٢٥٩



مؤرخ رغم أنفه

"سبحانه ما أبدع في ملكوته"، سماوات وكواكب وظلمة ومدارات، كل هذه البدائع الربانية، تظل وتدور وتحتوي وتثير وتظلم، وأيضاً تمتد بروائها كواكب من شكل آخر، هبطت واستقرت واستوت وترعرعت على سطح هذه الكوكب العجيب "كوكب الأرض"، ونحن الآن نقف أمام محطة من محطات الكواكب التي أزهرت وأبدعت وانتشرت في حياة الخلائق، خاصة في مدار الثقافة والأدب، والتي فقدت منذ أيام فلافل كوكباً قد أثرى المكتبة العربية بروائعه الروائية والتي أعطت بوضوح صور الإشكالية بين الطبقات وخاصة المجتمع العربي (المصري)، من فقر وغنى ومبادئ عليا وسفلية، وسياسات تتبح بالديكتاتورية، بدء من "سي السيد" وتنهش كل من يريد صداها ولو حتى بالكلمة؛ مما أوصل المجتمع العربي إلى الحضيض في كل مناحي الحياة، ابتداء من قيمة الإنسان، ونهاية بوجوده في زيل العالم الذي لا يرحم، وبدلت المقاعد للنجيب (نجيب محفوظ) من على خشبة المسرح إلى صفوف المشاهدين، بالصالة "البرزخية"، ليراقب عن قرب لكواكب الإبداع ومن ضمنها (أبو نصير عثمان)، صاحب المدار الخاص والمتفرد بنوعية من أدب الكتابة لا يقدر أحد اختراق مداره الأدبي والإبداعي، كان كوكب إبداعه يجذب دائماً إلى الشمس "الهاشمية" والتي نشاهدها بوضوح من علامات الإتقان لما سبق ما قدم من أدب، سواء في المجموعات القصصية أو في روايته السابقة، من حيث الاتزان في الأسلوب "الشيق الغريب"، والأفكار المرتبة في مدارها الصحيح بعيداً عن التأرجح والانجذاب في نواميس أخرى تبعده دون أن يدري عن إتقانه لأسلوبه ومهارته تحت شمس "الهاشمية المتواضعة" لتدخله في تأرجح منجذباً لشموس أخرى ليس به "مرسى" ولا صوت "كروان".

ولمرجعيته المتفردة، كانت المفاجأة بانفجار بركانه الأدبي ليخرج من باطنه أدباً جديداً يضاف إليه رغم أنفه.. وأنف من حوله، أدب "التأرخ"، الذي تدفق في هياج بين طيات صفحات (الغواية)، ليكشف عن واقع مذاقه "الصبار"، في ترابط "جنزير الكاتينة" والتي عشقتها شخصية (أسامة محمد المصري)، والإطالة المملة الواعية التي ينفرد بها "أبو نصير عثمان" بإلقاء الضوء على زمن معين في تاريخ معين لمدينة محددة كاشف مشاهد لوجهها القبيح ثم يتدرج على ما حولها من ظروف معيشية مختلطة (سمك لبن تمر هندي)، من لواط وفقر ومخدرات، لا يفرق بين ملة وأخرى واضعاً الجميع في موضعه الحقيقي والطبيعي، والذي عاشه (أسامة محمد المصري) ابتداء من أول حلقة من حلقات "الجنزير"، مروراً بمراحل عمره وسقوطه في أول حلقات الجنس مع (فردوس)، ثم انتمائه لشعار (ارفع رأسك يا أخي فقد مضى...)، وضياح الشعار تحت الأقدام مع مؤهله العالي لأول خطوات الانتماء، (الخدمة العسكرية)، ثم تسلسل حلقات الجنزير بإلقاء الضوء على (ماء الحياة) نهر النيل العظيم، ومراحل كفاح بناء السد العالي، ثم التصوير الدقيق للسد ومركباته وإصراره على تصحيح الموقع الجغرافي والمنتشر في المراجع العلمية والثقافية والسياحية، والتصوير الشامل للأيدي العاملة بكافة مستوياتها واختلاط أجناسها، والتقلب السياسي والذي أدى إلى انهيار علاقة جنسية مع "داريا السوفيتية" وعزمه الحر، في تصحيح الوضع بالزواج منها، ولكن تختفي محبوبته بعودتها لروسيا بالأمر السياسي، لتثبت عليه أحوال الرذيلة والتي لا تفارقه رغم تفوقه العملي والعملي، ولتأتي مرحلة

أخرى من مراحل العمل المستمر بالعاصمة الكبرى القاهرة، ليكشف الغطاء عن وضع استشرى في المجتمع المصري بالدوران والسعي حول (قبلة): "الجنية"، فقط ولا هم غيره، مع سهولة ارتكاب الفاحشة في قلب العاصمة وفي بيوت يعتقد أنها بيوت محافظة.

كل هذه الأحداث تأتي لتعبر عن احتواء (أبو نصير عثمان) لمراحل ومشاهد دقيقة وواضحة للمجتمع المصري ابتداء من مدينة (سط) بداية بحياة أهل جنوب مصر ومرورًا بالخدمة العسكرية وإظهارها دون أن ينسى ولو خطوة واحدة من خطواته العسكرية، ثم بناء السد العالي وشبكات الكهرباء والتوربينات وملامسة أهل أسوان وتحسسه أنوثتها "البكر"، وبهذا فقد أعطى الملامح الصادقة دون تحيز لمراحل مرت بها الحياة المصرية، وبدون وعي نجد أنفسنا أمام قلم يكاد أن يصل إلى مرتبة مؤرخي تاريخ مصر، أمثال المقرئ (إغاثة الكربة بكشف الغمة) وتصويره للمجاعات داخل القاهرة "الفسطاط" وشح النيل وانحساره إلى بر الجيزة وبيع الكلاب والقطط بالأسواق، واصطياد الناس من خلال أسطح البيوت وأكلها، فكان سرد (أبو نصير عثمان) تكملة لمشهد من المشاهد الصادقة لما أصاب مصر من أحداث، ما زالت متواجدة ولم تتقطع ولا نعلم بقسوة أحوالها القادمة، أو انتهاءها، وهذا ما أراد التلميح به من خلال روايته، فإذا كانت (الغواية) قد أدخلته بوعي في إطار التأرخ وزمرة المؤرخين، فهذا رائع، وإن كان دخوله بدون وعي فهذا أروع.

الكاتب الصحفي

محمد عزام